المجموعة القصصية الكاملة





بنت الهدى

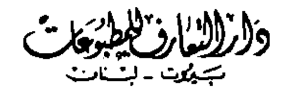
المجموعة القصصية
الكاملة

دار التعارف للمطبوعـــات
بيروت ـ لبــنان
ص.ب ٨٦٠١

بنت الهدى

المجموعة القصصية الكاملة

المجلد الاول



المجموعة القصصية الكاملة

- الفضيلة تنتصر
- ليتني كنت أعلم
- إمرأتان ورجل
- صراع مع واقع الحياة
- لقاء في المستشفى
- الخالة الضائعة
- الباحثة عن الحقيقة
- كلمة ودعوة
- ذكريات على تلال مكة
- بطولة المرأة المسلمة
- المرأة مع النبي

مقــدمة الناشر

ان الصراع الفكـري بين الانـظمة السـائدة اليـوم ، انعكس في مجتمعاتنا الاسلاميه بصورة سلبية حيث غـزت المفاهيم الغريبة البعيدة عن تقاليدنا وجذورنا ، غزت عقول اجيالنا الناشئة فاقتلعتهم من جذورهم باسم المبادىء السامية والحضارة المزعومة والتقدم الموهوم.

في ظل هذا الضياع الفكري، والغزو المنظم لـديارنـا حيث تاه شبابنا في غياهب الفِكَر الواردة المزخرفة بشعارات الحرية والعدل والمساواة البراقة، تلك التي قضت على معالم الشخصية الاسلامية ومرتكزاتها.

في ظل هذا الانحراف الخطير، الذي نال من معتقداتنا الكثير، وشوّه تراثنا وكاد ان يقضي على معالمه.

في ظل هذا الغرق في بحر الفوضى الفكرية والسلوكية، التي نالت الجوهر في الصميم.

في ظـل هذا التـزييف والتزويـر الفاضـح ، المخـطط والمنظم ، لأنبل تشريعاتنا.

وفي ظل هذا اللانتماء، والجموح ونوازع الهوى التي ابتعدت بأجيالنا كثيراً عن عقيدتها وواجباتها واحكامها.

في ظل هذا كله.. بات ضرورياً العمل، والعمل الجاد، منهجاً وتنظيماً لإنتشال هذا الجيل من الهاوية التي لن تسحقه وتدمره وحسب، بل ان اثارها امتدت وسوف تمتد الى القيم التي ما برحت مجتمعاتنا الإسلامية تتمسك بها وتدافع عنها.

ولم يطل الانتظار، فكان الرد حاسماً للانتشال العقائدي من هذا الاختلال.. وكانت الدعوة الى اعلان كلمة الله والحق.

كان الرد بعيداً عن الانفعال والتعصب وقد تناول وبشكل دقيق كل النواحي التي تعرضت لها الفِكَرُ والنظريات التي حاولت ان تمس العقيدة من خلال اظهارها قاصرة عن التصدي للمشاكل التي يعاني منها الانسان إن في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي.

وقد جاءت الأبحاث ـ الردود ـ بعيدة عن التعقيد والغموض فاعتمدت الاستدلال العقلي والعلمي لتدحض الإعتقادات الأُخر من خلال عرضها وحججها ثم محاكمتها ومناقشتها بعيداً عن المغالطات والاوهام.

ولم تقتصر الأبحاث ـ الردود ـ على ناحية معينة أو عالجت

موضوعاً معيناً بل اتخذت طرقاً عديدة، ومناهج مختلفة وكان هدفها جميعاً ايصال الحقيقة الحقّة للباحثين عنها أو الذين يطلبون لها مزيداً من التأكيد كي يطمأنوا.

وكانت ترمي، في مختلف اتجاهاتها، تنزيه النفس وتجريدها من الشوائب وبلورتها بالشكل الذي يرضاه الله.

فكانت رحلة... شاقة من الشك الى اليقين والى مزيد من خطوات التكامل.

ونحن.. لم نبعد، ولم نكن يوماً الا في خدمة هذه الرحلة وهذا ما اخذناه على عاتقنا ـ بعونه تعالى ـ فقد وضعنا ـ ولا نزال ـ إمكاناتنا في عرض وتقديم ما يساعد على نشر الحقيقة واقامتها وترسيخها في النفوس والافكار فتشع نوراً وهدى وايماناً.

من هذا المنطلق، والالتزام. نقدم للقارىء العزيز، ولشبابنا التائه مجموعة ـ الكتب القصص ـ للمفكرة القادرة بنت الهدى التي قدمت العقيدة واحكامها في قالب قصصي شيق هادف رسمت من خلال شخصياتها المتناقضة طريق الهدى.

فجاءت مناراً لجيلنا الناشيء الذي لم يبصر إلا الظواهر ولم يدرك إلا البريق... فتاه في بحر الحضارات الزائفة المزورة... وابتعد عن طريق الصواب.

لقد حاولت بنت الهدى ان تنتزع شبابنا وفتياتنا بموقف ايجابي بنّاء، من مجال التيه والفساد إلى عالم الطهارة والتسامي.. من خلال مناقشات هادئة باسلوب رصين مقنع اعتمد المنطق والمنطق وحده.

وقد عالجت معالجة صادقة المشاكل التي تعاني منها المرأة المسلمة فرسمت بمعالجتها هذه لها طريقاً تزداد بها المرأة مناعة ووقاية من السموم... التي شوهت وجودها كأنسانة فاعلة في المجتمع والتي حولتها الى سلعة يتصرف بها الرجل كما يشتهي ويريد.

وقدمت صوراً ونماذج، وإن كانت من محض الخيال فانها كانت تعكس واقع الحياة التي نعيش حيث تتصارع القوى، قوى الخير والشر. قوى الفضيلة والرذيلة..

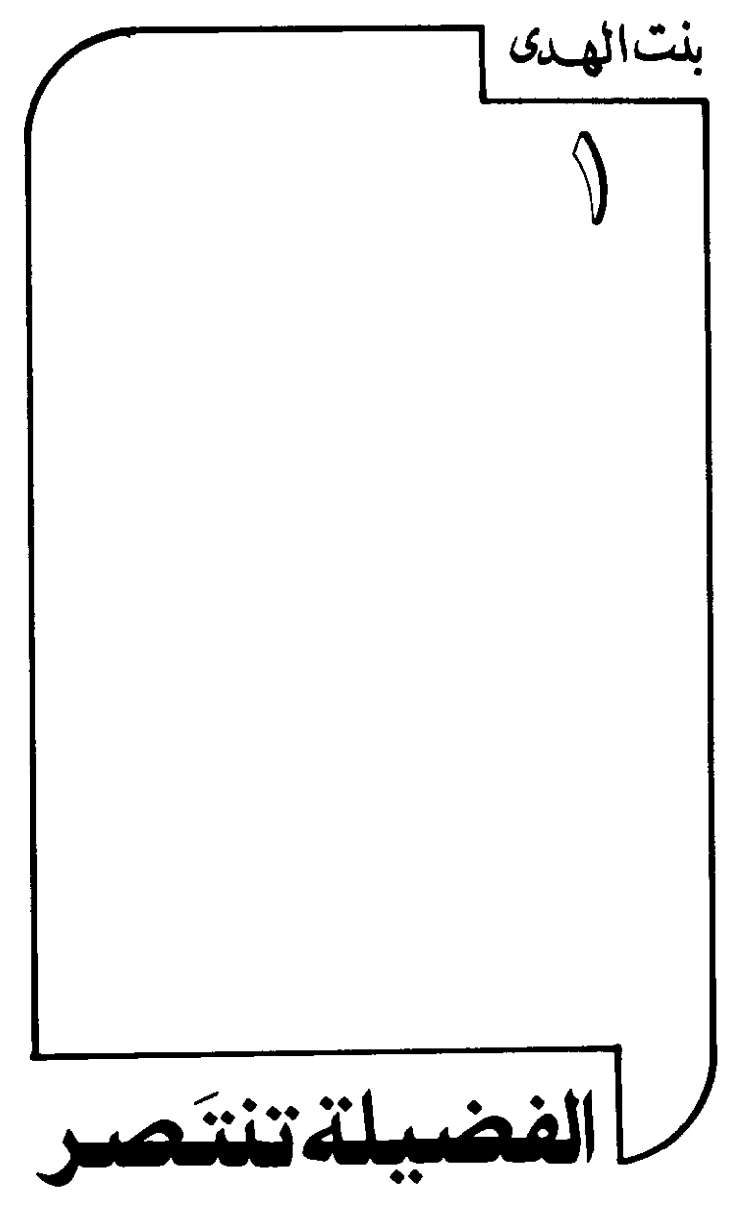
اليك ايها الشاب، واليكِ ايتها الفتاة... محاولة بناء الذات..

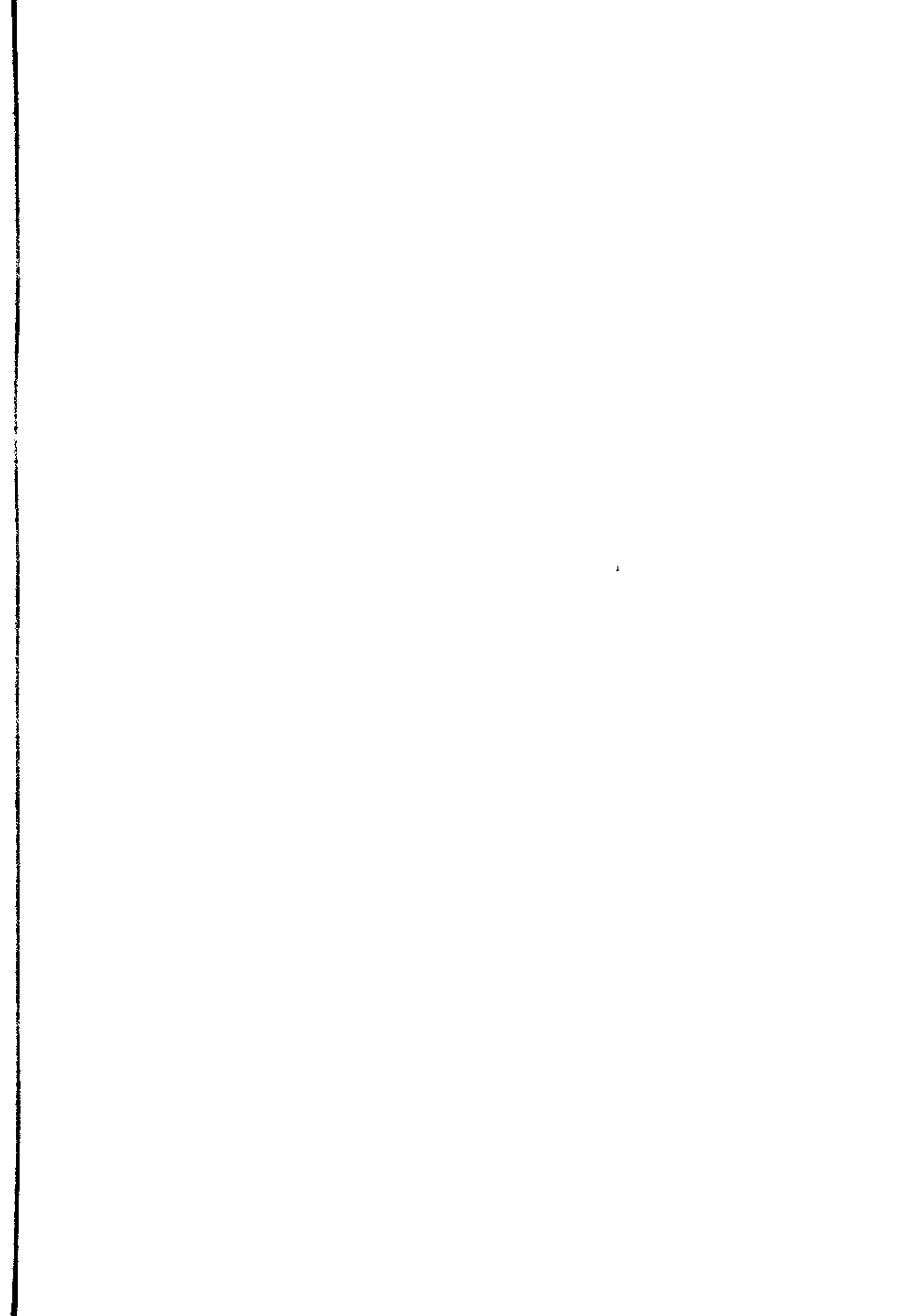
اليك... حاول ان تقرأ... فتستفيد... وستنتصر فيك ارادة الحق... إن اهتديت.

انها المعركة المفتوحة معك... لإرجاعك الى جذورك.. الى عقيدتك...

انها رحلتك من الضياع والشك... الى اليقين... إلى اعلان كلمة الله.

الناشر


بنت الهدى
١
الفضيلة تنتصر



المقَدِّمَة

هذه ـ قارئي العزيز ـ ليست قصة، فلست قصاصة ولا كاتبة للقصة. . . بل أني لم أحاول قبل الآن أن أكتب قصة. إلا أن هذا الذي أقدمه اليوم إليك، راجية أن ينال منك الرضا والقبول، لا يعدو أن يكون صورة من صور المجتمع الذي نعيشه وانموذجاً من واقع الحياة التي نحياها. حيث تتصارع قوى الخير والشر وتلتحم العقيدة بجيشها الفكري والروحي في معركة مع حضارات الاستعمار وأخلاق المستعمرين.

أنا لا أقول أن الخيال لعب دوره في تجسيد صورة محدودة لهذا الصراع لكي يبرزه بطريقة ترضيك وتدفعك إلى متابعته ولكن غايتي الواقعية، هي إبراز جوهر الصراع لارتوشاته وهوامشه. . فإذا كنت قد نجحت في الجوهر والصورة معاً فهذا غاية ما أتمناه وإلا فأني على ثقة من قدرة قصتك هذه على إبراز المحتوى العقائدي للصراع الدائر بين دعوتي الفضيلة والرذيلة وجوهر التناقض الذي تعاني منه حياة كل

مسلم ومسلمة في هذا العصر. على أن ما قمت به لا يعدو عن كونه محاولة بنّاءة لفتح الطريق وتعبيده بغية السير في إحياء جهاز إعلامي صامت من أجهزة الاعلام التي تواكب سيرنا ونحن في بداية المنعطف.

بنت الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

في شرفة أحد المنازل جلست فتاتان تكبر أحداهما الأخرى ببضع سنين، وإن كانت كبراهما تبدو أكبر من واقعها، نظراً لتراكم الأصباغ على وجهها، وتعقيد تسريحتها ومكياجها الصارخ... لكن الثانية كانت على العكس منها؛ فهي تبدو وكأنها في السادسة عشر، مع أنها تناهز العشرين.. وكان شعرها الذهبي مرسلاً على كتفيها ببساطة محببة، وقد دل وضعها على أنها هي صاحبة البيت، وكانت تستمع إلى رفيقتها... وقد لاحت على ملامحها علامات الاستياء، فلم يكن كلام صاحبتها بالكلام المهذب، ولم تكن قد اعتادت على الخوض في مثله أو الاستماع إلى هذا النمط من الحديث، فمحدثتها هذه هي بنت خالتها وقد رجعت وشيكاً من أوروبا بعد مدة قضتها هناك بأمل أن يحصل زوجها على شهادة جامعية، وبعد أن يأسا من ذلك عادا دون أن يتمكن زوجها من نيل الشهادة. تلك هي سعاد... وقد سمعت أخيراً نبأ عقد قران بنت خالتها نقاء فبادرت إلى زيارتها بعد

سماعها للخبر مباشرة وهي مدفوعة إلى ذلك بدوافع عديدة. . . وفعلاً فقد كانت تمهد الطريق للدخول في الموضوع فهي مندفعة تحدث بنت خالتها عن أوروبا وعن معالم الحضارة التي سحرتها، وتحبب إليها السفر إلى هناك، وتحشو حديثها بكلمات ونكات مبتذلة كان لها تأثير عكسي على نقاء! فقد كانت تتجهم بدلاً عن الضحك، وتضيق بالحديث بدلاً من الخوض فيه. فهي فتاة مهذبة نشأت في أحضان أسرة مستقيمة محافظة حريصة على الآداب الدينية. وقد عقد قرانها على شاب عريق الأصل رفيع المنبت حاصل على شهادة (الليسانس) يدير محلاً تجارياً يستورد فيه البضائع من الخارج. وعلى هذا فقد استقل بعمله التجاري الذي يدر كان أرباحاً طائلة وهو شاب مسلم واقعي يؤمن بالاسلام كمبدأ وعقيدة ونظام. وقد عجل بالعقد الشرعي ليملك حريته في الاتصال بعروسه. وقد قامت بينهما بعد ذلك علاقة حب وإعجاب متبادل أخذت تتزايد على مر الأيام، وكانت بعض ظروف الزوج الخاصة تستوجب تأخير الزفاف. وقد ضاعف اتصال نقاء بعريسها من ثبات روحياتها العالية ومن حرصها البالغ على مثل الاسلام وآدابه. . ولهذا فقد كان من حق نقاء أن تستنكر على بنت خالتها أغلب ما كانت تقول. . . ولكنها لم تر من اللائق أن ترد عليها أو تعارضها بعنف ـ بما أن سعاد ضيفتها ـ واكتفت بالاستماع. وبعد أن أتمت سعاد كل ما في جعبتها من كلام سكتت برهة ثم أردفت قائلة:

ـ إن أحسن منطقة تقضيان فيها شهر العسل هي إحدى دول أوروبا.

وهنا رأت نقاء أن الواجب يدعوها لكي ترد، فأجابت:

ـ أوروبا! لا، نحن لن نذهب إلى أي بلد أوروبي... ولكن قد نذهب إلى بعض البلدان الاسلامية...

وضحكت سعاد وهي ترد عليها في شيء من التهكم.

ـ لعلكما تنويان أن تقضيا شهر عسلكما في مكة وفي موسم الحج...

ـ لا، قد نذهب إلى الحج ولكن ليس خلال أيام شهر العسل.

ـ ولماذا لا تقترحين على زوجك السفر إلى لندن أو باريس هل تعتقدين أنه يتمكن على ذلك من الناحية المادية؟.

ـ إن المادة ليست كل شيء يا سعاد! ولكن إبراهيم لن يوافق على ذلك مطلقاً وكذلك أنا أيضاً.

ـ لعله يخشى السفر بالطائرة، يمكنكما إذن أن تسافرا في السيارة أو على ظهر الباخرة. وعلى فكرة هل يملك زوجك سيارة يا نقاء؟.

ـ السيارة موجودة يا سعاد، وهو لا يخاف من ركوب الطائرة أبداً، ولكن ابراهيم شاب مسلم محافظ لا يحلو له أن يقضي شهر العسل في أوروبا.

ـ آه. . . هل هو متأخر إلى هذا الحد؟ إن هذا شيء مخيف، له ما بعده يا نقاء. . .

ـ لا يا سعاد أنه شاب مثقف متنور الأفكار.

ـ إذن فما الذي يمنعه من السفر معك إلى أوروبا؟

ـ الدين. . .

ـ ماذا! الدين؟!

ـ نعم، الدين. . . والدين فقط.

ـ هل أتمكن أن أفهم من هذا أن زوجك رجل متدين؟!

ـ نعم، والحمد لله.

ـ أنتِ تقولين: والحمد لله، لأنك تجهلين معنى أن تتزوج فتاة عصرية مثقفة من رجل متدين وتجهلين ما يستوجب ذلك من قيود وحدود وأحكام صارمة.

ـ لا، أبداً أنا لست كما تظنين غافلة أو جاهلة، ولكني فتاة مسلمة أعرف أن للاسلام أحكامه وآدابه. . .

ـ وهل قوانين الاسلام إلا قيود تشدك بأغلالها القاسية! وهل آدابه سوى أغوار سحيقة تحجبك عن المجتمع تحت سجوفها؟.

أنت تقفين الآن على أبواب الحياة فلا تمكني الأفكار الرجعية أن تشوه مستقبلك السعيد. . .

ـ أنتِ غلطانة يا سعاد! إبراهيم قادر على أن يهبني السعادة الواقعية في الحياة، وأنا لا أهوى غير السعادة التي

يهيأها لي، فقد أصبح بالنسبة لي كل شيء...

ـ بالرغم من هذا، فأنك لن تصبحي له كل شيء بل ولن تتمكني أن تكوني عنده شيئاً بل ستكونين على هامش حياته وعلى الهامش دائماً!.

ـ سعاد!! إسحبي كلامك بسرعة، فأن لي لدى إبراهيم المنزلة اللائقة والمحل الرفيع، الرفيع من الحب والحنان...

ـ ما دمت في دور الخطوبة وما دامت لم يتمتع بك كما يريد، ولكنه متى اطمأن إلى استيلائه عليك سوف ترين الرجل المسلم كيف يكون!!

ـ وأنت ألست مسلمة يا سعاد؟!

ـ طبعاً أنا مسلمة ولكن ليس على غرار إسلام إبراهيم، فمن رأيي أن للمرأة الحرية الكاملة بالتمتع في الحياة وبما فيها من بهارج ولذائذ، ولكن إبراهيم يأبى إلا أن يجعل من المرأة العوبة طيعة وأداة محكومة لا أكثر ولا أقل.

ـ عجيب أمرك يا سعاد! ما الذي يدفعك إلى هذه النقمة التي تنقمينها على الاسلام وأنت مسلمة!؟ هل خدعتك أوربا؟!.

ـ أبداً... لم تخدعني أوروبا، ولكن حبي لك هو الذي دفعني إلى التصريح بآرائي في هذا الصدد. لقد سررت كثيراً عندما سمعت نبأ خطوبتك يا نقاء... ولكن الآن؟!

ـ ولكن الآن ماذا؟! .

ـ إذا أردت الواقع فأني قد أسفت بل حزنت، فقد كنت أعدك لمستقبل أفضل. . .

ـ ما يدريك يا سعاد، فلعلني سعيدة جداً، كما أنا في الواقع.

ـ إذا كان زوجك من النفر الذين يتمشدقون بالاسلام ومفاهيمه فهو لن يتمكن من اسعادك مطلقاً.

ـ أنا لا أرتاح إلى تعبيرك هذا يا سعاد، فمن تعنين بالنفر؟ ليس الاسلام وقفاً على نفر فحسب، ألا ترين الملايين المؤمنة بالإسلام في كل مكان؟.

ـ أنا أقصد بالنفر: هؤلاء الذين برزوا علينا بأقاويلهم الجوفاء التي لا يبغون من ورائها سوى سيطرتهم على جنس المرأة، والتحكم فيها، بفرض القيود والالتزامات.

ـ ولكن الرجل المسلم، له أيضاً أحكامه الخاصة والتزاماته المعينة، وليست الالتزامات وقفاً على النساء فقط.

ـ لكنهم أحرار يفعلون ما يشاؤون بدون رقيب أو حسيب. أو لم يذهب إبراهيم إلى أوروبا من قبل، ألا يعتزم أن يذهب إليها بعد الآن؟.

ـ أنه سوف يذهب إلى فرنسا بعد مدة وجيزة لأجل

التعاقد مع إحدى الشركات، ولتقديم أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراه.

ـ فهذا إذن حلال، ولكن ذهابك حرام. أنه في حل من الاسلام مهما دار وسار ولكن قيود الاسلام لا تطوق سوى عنقك يا نقاء.

ـ أنا لست مقيدة يا سعاد؟ فأنا سعيدة بإبراهيم، وبكل مثله ومفاهيمه.

ـ أنا آمل أن تكوني سعيدة ولكنك الآن في غفلة وأخشى أن لا تصحي منها إلا بعد فوات الأوان.

ـ ماذا تعنين يا سعاد؟..

ـ أعني أن الزواج لا يمكن أن يكون زواجاً ناجحاً إذا لم يكن قائماً على أساس من مفاهيم الحضارة الحديثة، والفتاة لن تحصل على السعادة إلا بزواج ناجح، ولهذا ترين أن الفتاة العصرية أخذت تتحرر من قيود أهلها وتستقل باختيار الزوج الذي تريده.

ـ أنا وابراهيم على اتفاق تام ولن تزيدنا الأيام إلا ثقة وتفان ووئاماً.

ـ قد تبقين أنت قائمة على إخلاصك يا نقاء، ولكن الرجال ليسوا كالمرأة أنهم يخدعون زوجاتهم بأساليب وأساليب، منها الدين ومنها العفة والفضيلة، فهم يحتجزونها

في الدار بحجة أنها مسلمة، ويضنون عليها بكل غال ونفيس ببرهان أنها عفيفة فاضلة.

ـ وهل تعتبرين جلوس المرأة في دارها وعشها السعيد احتجازاً؟!.

ـ نعم، فالمرأة لا تتمكن من الاحتفاظ بزوجها إلا إذا سايرته ورافقته في رحلاته وسفراته وحفلاته، ولكن المرأة التي تقبع في عقر دارها وتترك لزوجها الحبل على الغارب لا يمكن لها أن تركن إلى دوام سعادتها في الحياة الزوجية.

ـ وهل تعرفين إبراهيم يا سعاد؟ ليتك كنت عرفتيه...

هنا سكتت سعاد لحظة حاولت فيها أن يبدو صوتها طبيعياً وهي تقول:

ـ لم يسبق لي أن رأيته يا عزيزتي.

ـ لو عرفتيه لتبدلت نظرتك نحوه تبدلاً كلياً يا سعاد! فهو رجل مثالي، حلم العذارى المؤمنات...

وبدا الارتباك على سعاد، وتململت في جلستها، ثم قامت وهي تقول:

ـ عليّ الآن أن أذهب فقد طال بي الجلوس، ثم أني مدعوة إلى حفلة هذه الليلة.

وعجبت نقاء لفورية عزم سعاد على الخروج، فقد كانت

مندفعة في كلامها وكأنها لا تنوي الانصراف، وعندما ودعتها ورجعت كان صوت أمها يتناهى إليها وهو يناديها من داخل الدار:

ـ نقاء... نقاء... أين أنتِ يا عزيزتي؟

ـ ها أنا ذي يا أماه.

ـ منذ ساعة وأنتِ جالسة وحدك في الشرفة.

ـ لا يا ماما، لم أكن وحدي فقد كانت معي سعاد.

ـ سعاد! ألم تنصرف سعاد منذ ساعة أو أكثر.

ـ نعم ولكنها اقترحت عليَّ أن نجلس قليلاً في الشرفة.

ـ لماذا؟!.

ـ لا أدري.

ـ ولكن أمك أدرى يا نقاء... لا بد وأنها كانت تحدثك عن أوروبا وحضارتها المزعومة.

ـ تماماً كما قلت يا ماما.

ـ الويل لها من غريرة، ألم يكفها أنها لوثتها حضارة الغرب لتجيء وتسكب على أذنيك كلماتها السامة، أنها خشيت أن تخوض في هذا الموضوع أمامي، فآثرت أن تجتمع بك على حدة. يا لها من شيطانة.

ـ أماه! إنها بنت أختك فلا يصح لك أن تنعتيها بهذه الأوصاف!.

ـ أنا بريئة منها ومن سلوكها المنحرف، أنها كانت السبب

في التعجيل بموت أختي، فلم تكن أمها تطيق منها هذا السلوك، والآن تعالي حدثيني عما كانت تحدثك عنه سعاد، لأرى أي نوع من الحديث هو؟.

ـ دعي عنك ذلك يا ماما، فهي لم تقصد من وراء كلامها أي سوء.

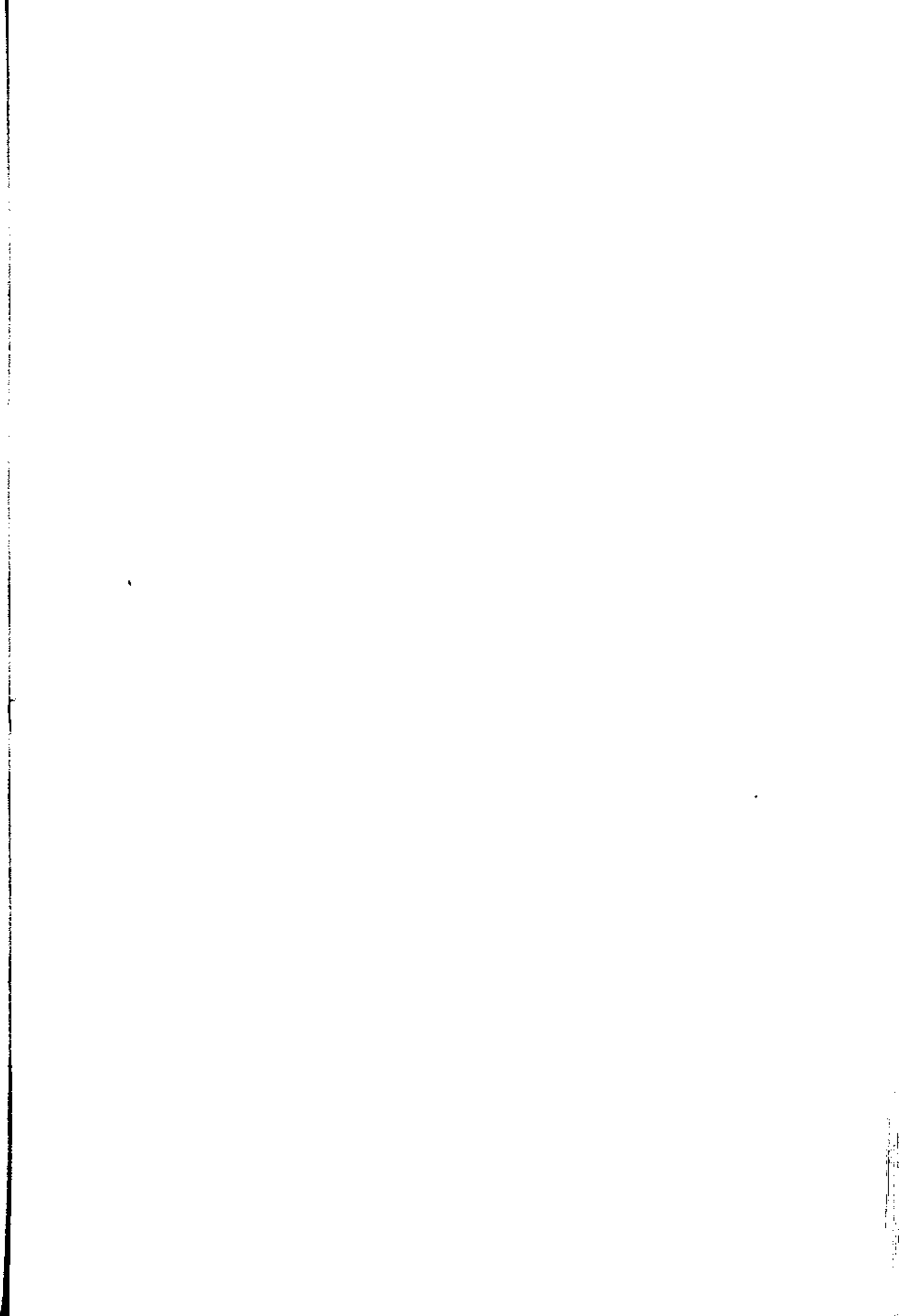
ـ ليتها كانت هكذا، وليتك تعرفينها على حقيقتها لكي لا تغرك بكلماتها المعسولة.

ـ هوني عليك يا ماما، فأنا لا أتأثر بكلام سعاد وأفكارها ولكني لا أوافق على نعتها بهذه النعوت، أنها بنت خالتي على كل حال.

ثم ذهبت نقاء إلى غرفتها واستلقت على سريرها، وهي تحاول أن تصرف أفكارها عن سعاد، فهي لا تشك لحظة في اخلاص ابراهيم، وأنه سوف لن يتوانى عن تهيئة جميع أسباب السعادة لها في الحاضر والمستقبل، ثم أنها بطبعها أيضاً كانت تشعر بخطأ سعاد وانحرافها بأفكارها عن الصواب... فكرت بالمكسب الذي جنته سعاد من حياتها هذه وهي لم تحصل أخيراً إلا على زوج عاطل، لم يتمكن حتى من نيل شهادة جامعية أولية، سواءاً في بلده أو في الخارج.

وقد استعاض عن ذلك بأمواله التي ورثها عن أبيه ينفق منها ما يشاء في مغامراته ولهوه دون أن يتخذ نعمة الله

مصاريف خير وطمأنينة وهناء، لكن سعاد لم يكن يهمها غير المال، ولا تعيش إلا لأجله. وصممت نقاء على أن تسأل إبراهيم عن واقع المـرأة في الاسلام، وعن حقيقـة نظرتـه نحوها، فهي واثقة من أنه كفيل بإيضاح الواقع وتفسير ناحية فرق المرأة عن الرجل في الاسلام.



الفصل الثاني

أمـا سعاد فقـد استقلت سيارتهـا، وانطلقت بـأقصى سرعة، وكأنها كانت تحاول أن تصب جام غضبها على هذه الآلات المتحركة، وعندما وصلت الدار توجهت إلى غرفتها دون أن تعرج على الصالون، لترى زوجها هل رجع أم لا؟ وألقت بنفسها على الكرسي وهي في حالة انفعال عصيب. وتمتمت قائلة:

ـ الويل له من عنيد، ألم يكفه أنه ردني عن نفسه ذلك الرد القاسي حتى جاء لينكث جراحي، فخطب نقاء، فهو يظن أن نقاء تنسجم مع مفاهيمه ومثله، وهي التي لا ميزة لها عليَّ إلا لتوهمه أنها فتاة فاضلة... أنا التي سعيت إليه بنفسي قبل أربع سنوات، لم يستجب لتوسلاتي بحجة أني طائشة ومنحرفة عن آداب الاسلام، الاسلام الذي يؤمن بمفاهيمه، ولكنه سوف يعلم أن نقاء هذه لن تكون غير غانية لعوب، سوف أعرف كيف أنفث فيها السم الذي تجرعته من قبل، والذي أدى إلى ما أنا عليه من ضيعة وتفاهة في الحياة، سوف أسدد نحوها نفس السهم الذي أرداني وحرمني من إبراهيم،

سهم الحضارة الحديثة، سوف أجعلها واحدة من آلاف الفتيات المخدوعات اللواتي سرن وراء النفير الأجنبي فتحطمت حياتهن من جراء ذلك، أو لست واحدة منهن؟... ألم أضطر أخيراً إلى الزواج من هذا الرجل التافه على أمل أن أشبع نهمي إلى المال وأتمتع بما تصبو إليه نفسي من متعة ولهو؟... ألم أخضع لسلطان ماله فتجرعت مجونه وتبذله لكي أبقي على الذهب بين يدي؟.. سوف أحرم نقاء من إبراهيم كما حرمني نفسه من قبل. سوف لن أمكنه من الحصول على غايته المنشودة، فهو كان يسعى خلف زوجة مثالية مسلمة مستقيمة... وسوف أريه أن ذلك محال، سوف يعرف أن نقاء لا تختلف عن سعاد لو أتيحت لها الفرصة، أنه يذهب للحصول على شهادة الدكتوراه في الوقت الذي لم يحصل زوجي حتى على شهادة جامعية أولية. محال أن أدع نقاء تنعم بزوج كإبراهيم، أنا كنت أعرف أنه رجل عبقري صلب العقيدة ولكنه عنيد رجعي مغرور.

وهنا شعرت سعاد أن باب غرفتها يفتح ببطىء، فتطلعت نحوها لترى زوجها محمود وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تخابث ثم قال:

ـ لقد ظننتك مريضة يا سعاد وأنت تتجهين إلى غرفتك دون أن تعرجي عليَّ، والان هل لي أن أدخل؟...

ـ وحاولت سعاد أن تبدو طبيعية، وهي ترد عليه قائلة:

ـ كنت أشعر بصداع شديد منعني أن أعرج على الصالون.

ـ ولكنك الآن في صحة جيدة، ثم هل أن جلوسك على هذا الكرسي وأنت في كامل ملابسك شيء مريح؟ أم أن مجرد رؤيتي بالخصوص كانت تتعبك يا سعاد؟.

ـ أرجوك يا محمود... أراك لا تتوانى عن إثارتي في كل مناسبة، أنا لم أكن أعرف وجودك في البيت.

ـ شكراً.. ألم تلاحظي وقوف السيارة في الباب؟!..

ـ أبداً... فقد فاتني ذلك.

ـ لا بد أنك كنت في شغل شاغل عن ذلك.

ـ قلت لك: أنني كنت أشعر بصداع شديد.

ـ ولكنك الآن على ما يبدو في أحسن صحة والحمد لله؟.

ـ محمود... ما لي أراك تأبى إلا أن إتغيظني بأية طريقة؟.

ـ معاذ الله يا سعاد، فما أنا سوى واحد من عشرات الراكعين على قدميك، قدميك، و...

ـ يكفي يا محمود، أنا أعرف كلماتك وأقاويلك مقدماً

فلا داعي لتكرارها، فأنا أصبحت أتمكن أن أخمن ما الذي سوف تتحفني به من حكم وآيات.

ـ وهل تروقك الحكم يا سعاد؟ أو هل تتمكني أن تفهمي حكمة واحدة لو كنت حكيماً؟ إن من حسن طالعك أن ساقني الحظ إليك، فأنت لا تكوني تصلحي لزوج سواي.

ـ وأنت، هل أن هناك امرأة كانت تطيقك غيري وأنت على ما عليه من تفاهة في الحياة؟ أنت تتكلم عني وتنسى نفسك.

ـ وكيف؟ هل أنا سيء إلى هذه الدرجة؟.

ـ المهم أن تعرف أني لو لم أكن زوجة ممتازة لما تحملتك يوماً واحداً فليس لديك ما يحببك إلى المرأة.

ـ فلماذا إذن رضيت بي زوجاً؟ ولماذا طلبت مني ذلك ودعوتني إليه؟!.

ـ يا لك من رجل وضيع...

ـ لا بأس يا سعاد، أنا أعلم أن عندي ما يشدك إليَّ، فأنت تعبدين المال وعندي منه الشيء الكثير، وعندك أيضاً ما يشدني إليك فأنا أعبد اللذة والجمال وعندك

منهما الشيء الكثير، ثم أني أريد أن أعيش حراً، فلا بد وأن تكون زوجتي حرة أيضاً، وعلى هذا فإن كلا منا مشدود لصاحبه.

ـ هل انتهيت يا محمود؟.

ـ لا... فمنذ يومين لم أتمكن أن أراك لحظة واحدة، لياليك في الحفلات... وساعات نهارك في محلات التجميل... وكأنك قد نسيت أن لك زوجاً وبيتاً... لا أدري ماذا كنا سنصنع لو كان لدينا طفل؟.

نطق محمود بكلمته الأخيرة بمرارة وكأنه ينتزعها من فمه انتزاعاً، ولكن سعاد لم تمهله لكي يكمل هجومها عليها، فقد وقفت وهي تقول: أرجوك أن تتركني وحدي يا محمود أنا تعبانة ومريضة أيضاً، ولا بد لي أن أنام.

ـ إذن فأنتِ لا تريدين أن تتناولي معي طعام العشاء.

ـ لا، مطلقاً، إذهب عني يا محمود فإن حالي ليس على ما يرام.

ـ أهكذا تطردينني يا سعاد، ماذا لو ذهبت إلى غير رجعة؟.

وكادت سعاد أن ترد عليه قائلة: إذهب لا أرجعك الله... ولكنها سرعان ما تمالكت عواطفها، فمحمود بالنسبة

لها رصيد ضخم من المال، فهل يصح أن تتنازل عن هذا الرصيد؟ أنها لا تحب محمود، بل أنها تحتقره وتنفر منه، فهو لا يعدو عن كونه وجوداً تافهاً في الحياة، لا يملك غير المال، وحتى أساليب لهوه ومجونه هي التي علمته إياها ودلته عليها، لكي يتسنى لها أن تعيش معه وهي حرة كما تريد، ولكن أمواله وبريق الذهب المكدس في صناديقه، وداره الفخمة الشاهقة، وسيارته الفارهة، لم يكن في مقدورها التنازل عن كل هذه الأمور، ولهذا فقد حاولت أن تطبع على وجهها ابتسامة كانت قد اعتادت أن تأتي بأمثالها متى شاءت ولمن شاءت، ثم قالت:

ـ أنت تعلم يامحمود أنك إذا ذهبت عني فلن تطيب لي الحياة بدونك، ولكن الصداع ـ وفي نفسها تقول الصراع ـ هو الذي يدعوني إلى الانفراد بنفسي والركون إلى الراحة.

ـ ليتك لم تكوني جميلة، أو ليتني لم أكن عبداً للذاتي، إذن لعرفت كيف أتصرف معك، وكيف أميت فيك هذا الغرور، لا بد أنك تودين لو تقولين لي: ليتك لم تكن غنياً، فدعيني أنا أقولها بدلاً عنك: ليتني لم أكن غنياً، إذن لما وقعت في أحابيلك الشائكة.

ـ يا عزيزي! أنت تتجنى عليَّ كثيراً فأنا لا أحب فيك إلا شخصك الكريم.

ـ شكراً.. شكراً. وأخيراً أما زلت تصرين على إقصائي؟

ـ إن جل ما أرجوه أن تكون قريباً مني دائماً ولكن الآن أرجوك أن تنصرف فأنا في حاجة إلى النوم.

ـ هكذا أنت دائماً، كلماتك معسولة، وأفعالك جارحة، وها أنا ذاهب فإطمإني

ثم نهض محمود وغادر الغرفة دون أن يلقي عليها كلمة وداع، وساء سعاد أن يتركها محمود غاضباً، وخشيت إلى لحظة أن تكون قد فرطت فيه. ولكنها عادت إلى ثقتها بجمالها وباستحواذها عليه فرددت في نفسها قائلة:

ـ إن هذا لا يهم فهو رهن إشارتي حين الطلب، لا يكلفني إرضاؤه سوى بسمة واحدة أو كلمة عذبة، فلأدعه يغضب حتى أنهي فكري من ناحية إبراهيم، ذلك الرجل العنيد الذي احتقرني وازدراني بحجة المثل والمفاهيم، والذي استهان بجمالي وفتوتي ولكوني سافرة، ولكوني على حد تعبيره منحرفة.

واستلقت في سريرها، وقد نسيت كل شيء عن محمود، وخصامها معه، فلم يكن هذا بالنسبة لها الشيء الجديد، وقد درجا عليه منذ اليوم الأول لزواجهما، ولكن أفكارها كانت متجهة إلى ناحية واحدة، ومتركزة في اتجاه واحد، وهو

كيفية الانتقام من إبراهيم، ومن معتقداته وآرائه التي حالت به دونها، فهي تسعى إلى أن تنتقم من إبراهيم في شخص نقاء، وأن لا تدع نقاء تفوز به دونها، أنها لن تترك نقاء تسعد وزوجاً كإبراهيم، في الوقت الذي تعيش فيه هي مع زوج مثل محمود، وسهرت سعاد ليلتها تفكر في أحسن طريقة للانتقام.

الفصل الثالث

أصبح الصباح، ونقـاء تتلهف لقدوم إبـراهيم، لكي تستوضحه عما تعرضت إليه سعاد في حديثها عن حق المرأة في الاسلام، وفي الوقت المعين جاء إبراهيم، وكان من عادته أن يعرج عليها كل يوم قبل ذهابه إلى المحل. واستقبلته نقاء فرحة مستبشرة، ولاحظ إبراهيم عندما استقر به الجلوس أن عند نقاء ما تحاول أن تقوله، وأنها في طريقها إلى أن تفتح معه حديثاً، فتناول يدها وهو يقول:

ـ مالك اليوم يا نقاء!

وابتسمت نقاء وهي تقول:

ـ مالي! . . .

ـ أكاد أرى كلمات حائرة على شفتيك يا عزيزتي، وأكاد أقرأ أفكاراً مضطربة في رأسك الجميل، قولي ما عندك، فكلي آذان صاغية . . .

هل تستمع إليَّ حقاً يا إبراهيم؟

ـ أي وربي فإن لذة الاستماع إليك لا تفوقها لذة على وجه الأرض.

ـ حتى ولو كان حديثي سؤالا . . .

ـ أي شيء كان يا نقاء.

ـ إبراهيم! ما الفرق بين المرأة والرجل في دين الإسلام؟

ـ لا شيء، فهما بشر متساويان، للمرأة ما للرجل، وعليها ما عليه، وقد خلق الله المرأة والرجل من طينة واحدة.

ـ فلماذا إذن؟!.

ـ ماذا يا نقاء؟!

ـ أقصد لماذا فرض الاسلام على المرأة المسلمة قيوداً لم يفرضها على الرجل؟.

ـ إنه لم يفرض عليها أي قيد، سوى ما تفرضه عليها طبيعتها ويتطلبه تكوينها، وليست المرأة المسلمة واقعة تحت أي ضغط أو تشديد من قبل الاسلام.

ـ أو ليس الحجاب قيداً للمرأة المسلمة، وحائلاً دون تمتعها بالحياة كما تريد؟ أو ليس الحجاب هو المانع الرئيسي عن سفري معك إلى أوروبا مثلاً؟.

ـ أبداً. . . ليس حجابك هو المانع في هذه المسألة بالذات، وليس الحجاب بما هو حجاب يحول دون المرأة وأي شيء، فأنا أتمكن أن أسافر معك إلى أوروبا وأنت على حجابك يا نقاء، لو كانت أوروبا بلداً نقية ولو كانت حضارتها حضارة صادقة أو كان مجتمعها مجتمعاً فاضلاً. أنا حينما أعارض فكرة السفر إلى أوروبا أعارضها على حساب محيطها ومجتمعها المتحلل، وأنا حينما أنقم على الفتيات سفرهن إلى هنالك، خوفاً عليهن من أن يتلوثن بجراثيمها السامة. ولو كنت أعرف أن في ذهابك إلى أوروبا منفعة تجنينها من وراء ذلك، لما ترددت لحظة أن أصحبك إليها مع ما أنت عليه من حجاب.

ـ أو ليس استطلاع معالم الحضارة والمدنية هناك مكسباً مهماً يا إبراهيم؟.

ـ هذه النقطة بالذات هي مصدر جميع متاعب الفتيات، فنحن المسلمون، لا يصح لنا أن نعتبر أوروبا صاحبة حضارة صالحة. فالحضارة الواقعية هي حضارة الاسلام لا غير، وليست أوروبا وحضارتها لو تعمقنا في درسها سوى تعبير مجدد مبطن عن الجاهلية، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالمرأة الأوروبية.

ـ وكيف؟ ألم تنافس المرأة الأوروبية الرجل في بلادها وتحصل على حقها كاملاً في الحياة؟.

ـ مطلقاً... فالمرأة الأوروبية لم تحصل ضمن قوانين أوروبا على بعض ما حصلت عليه المرأة المسلمة في ظل شريعة الاسلام، بل أنها لم تتمكن حتى من الاحتفاظ بأنوثتها، فالمرأة الغربية ليست سوى أداة طيعة في أيدي الرجال، لا تملك شيئاً، ولا تستقل في أمر من الأمور، في الوقت الذي تتمتع فيه المرأة المسلمة بكيان مستقل، وشخصية ثابتة، لها حقها الكامل في التصرف بمالها وكيانها في الحياة.

المرأة الغربية مغر ر بها يا نقاء، خدعوها ببهرج الحياة وزخرفها في الوقت الذي لا تملك هي فيه حتى ذاك البهرج والزخرف، أوهموها أنها حرة، تغطية لنفوذ الرجل عليها في جميع المجالات. ثقي يا عزيزتي أن لو كان في أوروبا بيئة صالحة ومجتمع خير، لصحبتك إليها راغباً غير مجبور.

ـ أنا على ثقة في ذلك يا إبراهيم، ولن يعتريني الشك لحظة في حبك لي وحرصك على سعادتي، ولكني أريد أن أحصل منك على دليل دامغ يرد على كل من يشكك في سعادة حياتنا الزوجية، ويخشى عليها من التزامات الإسلام. أنا على يقين من صواب نهجنا في الحياة.

ـ وهل هناك حياة سعيدة إذا لم تنهج نهج الإسلام، ليتك تعلمين يا نقاء، سحب الشقاء التي تطبق على بيوت المنحرفين عن الإسلام، والمشاكل الجسام التي تثقل كواهلهم، وتفكك

حياتهم، وتشتت شملهم، إن الحياة الزوجية التي تقوم على أسس صحيحة من المثل والمثالية هي التي ستكون حياة زوجية مثالية، فكوني واثقة يا حبيبتي من أن حياتك الزوجية سوف تغدو حافلة بجميع أنواع المسرات مفعمة بألوان السعادة والنجاح.

ـ أنا واثقة من ذلك يا إبراهيم، وقد اطمأننت إلى ذلك منذ اليوم الأول لخطوبتنا وعرفت أنك رجل مثالي، وأنك أقدر ما تكون على إسعاد زوجك في الحياة.

ـ وأنا واثق أيضاً أن روحك الطاهرة بصفائها ونقائها تتسع لكل المثل الخيرة والمفاهيم العليا.

ـ شكراً لك يا إبراهيم، أنت تمكنني أن أثق من نفسي، وتهبني القوة في الاعتماد على سلوكي وتصرفاتي في الحياة.

وهنا ألقى إبراهيم نظرة على ساعته وكانت تقارب العاشرة، ثم ابتسم وهو يقول:

ـ يتحتم عليَّ أن أنصرف الآن، فأنا على موعد مع صاحب لي في تمام العاشرة.

ـ أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا إبراهيم.

ـ بل العكس تماماً، فأنا سعيد بسؤالك يا نقاء، ولكن آسف لعدم تمكني من المكث مدة أكثر لأستمع إلى كل ما

يدور في فكرك من أسئلة، وسوف أعود عند العصر لأستمع إلى ما تقولين إن شاء الله.

ـ أنا لا أسأل لنفسي يا إبراهيم، فأنا واثقة من ديني ومن عقيدتي، ولكنها أسئلة تتردد على ألسنة بعض الفتيات، وكان لا بد لي أن أجيب عليها.

ـ أحرصي على أن تكوني بشخصك وسلوكك نعم الجواب، واجهدي أن تجعلي من نفسك أنموذجاً للفتاة المسلمة السعيدة.

ـ سوف أحاول أن أكون كذلك، والآن حدثني هل أنت لا تزال تسعى لتقديم موعد سفرك إلى فرنسا؟

ـ أنا في سبيل محاولة ذلك، فمتى ما تقدم سفري وانتهت مهمتي هناك سوف تنتهي أيام بعدنا عن بعضنا يا نقاء، وسوف يضمنا عشنا الهانيء السعيد.

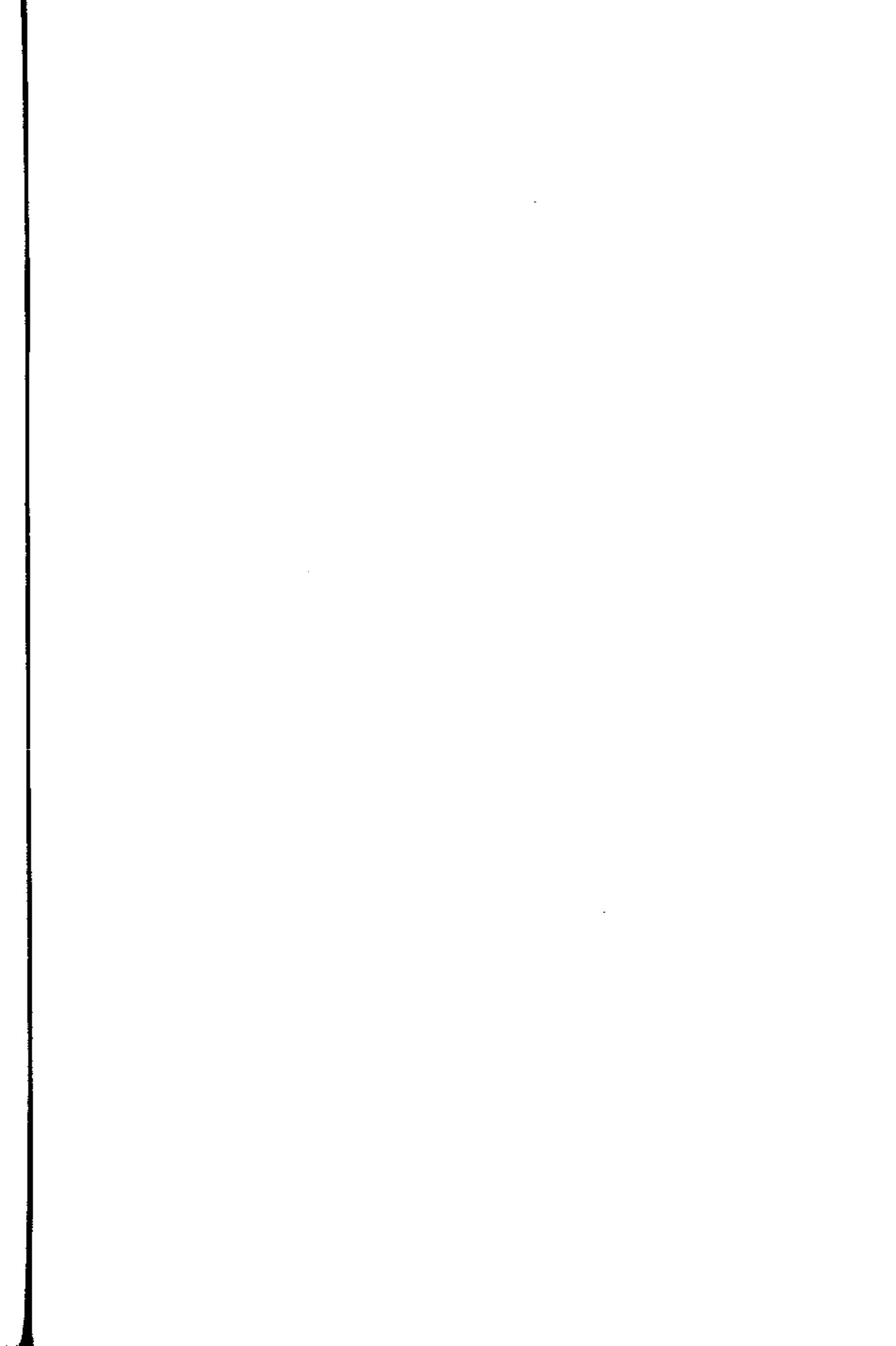
وسكتت نقاء فلم ترد عليه واكتفت أن ابتسمت ابتسامة عذبة بريئة... ثم نهض إبراهيم فودعها وانصرف.

وعلى طول الطريق كان يفكر وهو يقود سيارته، في نقاء، أتراها كانت تسأل مندفعة بشعور شخصي أم مجرد سؤال، وآلمه أن تكون أفكار الفتيات الطائشات قد شوشت على نقاء فكرها الصافي النقي، وصمم على أن يعود فيتحدث معها في هذا الموضوع لكي يرفع عنها كل ريب أو شك، فهو يريد

من فتاة أحلامه أن تكون منسجمة معه في الفكرة والرأي والعقيدة. وكان مما حبب نقاء إليه ودفعه إلى طلب يدها هو اعتدال سلوكها وقوة شخصيتها، فهو حريص على أن لا يقرن حياته مع فتاة نزقة طائشة تلعب مع الريح يمنة ويسرة. وقفزت إلى ذهنه فجأة ذكرى حادثة قديمة مرت به منذ أربع سنوات يوم كانت إحدى الفتيات المخدوعات تحاول أن تستدرجه نحوها بأساليب من الاغراء. ابتسم وهو يتذكر أن تلك الفتاة كانت تأمل أن تنحرف به عن الطريق السوي كيما يمكنها الحصول عليه، وكيف أنها كانت تحاول جره نحوها بكل طريقة وبشتى الأساليب.

وكانت ابتسامته مزيجاً من الرضا، لصموده حين ذاك، والرضاء لاختياره لنقاء الآن، وود لو علم إلى أين انتهى المطاف بتلك الفتاة، وهل تمكنت أخيراً من الحصول على صيد ثمين؟. أو هل تمكنت من نصب أحابيلها حول رجل مسكين تخدعه كما حاولت خداعه من قبل؟.

ولكن أنى له أن يفهم عنها شيئاً وهو لا يذكر حتى مجرد إسمها؟ وود صادقاً أن تكون قد سعدت بزوج فاضل يسير بها إلى جادة الصواب.



الفصل الرابع

مر أسبوع نسيت نقاء خلاله حديث سعاد، وكادت أن تنسى سعاد نفسها أيضاً، فقد كانت تعيش في نعيم مستمر وهي تتذوق كل يوم كأساً جديدة من كؤوس السعادة والهناء، ولم يكن لديها ما يكدر صفوها سوى ترقب قرب سفر إبراهيم. وفي أحد الأيام ذهب إبراهيم في مهمة إلى اللاذقية، واتفق أن كانت في ذلك اليوم على موعد مع الخياطة لتذهب لعمل القياسات. ونظراً لعدم وجود إبراهيم اضطرت إلى الوقوف في الشارع لانتظار سيارة تقلها إلى حيث تريد. وفجأة أبصرت أمامها سعاد وهي تترجل من سيارتها قائلة:

ـ يا لها من صدفة سعيدة، تفضلي واركبي معي يا نقاء! فأنا على استعداد لايصالك إلى حيث تشائين.

ولم تشأ نقاء أن تركب مع سعاد، فاعتذرت عن ذلك، ولكن سعاد ألحت عليها بالطلب بصورة لم يسعها إلا أن تجيب، وركبت السيارة إلى جوار سعاد، وكانت سعاد هي التي تسوق سيارتها دائماً وبعد أن سارت بهما السيارة مدة وجيزة التفتت سعاد نحوها قائلة:

ـ كأني قد سمعت منك أن لدى... لدى... أعذريني، أقصد لدى زوجك، فقد نسيت اسمه.. لديه سيارة.

ـ لقد سافر إبراهيم في ساعة مبكرة من الصباح في مهمة مستعجلة إلى اللاذقية.

ـ لا بد لي أن أتعرف عليه يوماً ما يا نقاء.

ـ طبعاً طبعاً.

ـ ولكني أخشاه..

ـ أنت غلطانة يا سعاد! فهو دمث الأخلاق محبب إلى النفس.

ـ ولكنه على ما سمعت منك يا عزيزتي رجل شديد، صارم، له سلوك خاص.

ـ أنا لم أقل شيئاً من هذا يا سعاد! فهو لين الجانب، سهل العريكة، مسالم إلى أقصى حد.

ـ بالنسبة لك طبعاً، وبعد أن سخرك لآرائه وأفكاره، أما بالنسبة لنا ـ نحن النساء العصريات ـ فلا.

ـ أنا لا يعجبني منك هذا التعبير يا سعاد، أنه لم يسخرني أبداً فأنا بطبعي أشاركه في آرائه وأفكاره.

ـ ما شاء الله يا لكما من زوجين سعيدين.

ـ واقعاً. . .

ـ على فكرة يا عزيزتي! هل تفكرين أن تتعلمي السياقة يوماً ما؟.

ـ لا، لأنها ليست ضرورية للمرأة، ولست في حاجة إليها.

ـ ولماذا. . . ؟.

ـ الواقع إني لا أشعر بحاجة إلى ذلك، فان ابراهيم على استعداد لايصالي إلى حيث أريد، ثم إني لن أركب السيارة وحدي بدونه، فما الذي يدعوني إلى أن أقودها بدلاً عنه!.

ـ طبعاً أنه سوف لن يسمح لك بذلك، وسوف يكون له من هذا أحسن حجة لمتابعتك إلى حيث تذهبين، ولكنك سوف لن تستطيعي أن تتابعيه حتى إلى مكان واحد بحجة أنك مسلمة محافظة.

ـ وما لي وله يا سعاد! هل ترين لي من اللائق أن أذهب معه إلى المحل أو أجلس بجواره في غرفة الحسابات، أن هذه أمور من اختصاصه هو وحده.

ـ وسهراته وحفلاته ورحلاته. . ووو. . . إلى آخر تحركاته وتنقلاته؟.

ـ لكل رجل رحلاته وحفلاته، كما أن للمرأة أيضاً حفلاتها وزياراتها الخاصة.

ـ ولكن الرجل تكـون له الحفـلات العامـة والمجالات الواسعة، أما المرأة التي على غرارك فإن لها حفلاتها الخاصة وتنقلاتها المحدودة.

ـ إن إبراهيم ليس من رواد الحفلات المختلطة والنوادي الصاخبة.

ـ أنت مخدوعة يا نقاء! فالرجل، وأي رجل كان، لا تقف أمام تحركاته حدود أو سدود، ولكنهم على صنفين: صنف مسالم طيب، يشرك زوجته في جميع أنواع فعالياته الاجتماعية، وقسم صارم شديـد، يستغل بسـاطة زوجتـه ليحتجزها في البيت بشتى أنواع الحجج والمبررات.

ـ إن الرجل الطيب المثالي هو الذي يشرك معه زوجته في آرائه وأفكاره وأهدافه ووجدانه لا في تحركاته وتنقلاته، فإن للمرأة أفقاً خاصاً لا يصح للرجل أن ينزل بها عنه.

ـ مـرحى مرحى لهـذه النغمـة الغـريبـة التي أصبحت تتكلمين بها يا نقاء!...

ـ أنا لا أقرك، أن عندي نغمة غـريبة أو أي فكـرة جديدة، فأنا هكذا كنت وهكذا سأكون.

ـ طبعـاً أنت هكذا كنت قبـل الآن، أيام كنت طفلة جاهلة بأساليب الحياة، ولكن الغريب في الأمر جمودك على هذا وأنت في هذا السن الذي يقف بك على عتبة الحياة.

ـ أرجوك يا سعاد! أنت لا تعرفين ما تقولين.

ـ على العكس يا عزيزتي! فأنا أعني ما أقول، ولكن...

ـ أنا لا أحب هذا اللاكن يا سعاد! فكأن كلماتك لها ما وراءها!.

ـ صدقي أني في حيرة منك يا عزيزتي! لا أدري كيف أتصرف، وأنا أراك في طريقك إلى افتقاد شخصيتك، وإتلاف مستقبلك بالسير وراء أمثال هذه الفكر الرجعية، أنت الفتاة العصرية المثقفة تلتزمين بقيود وحدود بحجة أنك مسلمة، وأن زوجك مسلم محافظ. أفلسنا جميعاً مسلمين؟ أتصدقين أن إبراهيم وحده على حق وملايين البشر على باطل؟ فكري بنفسك يا نقاء! لترين أنك بخضوعك لابراهيم ولأفكاره ومعتقداته سوف تخسرين الكثير!.

ـ أنا لست خاضعة لابراهيم أو غيره، وإنما أنا سائرة وراء مبدأي وعقيدتي الشخصية.

ـ وهل أن من عقيدتك الشخصية هذه الحياة التافهة التي تحيينها، وهذه العزلة التي فرضت عليك فرضاً؟!.

ـ أنا لست في عزلة كما تظنين، وليست حياتي حياة تافهة بل أنها حافلة بجميع ما تصبو إليه النفس.

ـ لأنك لا تزالين تجهلين ما تصبو إليه نفسك، ولا تزالين

تجهلين الحياة الواقعية لتصبي إليها يا نقاء! أنت لا تزالين صغيرة، ولذلك فقد تمكن إبراهيم من تضليلك...

ـ أنا لا أجهل شيئاً من الحياة، وإني واثقة من صواب نهجي الذي أنا عليه، وإن عقيدتي هذه سوف تحقق لي ولزوجي السعادة الكاملة في كل حال من الأحوال... أنا لست متعطشة للاندماج في مجتمع متحلل فاسد... فإن لي مجتمعي الخاص الذي أنعم فيه بالعلاقات البريئة والمصاحبات الطاهرة النقية... أنا لست جاهلة يا سعاد، ولكنني أعني ما أقول وأقصد ما أعمل ولست في حاجة إلى أي نصيحة أو إرشاد...

وضحكت سعاد طويلاً، ثم أردفت قائلة:

ـ عفوك يا أنسة! أنا لم أكن أقصد إثارتك من قريب أو بعيد، أما الآن وقد ثرت... ولا أدري لماذا؟!.. فأنا أستميحك العذر...

ثم أدارت وجهها ناحية نقاء، وحاولت أن تركز نظراتها في وجهها لتقرأ على صفحته السبب في انفعالها، فقد خيل لها، أن سهماً من سهامها قد أصاب هدفاً في قلب نقاء، فاندفعت تنفس عن مشاعرها بهذه الثورة بدون إحساس منها لذلك، ولكن نقاء أدارت وجهها ناحية الشارع، وقالت:

ـ أنا لم أثر يا سعاد! ولكن تأثرت فقط.

ـ الويل لي إذا كنت قد آذيتك يا عزيزتي! أنا لن أغفر لنفسي هذا مطلقاً، فأنا أعتبر نفسي أختاً ناصحة، ولا أقصد مما قلت سوى صلاحك وصلاح مستقبلك الذي يهمني كثيراً!!! فقد كنت واثقة دائماً من أنك سوف تتربعين على عرش المجتمع وأنك سوف تدخلين الحياة لترين جميع أبوابها مفتوحة أمامك واسعة، ولكن الآن وقد تلاشت جميع آمالي بالنسبة لك، وهذا هو ما دعاني إلى الاندفاع إلى مصارحتك ببعض الحقائق... ومرة أخرى أستميحك العذر.

ـ أنت معذورة يا سعاد!...

ـ أهكذا... وبمثل هذه اللهجة يا نقاء...؟

ـ نعم، فلا يسعني أن أقول شيئاً غير هذا!.

ـ كما تريدين يا عزيزتي! فلست إلا ناصحة، والآن وقد وصلنا، فمتى تريدين أن أمر عليك لأرجعك إلى البيت؟.

ـ شكراً يا سعاد! سوف أرجع وحدي...

ـ أبداً، إن هذا محال، لن أدعك تنتظرين «الأمانة» على قارعة الطريق وعندي سيارة، سوف أرجع بعد ساعة لآخذك إلى البيت.

ولم ترد عليها نقاء رداً واضحاً، ولكنها بعد أن أتمت عمل القياسات ركبت «الأمانة» ورجعت إلى البيت دون أن

تنتظر سعاد، وكانت تعلم أن ذلك سوف يغيظها، ولكن لا يهم، فهي تود أن تبعد سعاد عن طريقها بأي صورة كانت.

وفي العصر كانت نقاء جالسة أمام مكتبتها تصلح من ترتيبها، فشعرت أن باب غرفتها يتحرك، فاستدارت لترى سعاد فارتبكت وظنت أن سعاد جاءت عاتبة، ونهضت لاستقبالها، وقد صممت على أن تصارحها بالحقيقة إن عتبت عليها، لعدم انتظارها لها عند الخياطة، ولكنها فوجئت بسعاد تقول:

ـ أنا خجلانة جداً يا نقاء... ! فقد كانت غلطة لا بد أن تغفريها لي، أنا لم أكن أقصد التأخر، ولكني تأخرت، وسبب ذلك عودتك وحدك.

واحتارت نقاء... بماذا ترد على سعاد، ولم تتمكن أن تقابل تسامحها هذا بالتجني، فلم يسعها إلا أن تقول:

ـ لا عليك يا سعاد! فأنا لم أنتظر طويلاً كما تظنين، والآن تفضلي واجلسي يا سعاد!

وجلست سعاد على كرسي هناك، وشرعت تتكلم... تكلمت عن الحفلة التي دعيت إليها في الليلة الماضية، والمطربة التي أحيتها حتى مطلع الفجر، والفتيات المخدوعات اللواتي كن يتطايرن في سمائها... وتحدثت عن الأفلام الأجنبية التي تعرض في دور السينما، وفصولها المثيرة الخلابة

وتحدثت عن رحلات الصيد التي تقوم بها مع ثلة من أصحابها في كثير من الأوقات، ثم تحدثت أخيراً عن أحواض السباحة والمسبح الجديد. وعلى الجملة: فقد تحدثت عن كل شيء أرادت أن تتحدث به، ونقاء، تستمع إليها بهدوء وإتزان لا تكاد تعلق على كلامها إلا بالنزر القليل. واستغربت نقاء تجاهل سعاد لذكر زوجها في جميع أحاديثها، وإهمالها لوجوده في جميع تصرفاتها، فاغتنمت فرصة قصيرة سكتت خلالها سعاد لتسألها قائلة:

ـ وزوجك يا سعاد! أراك تتجاهلين وجوده في سجل حياتك الحافل؟!.

وودت سعاد لو تتمكن أن تصرخ بنقاء، قائلة: مالك ولزوجي يا بنت... فقد ظنت أن نقاء تتحداها بهذا السؤال، فإن شخصية زوجها التافهة كانت نقطة ضعف بالنسبة إليها على طول الخط، ولكنها سرعان ما تذكرت أن عليها أن لا تغضب نقاء، وأن عليها أن تداهنها حتى تتمكن من الوصول إلى غاياتها الانتقامية، فتمالكت نفسها، وأجابت ضاحكة:

ـ أنا زوجة حرة يا نقاء! لا أقرن حياتي بحياة زوجي مطلقاً، ولا أسايره إلا في الحفلات العامة التي ندعى إليها سوياً، نحن نقول بمبدأ المساواة بين المرأة والرجل.

ـ عجيب أمرك يا سعاد! منذ ساعة كنت تـدعين إلى مرافقة المرأة زوجها ومسايرته إلى حيث ذهب، والآن تقولين أنك حرة، لك عالمك المستقل!!

ـ أنت لم تنتبهي إلى ما أعنيه يا نقاء! فأنا أساير زوجي وأتابعه، ولكن لا أسمح له أن يسايرني ويتـابعني إلى كل مكان أذهب إليه، فأنا واثقة من نفسي، ولكني لست واثقة من زوجي، فالمرأة الذكية ينبغي أن لا تثق بزوجها مهـما داجاها وداهنها، وأن لا تترك له الحرية الكاملة للتلاعب من ورائها.

وسكتت نقاء برهة وهي تعجب لهذا المنطق! ثم قالت:

ـ وهل تحبين زوجك يا سعاد؟

وارتبكت سعاد وترددت لحظة ثم أجابت:

ـ طبعاً.. طبعاً... فهو رجل ممتاز، وسوف أعـرفك عليه في أقرب فرصة، أنه شاب رائـع... ولعلني سوف أصحبه لزيارتك في أحد الأيام.

ـ عفواً يا سعاد...! فأنا لا أستقبل ضيوفاً من الرجال بمفردي وبدون إبراهيم.

ـ حقاً لقد نسيت إبراهيم، هذا الذي يقف حائلاً دون كل شيء...

ـ سعاد. . . لا تنسي أنه زوجي قبل كل شيء، ثم إني أحبه جداً، ولا أسمح لك أن تنالي منه شيئاً.

ـ ليتني كنت موجودة قبل عقد قرانك يا نقاء. . . !

ـ ولماذا يا سعاد؟!

ـ كنت أحول بينك وبين هذا المصير. . .

ـ إذن لكنت قد تسببت في حرماني من السعادة في الحياة. . . !

ـ أنت تكابرين يا نقاء. . . ! وهذه هي غلطتك منذ اليوم الأول إذ وافقت على إتمام العقد قبل أن تتعرفي على سلوكه وطباعه. . .

ـ لم تزدني المعرفة إلا ثقة فيه وإعجاباً به، ثم إني لا أكابر وليس هناك أي داع للمكابرة يا سعاد! أنا رضيت بإبراهيم زوجاً بكامل حريتي، وقد كنت أتمكن أن أرفضه لو شئت، ولكني رضيت ولم أندم على ذلك يوماً ما، ولن أندم عليه طول الحياة. أنت تظنين أنه بإمكان الفتاة المخطوبة أن تتعرف على شخصية خطيبها الواقعية أيام الخطوبة. . . إن كلا من الطرفين سوف يسلكان سوكاً تحفظياً رسمياً ما داما خطيبين، وسوف لن تتكشف طباعهما وسلوكهما لبعضهما إلا بعد الزواج، فالرجل مهما حمل من أخطاء وعانى من نقاط ضعف، فهو يتمكن أن يخفيها عن عروسه إلى مدة من الزمان حتى لا يخسرها قبل الزواج، وكذلك المرأة أيضاً، وعلى هذا

فإن أيام الخطوبة لا تزيد الخطيبين إلا غموضاً وتعقيداً فقد تبدو من الرجل بعض خصاله غير المحمودة أمام امرأة غريبة بدون قصد منه، ولكنه بالنسبة لخطيبته سوف يتعمد أن لا تبدو منه إلا النواحي الحسنة.

ـ ولكن المجتمع يرى غير رأيك يا نقاء! أنت الوحيدة التي تفكرين على هذا النحو من التفكير.

ـ أنت تقصدين بالمجتمع، مجتمعك أنت يا سعاد! أما المجتمع الذي أعيشه فأفكاره أفكاري وما أنا إلا واحدة من ملايين يرون هذا ويسيرون عليه.

ـ وما لي أرى لملايينك هؤلاء أثراً ولا أسمع لهم خبراً؟!.

ـ أنت ترينهم وتسمعينهم يا سعاد! ولكنك تأبين أن تصدقي عينيك، وتستنكرين ما تسمعه أذناك، أنهم ملء السمع والبصر، ولكن الظلام الذي يكتنف أبصار المنحرفين يحجبهم عنهم إلى حين.

ـ إستمري يا نقاء! فأنا يلذ لي كثيراً أن أسمعك وأنت ترجعين أمثال هذه الكلمات الرنانة، فلم يعد يعوزك يا عزيزتي إلا محراب تصلين فيه الليل والنهار وترتلين فيه الأدعية والأوراد!...

ـ أنت غلطانة يا سعاد! فإن البون شاسع جداً بين ما

أقوله وبين أن أعتكف في محرابي أصلي وأصوم، أنا ملء الحياة يا سعاد، والحياة كلها لي أيضاً، ولكن الحياة الطاهرة النقية والحياة المثلى.

ـ أراك أصبحت ترددين كلمات العجائز من جاراتك يا نقاء! أهكذا وبهذه السرعة تتلاشى منك روح الشباب الوثابة وحرارة الفتوة الطليقة، أسفي عليك يا نقاء! فأنا دائماً وأبداً كنت أتنبأ لك بمستقبل باهر لما أنت عليه من جمال وسحر، وطالما قلت لمحمود زوجي، أن ابنة خالتي هي أجمل فتيات عصرها، ولهذا فهو يتحرق شوقاً للتعرف عليك وإذا بك الآن وأنت لا تتكلمين إلا بالمثل، ولا تتحدثين إلا بالمواعظ والحكم.

ـ أنا لم أفه بموعظة واحدة أو آتي بحكمة قصيرة، وإنما كنت أتكلم عن واقع الحياة، والواقع بدون رتوش.

ـ لله در إبراهيم الذي تمكن من تلقينك هذه العبارات!

ـ سعاد، أرجو أن لا تعودي إلى المس من إبراهيم، فهذا ما لن أرضاه أبداً... ليتك كنت وعيت مفاهيمه لتعرفي أي نمط هو من الرجال... نعم ليتك تتعرفين عليه.

وارتبكت سعاد وعلت وجهها صفرة باهتة، ثم تمالكت نفسها وقالت:

ـ طبعاً سوف أتعرف يوماً ما، ولكن ليس الآن.

ـ ولماذا يا سعاد؟!... أنا واثقة من أنك لو رأيته مرة واحدة لغيرت رأيك فيه، ولأعجبك كثيراً!... نعم كثيراً.

وبذلت سعاد جهداً جباراً وهي تحاول أن تبدو طبيعية ثم قالت في تهكم:

ـ أنا لا يرضيني الرجل الذي يكون على غرار إبراهيم، مهما كان وأياً كان.

قالت سعاد ذلك وهي تعلم أنها تكذب، فهي لم يحلو لها رجل غير إبراهيم، ولم يسحرها شاب سواه...

وضحكت نقاء ضحكة قصيرة هادئة، ثم قالت:

ـ ومن يدري فلعلك رأيتيه من قبل ولم تعرفيه، أو لعلك سوف ترينه بعد الآن فلا تعرفينه، أنظري يا سعاد...! هي ذي صورته معلقة على الجدار، أنظريه جيداً لتتعرفي عليه إذا اتفق ورأيتيه.

وارتبكت سعاد... فهي لا تريد أن تنظر إلى صورة إبراهيم بمرأى ومشهد من نقاء، لكيلا يبدو عليها ما يريب، فهي لم تكن على ثقة من أن عوامل النقمة والانتقام سوف لن تنطبع على وجهها... وهي ترى صورته تحتل الصدارة في غرفة نقاء، في الوقت الذي حرمت هي منه حتى من أن تلقي عليه نظرة واحدة. أنها لم تعد تحب إبراهيم فقد استحال حبها إلى حقد أسود... وتبدلت عواطفها نحوه إلى

شواظ من نار، تحاول أن تحرق بها إبراهيم وزوجته والمثل التي يؤمن بها... ولذلك فلم ترفع رأسها نحو الصورة، ولكن نقاء كررت عليها وهي تشير إلى الصورة قائلة:

ـ أنظريه بالله عليك يا سعاد! هل يمكن لصاحب هذه الصورة أن يكون رجلاً مداجياً أو ظالماً لأحد؟... أو هل يستحق هذا الشخص العزيز هجماتك الظالمة؟ انظريه.. يا سعاد لتري صدق ما أقول...

وكانت سعاد تعلم أنها صادقة فهي تعرف إبراهيم حق المعرفة وتعلم أنه بريء من كل ما تسعى لأن تنسبه إليه، ولم يسعها إلا أن ترفع بصرها نحو الصورة، وألقت نحوها نظرة عابرة، ثم قالت:

ـ لا يبعد أن أكون قد رأيته مرة أو مرتين في إحدى الحفلات الليلية...

ـ أنا لا يهمني ما تقولين، ولكن الذي يهمني أن تفهمي يا سعاد إني أحترم صاحب هذه الصورة! وهو زوجي أمام الله وأمام الناس، وأنا فخورة به جداً، ولا أرضى لأحد أن يمسه بسوء أو ينال منه بكلام... نعم... أنا فخورة به جداً.

وكانت كلمات نقاء تلذع فؤاد سعاد كجمرات من نار، ولم تكن نقاء تعلم ذلك أو تحتمله أيضاً.

ـ أدام الله لك سعادتك هذه يا نقاء! فأنا بصفتي زوجة أقدر السعادة الزوجية، وأدعو لكل زوجة بالنجاح فيها.

وساد الغرفة سكوت دام دقائق ونهضت بعده سعاد واستأذنت بالانصراف، ولم تشأ نقاء أن تستبقيها أكثر، وودعتها بفتور، ثم عرجت على غرفة أمها وجلست تسامرها حتى قدم أبوها، فتناولوا عشاءهم، وانصرفت نقاء بعده إلى غرفتها، وكانت تشعر بوحشة لغياب إبراهيم، وافتقدت قدومه في الموعد المحدد من كل يوم، وكانت تحس بضيق شديد على أثر سماع كلمات سعاد، وهي تود لو أنها لم تكن ضيفتها، لتتمكن أن تكون معها أكثر صراحة وأن تبدي لها رأيها فيها وفي سلوكها كما أبدت سعاد رأيها في سلوكها هي... ولكنها كانت مسالمة... وكان من العسير عليها أن تجابه بنت خالتها وهي في ضيافتها بكلام شديد أو تكلمها بلهجة صارمة... وأرقت تلك الليلة وهي تفكر في مفاهيم سعاد الخاطئة، وتسعى لإيجاد طريقة لإصلاح هذه المفاهيم وتوجيهها توجيهاً صحيحاً.

الفصل الخامس

دخلت سعاد غرفتها وهي تشعر بانهيار شـديد، فهي تخشى أن تكون نقاء قد لاحظت عليها شيئاً من ارتباك، أو قرأت على ملامحها ما كان يعتلج في صدرها من انفعالات وهي تتردد في النظر إلى صورة إبراهيم، ثم وهي تنظرها أخيراً...

وألقت بنفسها على السرير، وأطلقت لفكرها العنان، فكرت في أنها غامرت بذهابها إلى نقاء... فماذا لو كان إبراهيم قد رجع من سفرته القصيرة؟ ومـاذا لو كـان قد صادفها هناك؟ أو ماذا لو كانت نقاء قد لاحظت عليها ما يريب؟ وذلك يعني أنها لا تتمكن أن تحقق غايتها في الانتقام على الوجه الذي تريد، فهي قد سحقت كبرياءها ولم تظهر الغيظ من عودة نقاء وعدم انتظارها عند الخياطة مع أنها لم تتأخر كثيراً، لكي لا تخاصم نقـاء، والخصام معهـا يعني ابتعادها عنها، وهي لا تريد أن تبتعد عنها في هذه الظروف، حتى تنتهي من مؤامراتها الانتقامية، فهي لا تريد أن تترك نقاء إلا بعد أن تـسمم ذهنها بالأفكار التي تعتنقها هي، والتي

تعلم واثقة أنها أفكار ضالة موبوءة لا تجلب لصاحبها غير الخسران والحرمان، كانت تَريد أن تلقي بينهما نفس السد الذي حال بينها وبين إبراهيم. وأرقت ليلتها وهي تفكر... ولم تخرج في تلك الليلة على خلاف عادتها في باقي الليالي، وأفاقت في الصباح فاستحمت وارتدت ملابسها، ثم استدعت خادمتها الخاصة سنية، وجاءت سنية وهي امرأة شابة لا تتجاوز العقد الثالث من عمرها، ولا تخلو من لمحة جمال، وكانت المساحيق والأدهان تعلو وجهها بوفرة، وقد صففت شعرها على أحدث طريقة، فحيت سيدتها ووقفت تنتظر، فصعدت سعادة نظرها فيها وتأملت أناقتها، ثم سألتها:

ـ هل إتصل بي أحد في التلفون يا سنية؟!.

ـ إن سيدي لم يخرج لحد الآن، ولذلك فهو يرد على كل نداء.

ـ وأمس عصراً حينما لم أكن في البيت ألم يطلبني أحد؟
ـ كان سيدي في غرفته وكان التلفون معه أيضاً؟
ـ أو لم يخرج سيدك أمس أيضاً؟
ـ لا...
ـ وليلاً يا سنية هل خرج سيدك؟
ـ لا، لم يخرج مطلقاً.
ـ لعله مريض...

ـ لا أدري.
ـ أو لم يزره أحد يا سنية.
ـ أبداً.
ـ هل أنت على يقين من ذلك؟
ـ ثقي يا سيدتي إني لا أتجسس على سيدي مطلقاً.
ـ ومتى كلفتك أن تتجسسي عليه.. انصرفي الآن.

واستدارت سنية لتخرج، ولكن سعاد استوقفتها قائلة:

ـ سنيـة...! أنـا لا أحب منــك هـذا الافــراط في الأناقة... إن من يراك يظن أنك في حفلة ساهرة، إذهبي وصففي شعرك بطريقة أقل إثـارة، وخففي من مكياجـك الصارخ...

ـ ولماذا يا سيدتي؟! أو لست حرة بالتصرف في شعري ووجهي.

ـ هل رأيت قبل الآن من تعمل تسريحة كتسريحتك هذه؟ وتعمل مكياجاً صارخاً مثل هذا المكياج في الصبح وفي رابعة النهار؟

ـ إنك ـ أنت ـ يا سيدتي تذهبين كل صباح إلى محلات التجميل قبل أن تبدأي جولتك النهارية!!

ـ أنا سيدة متزوجة والمجتمع يحتم على ذلك.
ـ لم يتفق لسيدي أن رآك مرة وأنت على زينتك يا سيدتي

إلا في بعض الحفلات، فهو لا يصل إليك إلا بعد أن تكوني قد أنهكك التعب وأعيتك الأناقة. . . !

ـ أنت لا تفهمين ما تقولين يا سنية! كيف تجرئين على مخاطبتي بهذه اللهجة؟ هل أنت سوى مجرد خادمة يمكنني طردك في كل ساعة؟

ـ أحقاً أنك تستطيعين طردي في أي ساعة يا سيدتي؟!
ـ نعم أو لست سيدة البيت؟
ـ فلماذا لا تطردينني إذن يا سيدتي؟
ـ أنت تغيظينني كثيراً يا سنية!
ـ أبداً لا أتعمد إغاظتك يا سيدتي، ولكن أقول أنك تستطيعين أن تطرديني بسهولة.

ـ أغربي عن وجهي يا سنية! كفاك هذراً ووقاحة، فأنا لا استطيع أن أنظر إليك أكثر من هذا.

ـ أنت مخيرة في ذلك، ولكن أنا أحرص دائماً أن أنظر إليك كما نظرت من قبل. ورانت على وجه سعاد صفرة باهتة، وقدحت عيناها بشرر مخيف، ولكنها جاهدت نفسها لكي لا تصفع هذه الماثلة أمامها بكل صفاقة، والمتحدية لها بأسلوب لاذع، فهي كانت تعلم أنها مشدودة إلى سنية بحبل شائك لا فكاك لها منه ولا خلاص، ولذلك فقد حاولت أن تسيطر على أعصابها ورققت صوتها وأجابت قائلة: أنت

تعلمين أنك أثيرة لدي يا سنية، ولكني اليوم ضيقة الصدر، وأردت أن أنفس عني قليلاً

ـ أنا على ثقة من ذلك يا سيدتي! ولكن أردت أن أنبهك إلى بعض الظروف فقط، والآن هل تسمحين لي بالانصراف؟

ـ طبعاً طبعاً فقد أخرتك كثيراً يا سنية! وخرجت سنية وهي تتمايل في مشيتها وتتهادى وتابعتها سعاد بعينين تقدحان شرراً وحقداً، وتمتمت قائلة: يا لها من أفعى سامة تستغل ما تعلمه عني لاهانتي والتنكيل بي، ولكني جبانة فما الذي أخشاه منها؟ وماذا عساها أن تقول! وأي فضيحة سوف تعلنها لو طردتها شر طردة! لماذا أخاف! وأي شيء أخشى، والمجتمع الذي أعيشه يؤكد على إعطاء الحرية الكاملة للمرأة، وأن المرأة والرجل متساويان في استعمال حريتهما العامة...؟! نعم، لماذا أخاف سنية! وعند من تنوي أن تفضحني! وجميع من حولي قد أثقلت كواهلهم الآثام، وزخرت حياتهم بالخطايا والزلات، نعم لست أخشى أحداً غير محمود، فهو لا يزال يجهل واقعي الذي أعيشه، وقد دفعته إلى ما يلهيه عن كل شيء، وسنية قادرة على إثارته لو أرادت، ومحمود يعني عندي الشيء الكثير، فهو الثراء والغنى، وهو المال الذي يخضع له كل شيء، ولا يقف أمامه شيء، ولذلك فإن عليَّ أن أوطن نفسي على تحمل هذه العقرب اللعينة، إنها تتحداني بكلماتها، وقد عرفت ما كانت تعنيه، ولم يعتكف

محمود في البيت إلا لأجلها، وهي كانت تحاول أن تفهمني ذلك بكل صفاقة، ولكني مشدودة إليها على كل حال، ليتني كنت قد صرفتها من البيت مع سفر محمود، إنها كانت غلطتي في الواقع، ولكنها إنتهت على كل حال، والآن فإن عليَّ أن أذهب إلى غرفة محمود...

ونهضت متثاقلة، والتفت بردائها الحريري. وذهبت إلى غرفة محمود، ولم تشأ أن تطرق عليه الباب، فقد أرادت أن تفاجئه لترى الحالة التي هو عليها، ففتحت باب الغرفة، وتطلعت إلى الداخل لترى محمود جالساً يستمع إلى أنغام الموسيقى، وهو في كمال حيويته ونشاطه، فدخلت إلى الغرفة وهي تقول: ما شاء الله كنت أظنك مريضاً يا محمود! ولكنك في أتم الصحة والحمد لله، وابتسم محمود ابتسامة تهكمية، ثم قال: أنا اليوم على أحسن حال يا سعاد...! فما الذي أوحى إليك إني مريض؟.

ـ عدم خروجك من البيت اليوم وأمس، على خلاف عادتك في باقي الأيام!.

ـ وما يدريك يا عزيزتي بأني كنت أخرج في كل يوم، فأنت تخرجين قبل كل خارج وتعودين بعد كل عائد!.

ـ وهل من المعقول أن تقضي أيامك كلها في البيت؟.

ـ إن الليالي تكفيني يا سعاد.

ـ أنت تتحداني بكلامك هذا يا محمـ

ـ أبداً يا عزيزتي، ولكني منذ أيام أشعر برغبـة ملحة للبقاء في البيت.

ـ وبأي شيء تقضي أوقاتك يا محمود؟

ـ أطالع الكتب وأستمع إلى الأخبار.

ـ عظيم، متى أصبحت هكذا يا عزيزي؟ بل أين لك الكتب التي تطالعها؟ وهل هناك خبر عالمي يهتم به شخصك الكريم؟!.

ـ أنت تتجنين عليَّ يا عزيـزتي! فأنـا لست من الغباء بالمقدار الذي تظنين.

ـ الآن صارحني بالحقيقة يا محمود، ما الذي قعد بك أمس عن الخروج؟.

ـ لقد قلت لك يا عزيزتي، إني منذ أيام لم أخرج طول النهار من البيت غالباً. . .

ـ ولماذا؟!.

ـ لدي شؤون مهمة يتحتم عليَّ قضاؤها هنا يا سعاد!

ـ وهل أن شؤونك المهمة مقصور قضاؤها على البيت؟.

ـ نعم نعم بالضبط.

ـ أتعلم يا محمود بأنك تغيظني كثيراً. . !

ـ ولماذا يا سعاد؟. هل أن بقائي في البيت يغيظك إلى هذا الحد؟!.

ـ طبعاً، فأنا أفهم ما تعنيه من بقائك في البيت هذه الأيام، ولكن أريد منك أن تكون صريحاً على طول الخط...

ـ وهل كنت صريحة معي عندما امتنعت من السفر برفقتي إلى حلب في الشهر الماضي؟...

وهل قدمت لي حجة معقولة تقضي بتخلفك عني في دمشق وبقاؤك وحدك هنا لمدة أسبوع؟.

وتجهم وجه سعاد وهي تستمع إلى زوجها يتحدث، ثم قالت: أنت تنتقم مني إذن يا محمود؟.

ـ وهل كان موقفك ذاك حركة عدائية لكي تعتبريني في دور الانتقام؟ لا، أنا لا أنتقم ولكني هكذا كنت، وهكذا سأكون... أخرج متى يحلو لي، وأبقى في البيت متى أريد، إنه بيتي أنا يا سعاد! لعلك نسيت ذلك.

ـ ولكن سنية وصيفتي أنا يا محمود...

ـ ولكن راتبها مني يا سعاد! وأنا سيدها الواقعي.

ـ أنا أتمكن أن أطردها وأحرمك منها متى أشاء..

ـ أبداً أنت لن تفعلي ذلك، وأنت تعلمين ذلك جيداً.

ـ ماذا تقصد يا محمود؟

ـ لا شيء لا شيء مطلقاً.. فقط إني أقصد أن نضع بيننا هدنة.

ـ آه أتساوم يا محمود. !

ـ لك أن تسميها ما شئت يا عزيزتي! مساومة، هدنة، تعادل قوى، فرص متكافئة، أنت حرة في التسمية كما أنت حرة في كل شيء.

ـ أنت تسحق أعصابي سحقاً يا محمود.. !

ـ وأعصابي يا سعاد؟!

ـ إنها من حديد...

ـ ولكنك تتمكنين أن تحطمي الحديد يا سعاد!

ـ هل حقاً أنا قوية إلى هذا الحد؟!

ـ وأكثر بكثير...

ـ إذن فنحن متكافئان...

ـ لا بل أنك أنت المتقدمة في الصراع، فما أنا إلا نتاج يديك في هذا المضمار.

ـ من دواعي فخري أن أكون كذلك.

ـ فافتخري إذن يا سعاد! والآن أي ريح طيبة دفعتك إلى غرفتي يا عزيزتي.

أنا لا أصدق أن الحب ساقك إليَّ فهل أنت في حاجة إلى مال؟ أنت لم تدخلي غرفتي منذ زمن طويل، فاشرحي لي الأسباب التي دعتك إلى هذه الزيارة.

وهنا أردفت سعاد في دلال قائلة: غير المرغوب فيها طبعاً.

ـ بل الزيارة التي تقت إليها كثيراً.

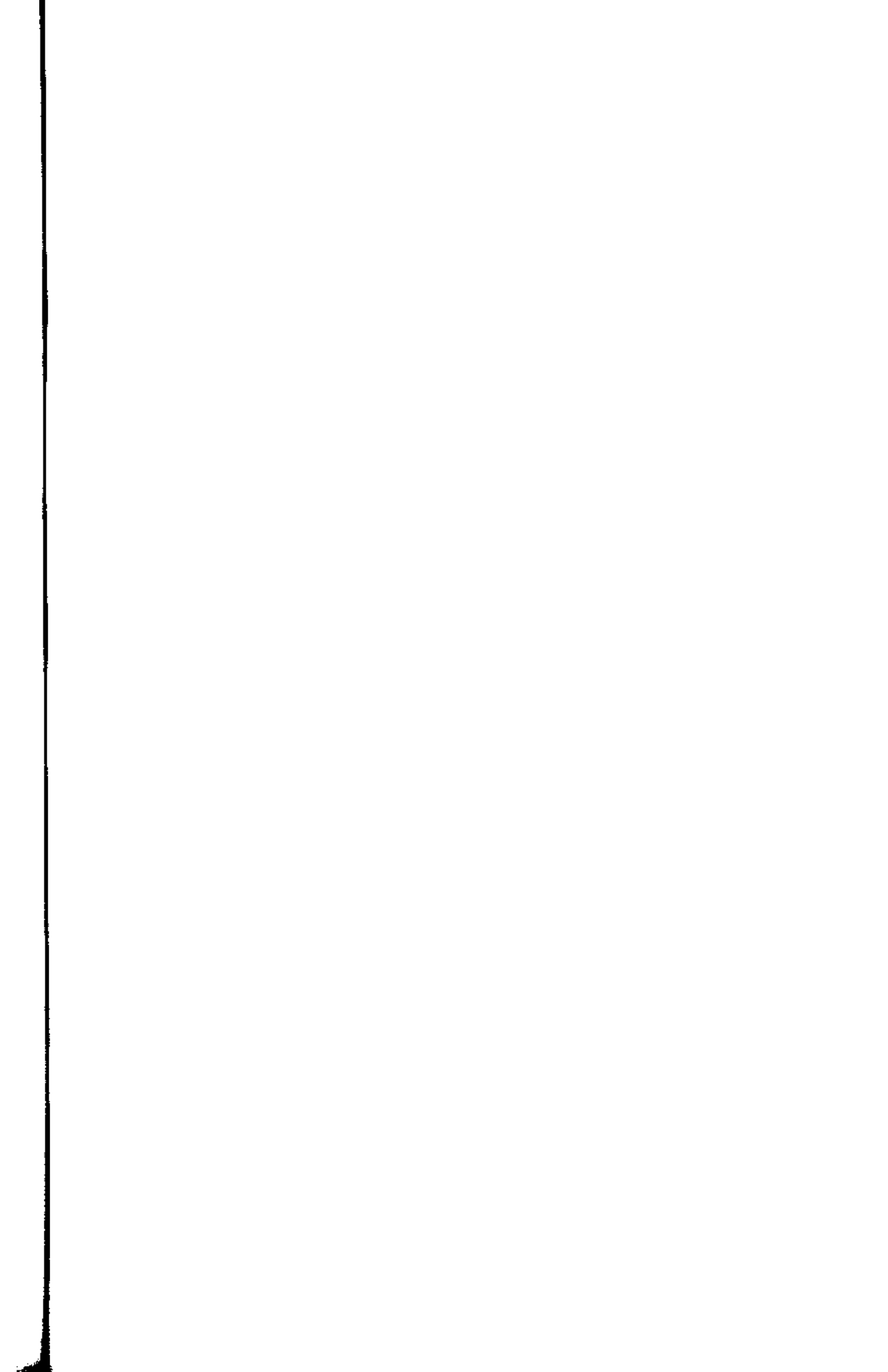
ـ هل أنك لا تزال ترغب في زيارتي يا محمود؟.

ـ أو تشكين في ذلك يا سعاد! إن حبي لك هو الذي حملني على الصبر عليك طيلة هذه المدة على أمل أن تمني عليَّ بنظرة، أو تعطفي بلفتة، وأنا أصارحك! أني تعيس بهذا الحب، ولست سعيداً به أبداً، ولكني أحبك يا سعاد، ولا أطيق عنك فكاكاً، وشعرت سعاد أن عليها أن تلبس لبوس الرقة والدماثة، وأن تحاول أن تستبقي مكانتها في قلب محمود، وإن كانت تزدريه وتنفر منه، ولكن سلطان المال كان عندها أقوى من كل عاطفة، وقد حطمت الحضارة الكاذبة كبرياءها وجردتها من عزتها الأنثوية، ولذلك فقد صممت على أن تسعى لاستمرار سيطرتها على محمود، وإن كانت غريمتها الحالية خادمتها سنية، فهي لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً بدون أموال محمود، فطبعت على وجهها ابتسامتها الكاذبة التي كانت تتمكن أن تطبعها حيث تريد ولمن تريد.

ورققت صوتها، وأسبغت عليه نغمة عذبة حنوناً، وقالت في دلال: أنت تظلمني يا محمود! فإن عندي من الـ... أضعاف ما عندك يا عزيزي، ولكن مشاغل الحياة هي التي تحول بيني وبين الارتواء من معين حبك الغالي... وأسكرت هذه النغمة محمود، وأنسته جميع خيانات زوجته، وأنسته أيضاً رفيقاته وصديقاته وسنية وغيرها من النساء، ولم يعد يشعر إلا بسعاد وهي تكلمه بنغمة طال به الشوق إليها

وعادت به هذه الكلمات إلى أيام خطوبته منها وقت أن كانت تسكب في أذنيه أعذب آيات الغرام، ففتح ذراعيه لها وهو يقول:

ـ أنا لا أزال رهن هواك يا سعاد! فلا غنى لي في حياتي عنك أبداً، وجاهدت سعاد كثيراً قبل أن تستجيب لذراعيه، وهي تشعر بحالة تقزز ونفور، ولكن هو المال والثروة قد ذهبا بعزتها لأنها تعبد المال وتتغنى بالثروة...



الفصل السادس

عاد إبراهيم من اللاذقية بعد غيبة طالت يومين، وسارع للذهاب إلى نقاء، وكانت نقاء تنتظر عودته بفارغ الصبر، وسارعت إلى استقباله في الباب، وكل ذرة في كيانها تنطق بالشوق والحب...

وبادرته بعد أن استقر بهما الجلوس قائلة:

ـ لقد أوحشتني كثيراً يا إبراهيم

ـ وأنا كذلك يا عزيزة الروح، فقد انقضى عليَّ اليومان المنصرمان وكأنهما عامان كانت دقائقهما كأسابيع وساعاتهما كشهور.

وشعرت بفراغ كبير لبعدك يا إبراهيم.

ـ ولكني لم أفرغ منك لحظة لأشعر بالفراغ فقد كنت معي دائماً...

ـ إن قربك أصبح ضرورة من ضرورات حياتي، وأساساً من أسس كياني يا إبراهيم.

ـ أما أنت فقد غدوت لي حياتي كلها، فأنت لي كل

شيء ولا شيء عندي غيرك يا نقاء! فأنا أحب حياتي ووجودي لأجلك لأنه سوف يكون وقفاً عليك يا نقاء...! إذن فأنت لي كل شيء ولا شيء عندي غيرك...

كانت نقاء تسبح في آفاق السعادة وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم وصوته الحنون... واستمر إبراهيم يقول:

ـ نعم يا نقاء! أنت بالنسبة لي الحياة الواقعية التي تزخر بالسعادة وتعمر بالهناء، وقد فتشت طويلاً قبل أن أهتدي إليك لأجد فيك ضالتي المنشودة وأملي الكبير. لهذا فأنا سعيد بك... ومفرط في السعادة.

ـ وأنا كذلك يا إبراهيم، ولكن أخشى على سعادتنا هذه من أن تمسها يد الدهر الخؤون، أو أن تنال منها حوادث الزمن الغادر، بودي لو كنت أطمئن إلى خلود سعادتنا مدى الحياة... نعم، بودي لو أطمئن...

ـ أنا مطمئن... فاطمئني يا نقاء! فالسعادة الحقيقية لا تمحو سطورها الأقدار، ولا تنالها يد البلى، فسعادتنا تنبع عن الحب والاخلاص. وسعادة يكون رصيدها حباً طاهراً وإخلاصاً واقعياً لا يمكن لأي عامل من عوامل الدهر أن ينالها بسوء... بماذا أنت سعيدة يا نقاء؟

ـ بك أنت وحدك يا إبراهيم... بروحك الطاهرة... بسلوكك المهذب... بقلبك الكبير... بعواطفك الخيرة...

بصوتك الحنون. . . نعم، بك أنت وحدك يا إبراهيم!

ـ وكذلك أنا يا نقاء. . . سعيد بك يا عزيزتي. . . بصفاء روحك ونبل عواطفك. . . بصدق حبك ووداك. . . بثبات فكرك وروحياتك. . . بالروعة الملائكية التي تشع بهالة من نور حول وجهك الرائع القسمات. . . وعلى هذا، فإن سعادتنا لن تزول ولن تحول أبد الدهر، إن السعادة التي تتلاشى وتضمحل نتيجة لتعاقب الحوادث والأيام ليست سعادة واقعية، إنها سعادة موهومة قائمة على أسس مادية مزيفة، والمادة لا بد أن تزول، ولكن الروح ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فالسعادة التي يكون قوامها مادة أرضية، مثل المال أو الجاه أو الجمال ليست سعادة، ولا حتى شبه سعادة، وإنما هي شبه سكرة قصيرة على أحلام الغنى والجمال، والسكرة لا تدوم طويلاً، والغفوة يعقبها صحو طويل. تلك هي السعادة التي يخشى من زوالها، وتلك هي السعادة التي تضل من يجري وراءها، وتخدع من يركن إليها في الحياة، أما سعادتنا يا نقاء! فهي سعادة خالدة خلود الروح، راسخة رسوخ النفوس في الأجسام. . . فاطمئني يا عزيزتي، فليست حياتنا الزوجية المقبلة سوى مثال رائع للحياة الزوجية السعيدة الهانئة، فما دامت أرواحنا متحدة، وقلوبنا متقاربة، وأفكارنا منسجمة متماثلة، سنكون في منجاة من أي خطر يهدد سعادتنا المتوخاة. فإن أهم عوامل هدم السعادة الزوجية هو تباين الآراء وإختلاف النظرة في الحياة.

وشاعت السعادة على وجه نقاء، وهي تستمع إلى إبراهيم، وودت لو استمر يتكلم واستمرت هي تستمع إلى ما لا نهاية.

الفصل السابع:

تـألقت الأنوار في بيت سعـاد، وهو يستقبـل ثلة من الأصدقاء الخصوصيين للزوجين، وقد وجهت الدعوة إليهم بمناسبة عيد ميلاد محمود، وكانت سعاد تتألق في حلة زرقاء داكنة، وقد زينت صدرها وجيدها وساعدها بالحلي، وبدت رائعة الجمال بالغة الأناقة. وبدأ الضيوف يتـوافدون عـلى الدار، وكان من مقدمتهم المصور صلاح، وهو شاب كان من المعروف أنه على علاقة جديدة مع سعاد... بعد أن نبذت صاحبها الممثل سليم، واختار صلاح لنفسه مجلساً قريباً من سعاد، وكانت سعاد مشغولة في استقبال المدعوين، وتوزيع الابتسامات والمداعبات. وكان من جملة المدعوين شاب يعمل مهندساً، وقد تعرفت عليه سعاد منذ مدة وجيزة، وشاءت أن تلقي حوله أحابيلها، فدعته إلى هذه الحفلة مع الأصدقاء الخصوصيين، وقد جاء هذا المهندس بصحبة واحد من أخص أصـدقاء محمـود اسمه سعيـد، وكانت سعـاد تنتقـل بـين الضيوف، حتى اختارت لها مجلساً إلى جوار المهندس الشاب، وشاعت الغبطة في قلب المهندس وهو يرى سعاد تجلس إلى

جواره، وانتظرته سعاد لكي يتكلم، ولكن المسكين كان يشعر بارتباك إلى درجة لم تمكنه من الكلام ولكن سعيداً بدأ الحديث فخاطب سعاد قائلة:

ـ تصوري يا ست سعاد أن صديقي هذا كان يخشى من المجيء إلى هنا.

واتسعت حدقتا سعاد وهي تتظاهر باللهفة قائلة:

ـ آه!.. ولماذا يا سعيد؟!

ـ أنه كان يخشى أن تتجاهليه...

ـ أنا! وكيف لمثلي أن تتجاهل مثله وهو ملء السمع والبصر؟!

وتمتم المهندس ببضع كلمات شكر.. وشعرت سعاد أنها تتمكن أن تستحوذ عليه بسهولة، وأنها قد تجعل منه أداة تلوح بها لصلاح إذا صدف عنها، وفعلاً، فقد تمكن بعد مدة وجيزة من أن تطمأن إلى خضوعه لها، وعند ذلك قامت من جواره بعد أن أشعلت فيه النار التي تريدها، وذهبت تفتش عن صلاح، وكانت قد لاحظت أنه لم يكن قد ارتاح لطول إقامتها إلى جوار المهندس، وحاولت أن تراه في الصالون أو الشرفات، ولكنها لم تقع هل على أثر هناك... وخرجت إلى الحديقة وفي نهايتها وبين مجموعة من الأشجار المتراصة وجدت ضالتها... فقد كان صلاح هناك وإلى جواره إحدى

صديقاتها من الغانيات. . وثارت سعاد لذلك، فهي لم ترتو بعد منه، ولا ترضى أن تخسره بهذه السرعة، فتقدمت نحوهما وهي تقول:

ـ أهكذا تعتزلان الحفل، لتعتكفا هنا بين الأشجار؟!.

وعلت البغتة وجه صلاح، ولملمت رفيقته أطرافها في ارتباك واستمرت سعاد تقول بانفعال:

ـ أنا كنت أعرف أنك متقلب، كثير الزوات يا صلاح، ولكن ليس بهذه السرعة، وليس على هذه الصورة! وتمتم صلاح قائلاً:

ـ أرجو أن لا تظني. . أني. . .

وقطعت سعاد كلامه قائلة:

ـ دع عنك هذه الكلمات الفارغة، هكذا أنت دائماً، كل يوم في مكان وكل ساعة على اتجاه جديد.

ـ ولكنك أنت. . . أقصد. . . أعني.

ـ أنا أدرى ما الذي تقصده وما تعنيه يا صلاح، فلا داعي لاتعاب نفسك في الكلام، إن الذنب ذنبي، أنا الذي وثقت بك وركنت إليك، وفاتني أنك لا تختلف عن غيرك من الرفاق رجل مداج، تتلاعب مع الريح.

ـ سعاد. . . أنك أنت التي أهملت وجودي في الحفل، وانصرفت عني إلى ذلك المهندس الشاب. . .

ـ وما أنت وما وجودك؟... لكي أهمله أو لا أهمله... هل حفظت لوجودك قيمة؟ هل استطعت أن تقف أمام نزواتك في داري على الأقل؟ أنت لم تعد تعني عندي شيئاً.

ـ سعاد... ماذا تعنين يا سعاد؟!...

ـ نعم، أنا أعني أنك رجل... رجل نزق لا تستقر على حال...

قالت سعاد هذا واستدارت وابتعدت عنها. وساء صلاح أن يكون قد أغضب سعاد ولم يعد يطيب له المقام مع فاتنته الجديدة، ولاحظت صاحبته عليه ذلك. فصممت على أن لا تدعه يفلت منها بسهولة، فحاولت أن تغريه بالجلوس، ولكنه امتنع وأصر على الالتحاق بباقي المدعوين، وفكر أنه سوف يتمكن أن يسكب بين يدي سعاد دموع الندم والتوبة حتى يسترضيها ويردها إليه، وفاته أن سعاد كانت تحوم حول صيد جديد، وهو المهندس الشاب... وإنها لم تثر غيرة عليه أو حباً له، ولكنها كانت تريد أن تجعل من هذه الحادثة وسيلة للتهرب منه إلى حين...

أما سعاد فقد التحقت بضيوفها وكأنها لم تتخاصم مع أحد، ولاحظت أن زوجها لم يكن في المكان الذي عهدته فيه، ففتشت عنه في الشرفات فلم تجده أيضاً. وخرجت إلى الحديقة مرة ثانية ولكنها لم تره، ففكرت لحظة ثم توجهت نحو غرفته الخاصة وهناك.. رأته ملقى على سريره بينما كانت

سنية جالسة عند رأسه تمسح وجهه بالماء. وتقدمت نحوه سعاد وانحنت عليه دون أن تفوه بكلمة فزكمتها رائحة الخمرة المنبعثة من فمه، وعرفت أنه مخمور، وكان من عادة محمود أن يقع دائماً تحت تأثير الخمرة إذا أكثر منها، لأنه لم يكن يشربها من قبل زواجه واتصاله بسعاد ورفعت سعاد رأسها وسألت سنية قائلة:

ـ من الذي جاء بسيدك إلى هنا يا سنية؟

وردت سنية في تحفظ:

ـ أنا يا سيدتي.

ـ وكيف قدتيه إلى هنا وهو على هذه الحالة؟!

ـ لا... أنه لم يكن هكذا حين ذاك.

ـ إذن أنت سقيته هنا أيضاً؟

ـ نعم، إنه هو الذي طلب مني ذلك.

ـ يا لك من سافلة.

ـ عفواً يا سيدتي لست بسافلة.

ـ أتستكثرين ذلك يا سنية؟!

ـ أنالا اختلف عنك بقليل أو كثير وأنا لا أقر أن سيدتي سافلة.

ـ ويل لك من صلفة لئيمة...

ـ مهلاً، فقد اكتفيت من هذا الحفل الصاخب بسيدي وحده، صحبته إلى هذه الغرفة وهو مخمور لكي أنعشه وأنبهه... وأما أنت يا سيدتي...

ـ أسكتي . . أسكتي يا بلهاء . . .
ـ لست بلهاء يا سيدتي، بل أني أذكى مما تظنين!

وانتبهت سعاد إلى أن غيبتها عن المدعوين قد طالت أكثر مما ينبغي، فاتجهت نحو الباب وهي تقول:

ـ حاولي إيقاظه بكل طريقة، فليس من اللائق أن ينام هنا مخموراً وضيوفه على أهبة الانصراف.

وخرجت سعاد وهي تتعثر بأذيالها من الخزي والعار والحقد والبغضاء، وكان صلاح قد عاد والتحق بجماعة الضيوف، وحاول مراراً أن يختلي بسعاد؛ ليعتذر لها، ويبرر سلوكه عندها، ولكنها كانت تتجاهله وتتحاشاه، ولذَّ لها أن تراه وهو يتعذب لهذا التجاهل الظاهري.

وكأن سنية فشلت في مهمتها فلم تتمكن من إيقاظ محمود، وفعلاً فقد بدأ الضيوف ينصرفون ومحمود لم يعد بعد، وبعد ساعة كان الصالون قد اقفر إلا من صلاح وركع صلاح أمام سعاد وأقسم بكل غال: أنه لم يكن يعني من مصاحبته لتلك السيدة غير اللهو وقضاء الوقت، وأنه لا يزال كما كان عاشقها المفتون. وكان صلاح موهوباً في نسج الكلمات الرقيقة والألفاظ الخلابة، ولم تكن سعاد تحتاج إلى كثير من عذر، أو طويل استغفار، ولكنها شاءت أن تنعم أكثر باستغفار هذا الراكع على قدميها، فماطلته بالعفو،

وتلاعبت به طويلاً قبل أن تفهمه أنها عفت عنه. واطمأن صلاح إلى رضائها فودعها وانصرف. وعادت سعاد إلى غرفة زوجها فوجدته مستغرقاً في نوم عميق، فتوجهت إلى غرفتها وهي تشعر بإعياء شديد، فقد حطم سلوك زوجها أعصابها، كما أن خيانة صلاح كانت قد أثرت عليها كثيراً، وخلعت عنها ملابسها، واستلقت على سريرها، وهي تشعر أن رأسها سوف ينفجر تحت تأثير الأفكار المتضاربة التي كانت تتصارع فيه. فقد خرجت من الاحتفال وهي لم تزدد إلا شعوراً بالحقارة، وإحساساً بالضياع والحرمان، وحاولت أن تنام، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً. وعادت تفكر في إبراهيم... وهي في الواقع لم تخرج عن التفكير فيه طيلة الحفلة، فقد كان ماثلاً في ذهنها على طول الخط، ولكن في إطار من الحقد والنقمة، فهي لم تكن تغفل عن فكرة الانتقام لحظة واحدة... وودت لو تمكنت من جر نقاء إلى أمثال هذه الحفلات، لعلها تغريها وتستهويها بلهوها وصخبها، فهي على ثقة أن نقاء لو ظهرت في حفلة واحدة، لوجدت حولها عشرات من الشباب يركعون على أقدامها ويسجدون. وسعاد لا تشك لحظة في أن المرأة التي تصمد أمام إغراءات الشباب المندفع لم تخلق بعد على وجه الأرض، وسهرت مع أفكارها طويلاً حتى غلبها النوم، ولم تفق إلا وقد طلعت الشمس وعلا النهار، فتمطت في فراشها قليلاً، وكان من عادتها في أغلب الأيام أن تستدعي سنية؛ لتساعدها على الاستحمام،

ولكنها لم تشأ أن تستدعيها ذلك الصباح بعدما صدر منها في المساء الماضي، فاستحمت بمفردها، وصففت شعرها بنفسها، وارتدت ملابسها ونزلت الدرج، وحاولت أن تخرج من الدار دون أن تراها سنية، ولكن صوت سنية باغتها وهو يقول:

ـ ما لي أراك وقد عزمت على مغادرة البيت دون إفطار يا سيدتي؟!.

والتفتت سعاد نحو الصوت، فرأت سنية في غرفة الطعام وهي تهيء مائدة الافطار، ثم أردفت سنية قائلة:

ـ لماذا لم تستدعني لمساعدتك في الاستحمام؟ أرجو أن لا تكوني غاضبة عليّ.

واحتارت سعاد بماذا ترد على هذه المتهكمة الوقحة، ولم تر بداً من أن تقول:

ـ أنا لم أستحم اليوم، ولذلك لم استدعك عند صحوي من النوم.

ـ ولكن تناهى لي خرير الماء وهو يصب في الحمام. وعلى كل حال فالمهم أن لا تكوني غاضبة.

ـ لا... لا... أبداً أبداً.

ـ هلا استفسرت عن صحة سيدي!؟

ـ آه لقد نسيت... كيف حاله هذا الصباح؟

ـ إنه لا يزال تعباناً يا سيدتي!

ـ إذن فهو لن يخرج اليوم أيضاً؟

ـ نعم يا سيدتي! فقد قال إنه لن يخرج من الدار.

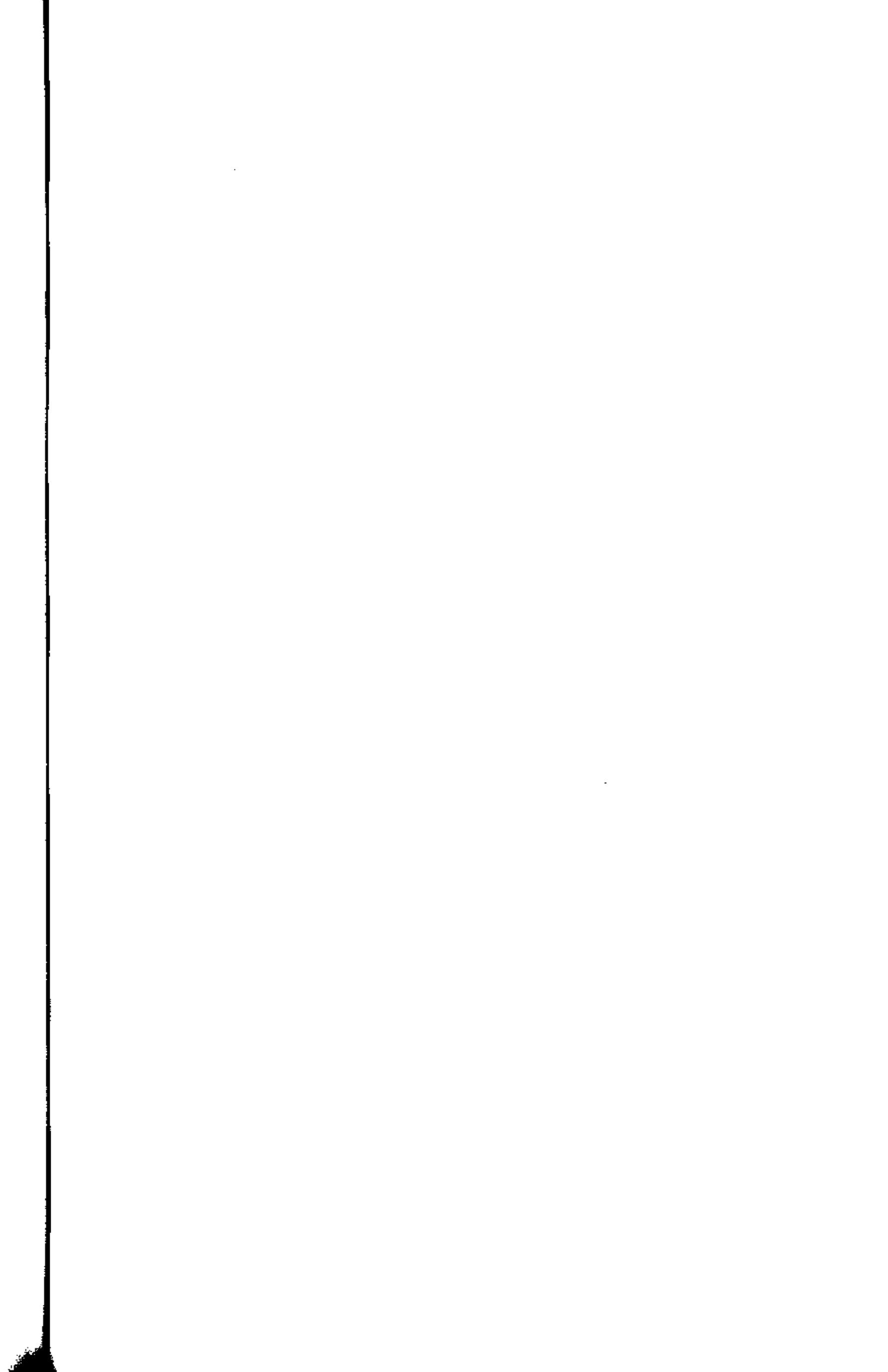
وكادت سعاد أن تنقض على سنية فتنشب أظافرها في عنقها حتى ترديها، ولكنها تذكرت الحبل الذي يشدها إليها فتمالكت نفسها، وردت قائلة:

ـ اعتني به جيداً يا سنية! فإنَّ لدي موعداً هاماً. وعليّ أن أذهب.

وردت سنية في برود قائلة:

ـ إذهبي يا سيدتي مع السلامة.

وأسرعت سعاد في الخروج وكأنها تفر من شبح مخيف، وتنفست الصعداء عندما شعرت أنها تحررت من سنية ومن سلطانها عليها إلى حين، وهكذا أحست أن بيتها لم يعد بالنسبة لها سوى سجن بغيض يعمر بالمحن والآلام.



الفصل الثامن

أما نقاء فقد كانت تعاودها بين حين وحين رغبة ملحة في أن تحدث إبراهيم عن سعاد، فقد كان يعز عليها أن تخفي عنه أمراً، ولكنها كانت تخجل حتى من مجرد ذكر سعاد فهي تأبى أن تعيد أمام إبراهيم كلمات سعاد وتفاهاتها لئلا يظن أنها تأثرت بها، ولو إلى حد قليل. وقد كانت أيامها تمر وهي محملة بالهناء والسعادة، ولم يكن يكدر عليها صفوها إلا قرب سفر إبراهيم فقد كان موعد سفره يكاد أن يحدد في وقت قريب، وقد كانت خلال ثلاثة أسابيع مضت لم تجتمع بسعاد ولم تسمع عنها خبراً، وقد سرها ذلك، فهي لم تكن تركن إلى صحبتها مطلقاً. وبعد ثلاثة أسابيع رن جرس التلفون في غرفتها. وكانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً فردت عليه، وإذا بصوت سعاد يفاجئها عذباً رقيقاً، وهي تقول:

ـ لقد أوحشتيني كثيراً يا عزيزتي.

وكادت نقاء أن ترد قائلة وأنا كذلك يا سعاد، ولكنها أبت أن تسجل عليها كذبة لا تستند إلى الحقيقة، ولهذا أجابت بقليل من الفتور أهلاً وسهلاً.

ـ ولكنك جافية للصديق، قاطعة للرحم، أفما كان من اللائق بك أن تسألي عني ولو بمجرد سؤال، أو تتصلي بي مرة واحدة في التلفون؟! ألم يخطر لك أن انقطاعي عنك لا يكون إلا لأمر مهم.

ـ أبعد الله عنك كل مكروه يا سعاد.

ـ والآن أيضاً ألا تحاولي أن تعرفي السبب؟

ـ آه.. طبعاً أنا أريد أن أسأل، أرجو ألا تكوني مريضة يا سعاد..!

قالت نقاء ذلك وهي تلعن في سرها سعاد... وتتمنى لو أمكنها أن تقول لها: أنا لا يهمني السبب يا سعاد، وحسناً فعلت بعدم مجيئك إلي طيلة هذه الأسابيع. ولكن الخجل أيضاً كان يمنعها من ذلك، فهي بطبعها هادئة لا تستريح إلى الخصام، وجاءها جواب سعاد سريعاً وهي تقول:

ـ لقد ابتليت بالزائدة الدودية، ودخلت المستشفى وأجريت لي عملية جراحية، ومنذ يومين فقط رجعت إلى البيت.

وهنا شعرت نقاء ببعض الانعطاف نحو سعاد. فهي الم تكن تظن أن سعاد مريضة حقاً، وفي هذه المر ة ردت عليها بلهفة قائلة: آه.. إعذريني يا سعاد! فلم أكن أعلم بذلك، وعلى كل حال فالحمد لله على السلامة.

ـ أهكذا وفى التلفون؟!

ـ سوف أحاول أن أزورك يا عزيزتي في أقرب فرصة.
ـ في أقرب فرصة! ولماذا لا يكون اليوم أو غداً؟
ـ أنا في هذه الأيام مشغولة يا سعاد...
ـ آه.. هل إن إبراهيم يشغل أوقاتك كلها يا نقاء؟!
ـ لا، ولكنني مشغولة على كل حال.
ـ وإبراهيم أيضاً لا بد أنه دائب على زيارتك في كل يوم صباحاً ومساء...
ـ تقريباً.
ـ إذن فإن أوقاتك مشغولة معه، يزورك في الصباح ولا يخرج إلى أن يحين الظهر، ثم يزورك في العصر ولا...
ـ لا أدري كيف تتكلمين يا سعاد! إنه رجل عمل لا يتأخر في الصباح إلا دقائق معدودة.
ـ على كل حال فأنا لن أنتظر قدومك يا عزيزتي، أنا أعلم أنك مقيدة من ناحية إبراهيم، ولكنني سوف أزورك أنا بدلاً من أن تزوريني.
ـ أهلاً... ولكن متى؟
ـ حالاً، حالاً... مع السلامة.
ـ مع السلامة.

واستغربت نقاء هذه الطيبة المتناهية من ابنة خالتها. وكادت أن تندم على سلوكها الجاف معها من قبل، فهي لم تكن تعرف غايات سعاد وأهدافها، ولم يكن بامكانها أن تسمع سعاد بعد أن ألقت سماعة التلفون وهي تتمتم قائلة:

الآن عرفت متى ينبغي لي أن أزور نقاء دون أن يفاجئني إبراهيم، أنا لا أخشى إبراهيم، ولكني لا أريد أن يتعرف عليَّ الآن لكي لا يحول بيني وبين خطتي الانتقامية، ولكنه سوف يتعرف عليَّ يوماً ما، بعد أن يخسر نقاء وتخسره... سوف أسعى إليه بنفسي؛ لأقول له: هنيئاً لك بعروسك المصطفاة التقية النقية الطاهرة... سوف أحطم غروره وألوث مثله ومفاهيمه.

ولكن نقاء لم تسمع شيئاً من ذلك، وأنى لها أن تسمع؟ وجلست تنتظر وآثرت أن تستقبل سعاد في الصالون لكي تكون أمها حاضرة أيضاً، فهي تعلم أن سعاد سوف تحد من كلامها بوجود خالتها، ولكنها فوجئت بعدم وجود أمها في الدار، وأخبرتها المساعدة التي لديهم أنها ذهبت لزيارة أخيها منذ الصباح، وساء نقاء ذلك فقد كانت تقدر أن وجود أمها سوف يحول بين سعاد وبين الاسترسال في الكلام، وبعد دقائق دق الباب، فعلمت أن القادم سعاد.. وذهبت المساعدة، لتفتح الباب، وتقدمت نقاء، لتستقبلها وكانت سعاد تتظاهر باللهفة البالغة، ولم يسع نقاء إلا أن ترحب بها بحرارة وجلست سعاد وهي تتظاهر بالتعب، وأخذت نقاء تعتذر لأنها لم تعلم بدخولها المستشفى، وضحكت سعاد وهي تقول:

ـ أنت أختي يا نقاء! وأنا لا أعتب عليك مطلقاً، ولكن

كنت أخشى أن أموت دون أن أراك مرة ثانية.

وتأثرت نقاء لهذه الكلمات العاطفية، وقالت بلهجة صادقة حنون:

ـ حرسك الله من كل شر يا سعاد! أنت لا تزالين في مستقبل حياتك وأول شبابك السعيد.

ـ حقاً أن الحياة ليؤسف عليها يا نقاء! فحياتي مثلاً شريط ملون طافح بجميع ألوان اللذة والمتعة.

وتوجست نقاء خيفة من هذه الكلمات.. وفهمت أنها بداية لحديث طويل، وردت عليها قائلة:

ـ جعل الله جميع أيامك سعيدة يا سعاد!

وسكتت سعاد برهة، شعرت نقاء خلالها أنها في سبيل إيجاد ثغرة تنفذ منها إلى حيث تريد، وصممت على أن لا تهيىء لها تلك الفرصة، ولا تدع لها مجالاً للكلام المسموم... ولكن سعاد لم تكن بحاجة إلى الجو الذي تهيؤه لها نقاء، فاندفعت تقول:

ـ كنت أذكر أمس أمام محمود وقد أظهر رغبة ملحة في زيارتك والتعرف عليك، ولكني أخبرته أنك محجوزة...

ولم تشأ نقاء أن ترد عليها، لكي لا يطول بهما الكلام في هذا الموضوع.. فاكتفت بابتسامة خفيفة. غير أن سعاد لم

تكن تتراجع بسهولة، بل استمرت تقول:

ـ لقد اندهش محمود من غرابة تصرف إبراهيم، وتعجب أن يوجد رجل مثل إبراهيم في هذا العصر المتحضر، ولكني قلت له: إنه استطاع أن يقنع نقاء، فهي سعيدة به على كل حال.

ومرة أخرى سكتت نقاء فلم تجب، لا إقراراً منها لما كانت تقوله سعاد.. ولكن ترفعاً من متابعة مثل هذا الحديث، ولكن سعاد فسرت هذا السكوت بموافقة نقاء على كلامها، وإقراراً لما قالته، فنشطت لمتابعة الحديث قائلة:

ـ هل يسمح لك إبراهيم بحضور الحفلات يا نقاء؟!

وهنا لم تر نقاء بدأ من أن تجيب، فابتسمت وقالت:

ـ طبعاً... طبعاً يا سعاد! ولكن حفلات من النوع النظيف.

ـ وهل تحضرين حفل ميلادي في الشهر القادم إذ دعوتك إليه؟

ـ لا مانع عندي من ذلك، وسوف أكون مسرورة.

ـ شكراً لك... وسوف أعرفك على محمود الذي يتحرق شوقاً إلى رؤيتك منذ أمد بعيد.

وسكتت نقاء ولم تدر كيف تجيب... وفي وهلة فطنت إلى أن حفلة سعاد ستكون مختلطة ولا ريب، وقد فاتها

ملاحظة ذلك من قبل.. وترددت لحظة... هل تسألها عن نوعية الحفلة أو تترك ذلك إلى حينه، وشجع سكوتها سعاد، فتابعت تقول:

ـ كما أن عشرات من ألمع شباب المجتمع سوف يترامون على قدميك بعبادة وخشوع.

هنا انتفضت نقاء... واصطبغ وجهها بحمرة قانية، وقالت بحدة وعصبية ظاهرة:

ـ أنا لن أحضر حفلتك الموعودة يا سعاد! فقد فاتني أن حفلاتك مختلطة... ثم أنت تريدين أن تعرضيني لعيون عشرات الشباب ليركعوا تحت قدمي كأني سلعة، لك أن تعرضيها لمن شئت من الناس! لا أدري كيف سمحت لك نفسك التفوه بهذه الكلمات يا سعاد؟...

ـ أنا لم أقل أنك سلعة يا نقاء! ولكنك تأخذين الكلام على غير معناه الواقعي، وإنما كنت أقصد أنك في حضورك الحفلة سوف تخرجين قليلاً عن محرابك الموحش... أنا أرثى لحالك يا نقاء! ولا أسعى إلا وراء سعادتك في الحياة.

ـ لقد نلت حظي الوافر من السعادة فلا داعي لاجهاد نفسك في هذا السبيل.

ـ عجيب أمرك يا نقاء! أحقاً أنت سعيدة؟ أتسعدك هذه الجدران الأربعة وهذا المحيط الضيق؟

ـ أنا لست سجينة بين جدران، أو مقيدة بمحيط ضيق يا سعاد! أنا حرة بجميع تصرفاتي وتنقلاتي إلى حيث ما أردت، وإلى أي مكان قصدت، ولكن في نطاق العفة والحشمة.

ـ ولكنك في الواقع أسيرة في حريتك. مقيدة في انطلاقك أو ليست هذه الأطواق الملعونة تلتف حول رأسك وعنقك الجميل؟! أو ليس المعطف الأسود العريض يحجب قوامك اللدن عن الأبصار ويبرزك على شكل كيس يتساوى فيه الطول والعرض!؟ ولكنك لا تزالين في غفلة عن ذلك، أليس من الجرم أن تظهري للمجتمع بلبوس العجائز وأنت الفتاة الجميلة البديعة التكوين؟!. أي شريعة هذه التي تجيز لابراهيم أن يظهر للمجتمع بأتم أناقة وأكمل زينة، وتحرم عليك أن تبرزي أية ناحية من نواحي جمالك الرائع!؟ حقا أنه لظلم.. وظلم فظيع...

وهمت نقاء أن تجيب.. لكن سعاد لم تدعها تتكلم، فاسترسلت تقول:

ـ إن أبشع جريمة اجتماعية هي أن تخضع فتاة مثلك لرجل وأي رجل كان.. أي دين هو هذا الذي يجعل من المرأة أداة مستعبدة في أيدي الرجال؟!.

ولم تستطع نقاء أن تستمع أكثر من هذا، فاندفعت تقول وقد تهدج صوتها من الغضب:

ـ أنا لست محكومة لأحد، ولم يفرض الدين عليَّ أن أحكم لأحد أياً كان حتى زوجي، فليس الزواج في الاسلام ختم ملكية المرأة للرجل، ولا تخضع فيه المرأة المسلمة إلى أي حدود أو التزامات غير طبيعية. إن الاسلام يعطي للزوجة المسلمة امتيازات لم تحصل عليها الزوجة في كل نظام وقانون غير الاسلام ولكنك مخدوعة، ولا تفقهين ما تقولين!!.

ـ وهل أن من امتيازات الزوجة المسلمة أن تعتكف في بيت زوجها تطهو الطعام، وتقوم على خدمة الزوج والأطفال؟!.

ـ الإسلام لم يفرض على الزوجة ذلك. ولكن آداب الاسلام جعلت المرأة المسلمة بطبعها تتوق إلى ادارة بيتها والعناية بزوجها وأطفالها، فهي مخيرة في ذلك، وليست مجبرة إطلاقاً. وأما الحجاب الذي التزمه فيه فهو ليس سوى إبراد، تقي شر الذئاب من الرجال، وأنا فخورة به حريصة عليه، فإذا كان كل ما يهمك صلاحي... فاعلمي أني أسعد منك بكثير...

ـ أنا لا أقصدك أنت بالخصوص، فلعل ابراهيم قد أعشى بصرك إلى حين، ولكنني أعارض الفكرة بشكل عام، نعم الفكرة الرجعية التي تريد أن تتحكم بمستقبل فتيات في عمر الزهور، حقاً أنه لوأد غير مباشر.

ـ إن هذه الفكرة التي تعدينها رجعية هي في الواقع أروع فكرة اجتماعية إصلاحية تغدو المرأة في ظلها أعز امرأة عرفها التاريخ، لو تم تطبيق هذه الفكرة، وسوف يتم في يوم إن شاء الله، ثم ان السفور في الواقع هو الذي يمثل الرجعية التي قضى الرجوع إلى الوراء، لأنه يعود بالمرأة إلى زمان الجاهلية فيما قبل الاسلام.

ـ أنت الآن مخدوعة يا نقاء! في ذهنك كلمات أخذتيها عن إبراهيم، وها أنت ترددينها بدون قصد وبدون أن تعرفي معناها الواقعي، ولكنك لو فكرت بما قلته لك جيداً لعرفت تفاهة هذه الأفكار ورجعيتها، ولعرفت أن كلامي هو الكلام الصحيح الذي يجاري العصر الذي نعيشه، والمجتمع الذي من حولنا.

ـ انك أنت المخدوعة يا سعاد! وهذا مما يؤسف له حقاً أن تحطمي حياتك نتيجة للسير وراء الدعايات المضللة والأفكار المسمومة، أما أنا فكوني واثقة من أنني أعني ما أقول وأنني مؤمنة بآداب الاسلام وتعاليمه كأنجح وسيلة تمكنني من شق طريقي خلال مسيرة الحياة في أمان، أن لا أردد كلمات أخذتها عن إبراهيم، ولكنني أردد كلمات تنطلق من مفهوم الاسلام وتنطق عن مثالية التنظيم الاجتماعي في رسالة السماء...

وحين رأت سعاد أن عليها أن تدع هذا الحديث عند

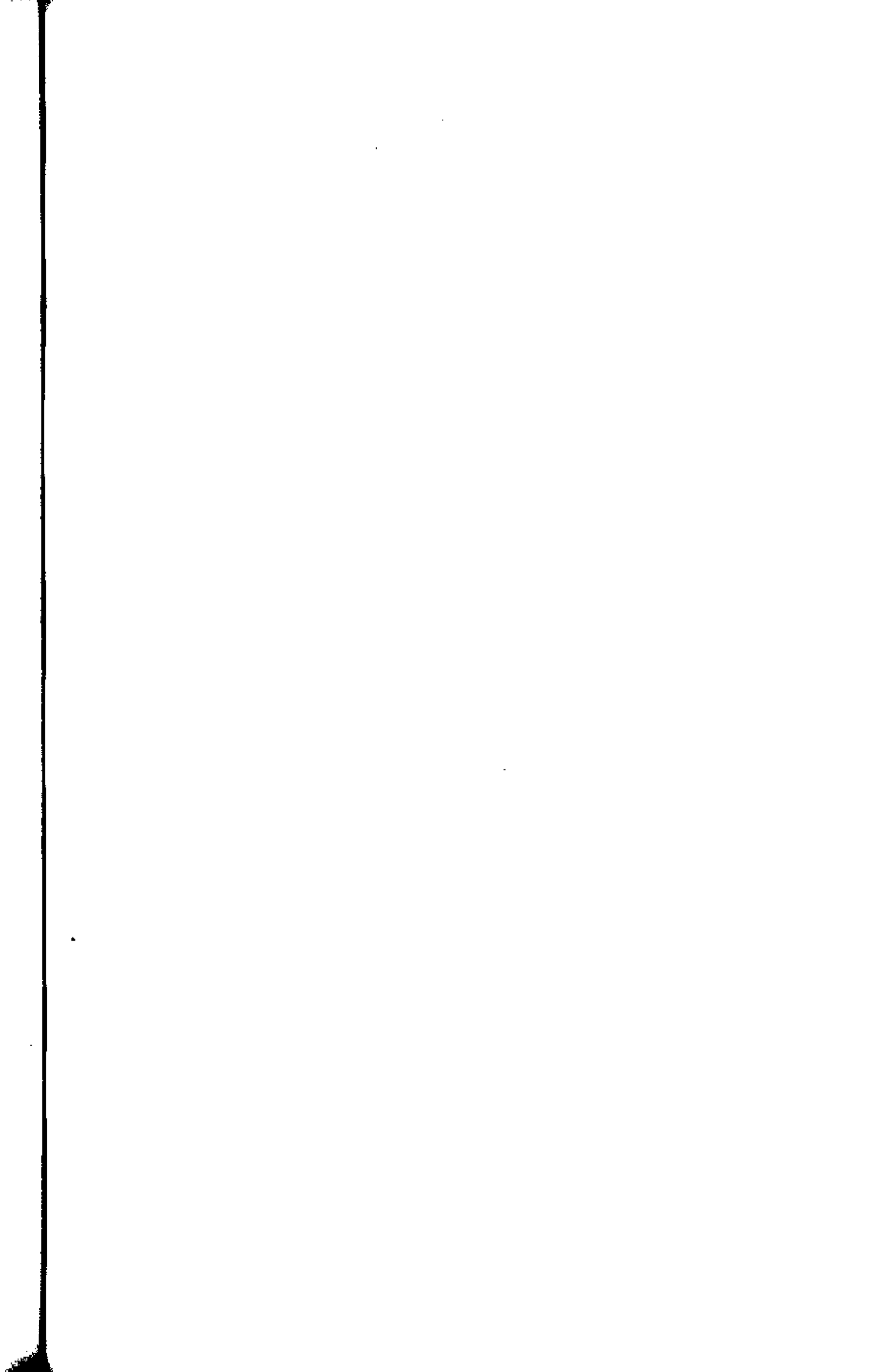
هذا الحد، وأن تكتفي ليومها ذاك بهذا القدر من الكلام لأنها لاحظت على نقاء اندفاعاً في الرد لم تكن قد تحتسبه من قبل، وفعلاً فقد غيرت مجرى الحديث وسألت نقاء قائلة:

ـ أين خالتي يا نقاء! منذ مدة لم يتفق لي أن أرا ها عند زيارتي لك... ! كنت أحسبها سوف تسعى لاستقبالي بعد هذا الانقطاع الطويل..

وودت نقاء لو تمكنت أن ترد عليها قائلة: إن خالتك تمقتك وتكرهك، وهي لا تطيق رؤيتك، بل وتتهرب منك ما وسعها التهرب.. ولكن الاتزان منعها عن ذلك، فاضطرت إلى أن تقول:

ـ لقد ذهبت أمي لزيارة خالتي منذ الصباح، ولعلها سوف تعود قريباً.

وهكذا استمر بهما الجلوس، وسعاد تحاول أن لا تتطرق إلى موضوع كلامها الأول، وحوالي الساعة الثانية عشرة انصرفت سعاد وحرصت على أن تكرر على نقاء وصيتها لها بالتفكير بمستقبلها مرة ثانية، وصممت نقاء بعد زيارة سعاد هذه أن تحدث إبراهيم عنها وأن تخبره بقرابتها لها لكي لا يستنكر اجتماعهما إذا صادف ورآهما مجتمعتين.



الفصل التاسع:

حاولت نقاء أن تجر حديثها مع إبراهيم إلى ذكر أقاربها، وانتهى بها القول إلى أن تذكر سعاد، فقالت:

ـ أما بنت خالتي سعاد فهي سيدة شابة جميلة الوجه، بديعة التكوين، ولكنها ليست من الطراز الذي يعجبني أو يرضيني.

وأظهر إبراهيم استغرابه لذلك، فقد كانت أسرة نقاء طيبة السمعة، مشهورة بالاعتدال، وأردفت نقاء قائلة:

ـ إنها ربيت يتيمة، فقد مات أبوها وهي لا تزال طفلة، وأفرطت أمها في تدليلها، ولهذا فقد ركبها الغرور والطيش، وقد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أوروبا، على أمل أن يحصل زوجها على شهادة جامعية، بعد أن فشل في تحصيلها هنا، ولكنه فشل هنا أيضاً، وقد رجعا بعد قراننا بـأيام، ولكن سعاد لم تفهم ذلك إلا متأخراً، فأنا لم أزرها عند عودتها من أوروبا، وقد جاءت لزيارتي مرتين أو ثلاثة.

وكان إبراهيم ساكتاً يستمع إلى نقاء، ولكنها قرأت على

وجهه علائم عدم الارتياح.. واستمرت تقول:

ـ إنها متطرفة أكثر مما يجوز بكثير، فقد أعشت عينيها أنوار أوروبا الخداعة، فهي دائمة التحدث عن معالم حضارتها.

ـ ومن تكون بنت خالتك هذه أو من يكون زوجها بتعبير أصح؟!

ـ إنها سعاد، ولا أعرف عن زوجها سوى أن اسمه محمود، وهو مفرط في الثراء.

ـ ثراء وفراغ وجهل، إن هذه العوامل هي أخطر ما تكون على المرء.

ـ والجمال أيضاً، فسعاد جميلة جداً يا إبراهيم إنها آية في الرشاقة والأناقة، وقد كنت احتفظ لها بصورة عندي، قدمتها لي منذ سنوات.

ثم نهضت وجاءت بـ(البوم) التصاوير. وقلبته حتى استخرجت منه صورة سعاد، وقدمتها لابراهيم قائلة:

ـ هذه صورتها قبل زواجها وقبل سفرها إلى أوروبا.

ثم عادت نقاء تقلب (ألبومها) لتنتقي منه بعض صور تذكارية تريها لابراهيم، ولذلك فقد فاتها ملاحظة الصفرة التي علت وجه ابراهيم عند رؤيته لصورة سعاد وقد عرفها لأول وهلة، وعرف أنها هي تلك الفتاة اللعوب التي تابعته

بغزلها حيناً من الزمان. وعجب أن تكون هذه الغانية قريبة لنقاء، وساءه أنها على إتصال بزوجته، وما يدريه فلعلها سوف لن ترتاح إلى هذه الزوجة السعيدة، وتعمل على خرابها، وهم أن يقول لنقاء: إن هذه ليست سوى امرأة مبتذلة نزقة فتجنبيها جهدك يا نقاء!. ولكنه عاد فتذكر أنها الآن زوجة وربة بيت فلعلها قد أقلعت عن ألاعيبها الصبيانية ونزواتها الطائشة، فلا يصح له أن يبعث ماضيها من جديد، أو ينبش ما لعلها دفنته بين صفحات السنين الماضية. وهكذا حال دافع الخير عنده عن التصريح بما يعرف عن سعاد. ثم أنه لم يكن يريد أن يخبر نقاء بموقف سعاد منه، لئلا يجعلها في حرج من اتصالها بسعاد. وهو أيضاً يأبى أن يكدر صفاء ذهنها بأمثال هذه الحوادث، ويود جاهداً أن ينأى بها عن كل ما يخدش روحها، أو يكدر أفكارها. وبما أن دوافع الخير كانت هي المسيطرة على إبراهيم في تلك اللحظة، فقد اكتفى بأن أرجع الصورة دون أن يعلق عليها بحرف، ورفعت نقاء رأسها عن (الألبوم) وقالت:

ـ أرأيت كيف أنها جميلة؟ ليت روحها كانت قد اكتسبت شيئاً من هذه الروعة الخلقية.

فابتسم إبراهيم ابتسامة باهتة، وقال:

ـ أنا لا أنكر أنها جميلة، ولكنى لا أستسيغ هذا النوع من الجمال المتكلف، الذي لم تحصل عليه صاحبته إلا بعد جهد جهيد،

ثم أنه جمال مبطن بالبشاعة يخفي وراءه عوامل كثيرة، كلها ليست خيرة ولا صالحة، فالجمال الحقيقي هو الجمال الطبيعي الطاهر، لا الجمال السطحي الملوث الذي تصنعه محلات التجميل.

وعجبت نقاء من أن إبراهيم قد تمكن من التعرف على شخصية سعاد الواقعية، على أثر نظرة واحدة لتصوير صغير، وكانت قد استردت الصورة منه، فهمت بوضعها في محلها من (الألبوم) وهي تقول:

ـ نعم إنها تماماً كما تقول يا إبراهيم!..

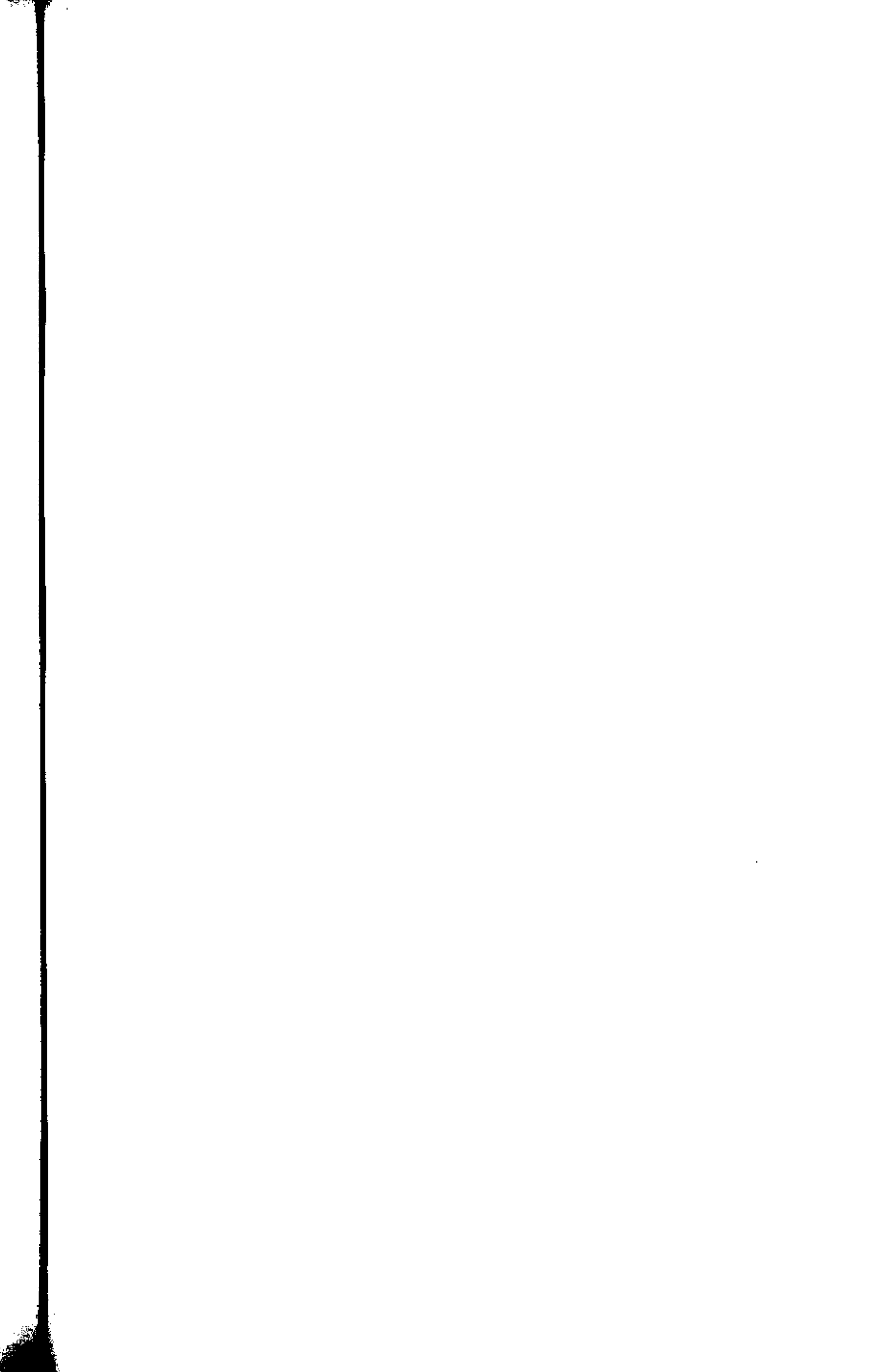
لكن إبراهيم سارع فأمسك يدها برفق وهو يقول:

ـ لا... لا تفعلي هذا يا نقاء! فإن (ألبومك) يضم مجموعة خيرة من الصور الفاضلة، فلا تدعي هذه الصورة تدنسه باندساسها فيه، أنا لا أريد أن أطلب منك تمزيق الصورة، ولكني أود أن تحتفظي بها بعيداً عن هذه الصور الثمينة.

ورفعت نقاء وجهها نحو إبراهيم، وتأملته لحظة قرأت فيها على وجهه المعبر ما لم يرد أن يفوه به، فمدت يدها نحو الصورة، وشرعت تمزقها إلى قطع صغيرة، وهي تقول:

ـ إذا كنت أنت لا تطلب ذلك مني، فأنا سوف أمزقها بيدي يا إبراهيم! لكي لا يعود لسعاد عندي أثر..

وتهلل وجه إبراهيم، وهو يرى نقاء تمزق الصورة بهدوء، صورة الفتاة التي جعلته يكفر إلى حين بالمرأة. وها هي نقاء تزيده إيماناً بوجود المرأة الصالحة... وردد وكأنه يحدث نفسه قائلاً: الحمد لله.. وأسعد نقاء أن ترى الفرحة قد شاعت على قسمات وجه زوجها الحبيب، ولذلك فقد حرصت على أن لا تعود إلى ذكر سعاد مرة أخرى لكي لا تكدر عليه صفوه وهناءه.



الفصل العاشر

كانت سعاد تعيش في دوامة من الانفعالات وكان أهم ما يشغل أفكارها هو تخطيط أساليب الانتقام من ابراهيم، ومن قيمه ومفاهيمه، فهي تشعر بنار الحقد والنقمة تنهش صدرها نهشا فتحرمها من الراحة والاستقرار. .

وكان محمود قد تمادى خلال الآونة الأخيرة في تجاهلها، وبالسير وراء نزواته ونزعاته ولكنها لم تكن تولي ذلك أي أهمية، فهي واثقة من أنها تتمكن وبسهولة أن تخضعه لها متى شاءت. . فلم يكن انصرافه هذا إلا لاهمالها الكلي له في هذه الأسابيع. . وكانت تستعرض في ذهنها أشكالاً من أساليب الانتقام.

وفي ليلة أرقت، وهي تفكر في خطة ناجحة تسلك بها طريقا نحو الانتقام، فقد كانت شخصية نقاء تقف حائلاً أمامها دون أغلب الخطط، وفي تلك الليلة ظنت أنها قد توصلت أخيراً إلى أضمن طريقة توصلها إلى ما تريد، ونامت على أمل راسخ في النجاح. . . وفي الصباح كان عليها أن تقوم بأول أدوار خطتها تلك. . وهو الالتفاف مؤقتا نحو

محمود... فقرعت الجرس واستدعت سنية لتساعدها على الاستحمام، وبعد أن أتمت ذلك، تلفعت بثوب حريري شفاف، وصففت شعرها باتقان، واختارت من مجموعة عطورها أعذبه رائحة، وأقواه تأثيراً... وكانت سنية لا تزال واقفة في ركن الغرفة تتابع حركاتها باهتمام بالغ... وأكملت سعاد زينتها، وألقت على مرآتها نظرة رضاء... لم يفت سنية ملاحظتها أيضاً.. ثم توجهت نحو باب الغرفة، فابتدرتها سنية قائلة في دهشة:

ـ هل أن سيدتي تنتظر ضيوفاً في هذا الصباح؟!

وضحكت سعاد ضحكة قصيرة وقالت:

ـ وهل تظنين أني أستقبل ضيوفي بـ (الروب)؟!

وردت سنية بجرأة قائلة:

ـ إذن فإلى أين أنت ذاهبة؟

ولم تلتفت نحوها سعاد، وقالت وهي تفتح باب الغرفة:

ـ أنا ذاهبة إلى محمود...

ثم أغلقت خلفها الباب، وخلفت سنة وحدها في الغرفة، وهي تكاد تنفجر غيرة وحنقاً... وأحست سعاد بمرارة لا تفوقها مرارة، إذ وجدت أنها قد أصبحت أخيراً وهي غريمة لسنية، وصيفتها من قبل... وكأن لسنية الحق

الأول في محمود، وودت لو تمكنت من الفرار من هذا الجحيم الـذي أضحت تعيشه في بيتهـا، ومن الذلـة التي أخذت تستشعرها وهي ربة هذا البيت، ولكنها لم تكن تتمكن من الفرار وبريق الذهب يلمع أمام عينيها فيـه، ورنين المـال يشنف أسماعها في أرجائه، وبلغت غـرفة محمـود فقرعت الباب بخفة، ثم أدارت أكرة الباب وهي تقول:

ـ هل تسمح لي بالدخول...؟

ولم تنتظر جواب محمود، فدخلت بعد أن طبعت على وجهها بسمتها الكاذبة... التي طالما استطاعت أن تخدع بها الرجال... وكان محمود يتهيأ للخرج ولكنه عدل عن ذلك بعد دخول سعاد، ورنت سعاد نحوه بدلال وهي تقول:

ـ لعلني لم أثقل عليك يا محمود...؟
ـ آه... أنت تثقلين عليَّ يا سعاد..!
ـ أقصد إذا كان لديك أي موعد هام...
ـ أبـداً... فأنت أهم عنـدي من كل شيء. ولـولا جفاؤك لما ارتبطت بأية مواعيد...
ـ شكراً يا محمـود! أنت طيب القلب... نعم وأنت رحيم.

كانت سعاد جادة فيما تقول، فهي تعلم أن زوجها رجل طيب في الواقع، ولكنه كان ضائعاً بين أكداس الثروة، ولم

يكن يتمكن بينها من تشخيص طريقه في الحياة، وقد وجهته هي الى الناحية التي تريدها، والتي تحقق لها حريتها الكاملة المدعومة بأمواله... وها هي الآن في طريقها إلى توجيهه وجهة جديدة. تساعدها على تحقيق غايتها الانتقامية.

وأخذت تجاذبه أطراف الحديث، وتنقل له بعض الحوادث والأخبار، وجرت الحديث إلى بعض أصدقائهما.. إلى أن قالت:

ـ... وقد بلغني أن صراعاً عنيفاً قائم الآن، بين صاحبنا سعيد وبين الممثل سليم...

وسكتت فلم تتابع ما قالته، فسألها محمود قائلاً:

ـ حول أي شيء هذا الصراع يا سعاد!

ـ إنه صراع سوف يخسر فيه الممثل سليم بلا ريب، فإن عند سعيد من المال ما يؤكد له الفوز على غريمه.

وهنا بدأ الاهتمام واضحاً على وجه محمود، فإن ذكر المال يغريه بمتابعة في الحديث، وقال في تأكيد:

ـ المال... نعم، أنا أعتقد دائماً أن المال يصنع المعجزات ولكنك لم تخبريني عن ماهية الصراع بعد...

ـ إنه حول امرأة يا محمود!

ـ حول امرأة! وأي امرأة هي هذه يا سعاد!

ـ إنها آية في الجمال يا محمود! وكأن خالقها قد أبدع

تكوينها، لتكون نموذجاً للجمال في العالم، وهي فتاة لم تتجاوز العشرين بعد. . .

- آه! . . .

- نعم، ولكنها بعيدة المنال. . .

- وكيف!؟.

- قبل سنتين سبق وأن تخاصم عليها ثلاثة رجال. كان لكل منهم المال والشباب، ولكنها تجاهلتهم، واختارت رابعاً يفوقهم ثراء.

- فهي متزوجة إذن. . .

- لا. . . لم يكن ذاك سوى مجرد صديق، وقد خاصمته منذ مدة وجيزة.

- ولماذا؟!.

- لا أعلم، لعلها تاقت إلى ثراء أكثر، ولذلك فأنا واثقة من أن سعيداً هو الذي سوف يفوز بها دون سليم.

هنا سكتت سعاد برهة. لاحظت فيها أن محموداً أخذ يفكر فيما قالته.. وبعد لحظات أردفت قائلة:

- ومن المضحك أنهما لا يصرحان لبعضهما عما يعرفان عن الآخر. فكل منهما يتجاهل سعي الآخر للوصول إلى هذه الفتاة. كما أن كلاً منهما ينفي معرفته لها على الاطلاق، لكي لا يثير حوله الشبهات التي تشجع الثاني على تشديد الاغراء.

وخرجت الكلمات متقطعة من فم محمود، وهو يسأل في لهفة:

ـ أين اتفق لهما أن رأياها يا سعاد؟!

وفهمت سعاد أنها قد أصابت من زوجها هدفاً، فأجابته:

ـ لست أدري بالضبط يا محمود! ولكن الذي أعلمه أن صاحبتهما هذه لها أساليب خاصة في المساومة... فهي مرة تدعي أنها متزوجة ولها زوج وهي سعيدة به.. ومرة تتلبس بمسوح الدين، وتتظاهر بالتزام جانب الفضيلة والاحتشام... ولكنها متى ما وثقت من ثراء صاحبها وتفانيه في حبها، خلعت عنها أبراد الخداع وبدت على واقعها الساحر.

واستغرق محمود في تفكير عميق.. نهضت على أثره سعاد، واستأذنت للانصراف، ولم يشأ محمود أن يستبقيها اكثر من ذلك فقد كان كلامها عن الفاتنة العزيزة المنال قد أخذ عليه جميع أفكاره ولم يفت ذلك على سعاد، فانصرفت عنه، وهي واثقة من أن سهمها قد أصاب مرماه من دون جهد.. ثم دخلت غرفتها، وألقت بنفسها على الكرسي، وهي تحدث نفسها قائلة: أنا لن أخسر شيئاً من ذلك على كل حال، فسيان عندي خلف أي غانية ركض محمود، ولكن الفرق أن غوانيه الأخريات لا يحققن لي غاية، وأما هذه التي أحاول أن أدفعه نحوها فسوف تحقق لي بانصياعها إليه أسمى

هدف لي، وهو الانتقام... نعم، الانتقام من ابراهيم ومن مثله ومفاهيمه، وبعـد أن تتحقق غايتي الانتقـامية سـوف أستطيع بسهولة... أن أرده إلي متى شئت... فلن يخضع كبرياء تلك الفاتنة... غير أموال محمود، فليس من الممكن أن توجد امرأة لا يغشى عينيها بريق الذهب، ولا يطربها رنين المال، وليست نقاء سوى واحدة من النساء... إن جميع مفاهيم ابراهيم ومثله لن تتمكن من الوقوف أمام تيار الذهب الذي يتدفق من يد محمود، أنا لن أتمكن أن أجرهـا إلى الحفلات، أو أن أدل عليها الرجال ولكني أتمكن أن أرشد إليها محموداً على الأقل...

واستمرت سعاد تحدث نفسها قائلة:

... ولا يهمني أكانت سنية غريمتي أم نقاء بل أنها لن تكون غريمتي مطلقاً.. فما دامت أموال محمود بين يدي فلن أشعر بغيرة أو مرارة. فشخص محمود لا يعني عندي شيئاً على الاطلاق. ولعلني أتمكن أن أستفيد من شخصه التافه إلى هذا المضمار... إن نقاء فتاة إنطوائية لم يسبق لها أن سمعت كلمة غزل، أو لاحظت نظرة إعجاب، ولذلك فأنا على ثقة من أنها سوف تنهار أمام اغراءات محمود، إنها بدأت تنعدم على زواجها منذ الآن. وكان سكوتها على حديثي في المرة الأخيرة أحسن دليـل على ذلـك، لقد نفـذت إلى فكرهـا كلمـاتي وأفكـاري، وسـوف لن أتـراجـع حتى أسكب فيهـا جميـع

روحياتي، وأدلها على اتجاهاتي في الحياة، سوف أعرف كيف أرفع عنها هذا القناع الذي ألبسها إياه إبراهيم... ولكن عليَّ الآن أن أتعرف إلى الأماكن التي تؤمها، والرياض التي تتنزه فيها.. نعم عليَّ أن أراقب ذلك إلى حين سفر إبراهيم فما دام هو قريباً منها لن أتمكن أن أعمل أي شيء، فقد استحوذ عليها بسحره، وهو الساحر المتمكن الذي يخضع له كل قلب حتى قلبي... نعم حتى قلبي!.

الفصل الحادي عشر

كان يوم سفر ابراهيم قد أخذ يقترب بل يكاد أن يحدد، فقد تهيأ أخيراً إلى تقديم موعد سفره حرصاً منه على تقديم موعد الزفاف.

وفي أحد الأيام صحب إبراهيم نقاء إلى ربوع دمشق، وانتهى بهما المطاف إلى الجامع الكبير، فاعتزلا فيه ركناً قصياً، واتخذا لهما مقعداً فوق بعض الأحجار... وقد أخذ المسجد يحتشد بالمصلين كعادته في كل يوم... ولذ لنقاء أن تتابع بنظرها المصلين المتنقلين في أنحاء الجامع بين الأماكن المباركة التي في رحابه، وشعرت بنشوة روحية وهي ترى الوحدة الاسلامية تتمثل في صفوف المصلين. فالتفتت نحو إبراهيم قائلة:

ـ حقاً إن العبادات الاسلامية توحي بالرضا والاطمئنان.

ـ نعم، تماماً كما تقولين يا نقاء! وقد كان هذا الجامع منذ عهده الأول قاعة لاجتماع المسلمين ومصدراً لأحكام الدولة الاسلامية. كانت قوانين الاسلام تنطلق من هذا الجامع أيام

كانت دولة الاسلام تحكم نصف المعمورة، وأيام كان صوت المؤذن يتردد على منابر العشرات من الدول هاتفاً بهتافه الخالد «الله أكبر».

ـ ما أحلى تلك الأيام يا إبراهيم ليتنا كنا في ذلك العهد.

ـ نعم ما أسعد تلك الأيام، ولكننا ما دمنا نعيش فكرة الاسلام ـ ونحيا على صعيد مثله وتعاليمه فنحن لا نزال سعداء يا نقاء! إن سعادتنا في الصمود أمام التيار المنحرف تعني الكثير وفرحتنا عند كل انتصار لتغلبنا على نفسنا الأمارة بسلاح النفس اللواق لا تعادلها فرحة، ثم ألم تسمعي كلمة الرسول (ص) «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد».

ـ إن المسلمين في صدر الاسلام كانوا سادات العالم يا إبراهيم.

ـ إنهم كانوا قادة للعالم لا سادة، فالاسلام لا يعترف بقانون السادة والعبيد، ولا يسود الرجل المسلم إلا بتدينه وتقواه، ولم يكن المسلمون في طريقهم للسيادة على العالم، بل كانوا في سبيل إرشاد العالم وتوجيهه وتهذيب آفاقه وتعقيم أفكاره. فالاسلام مبدأ عالمي يصلح لكل عصر ومصر، ولا يمكن الخلود لمبدأ ورسالة تقوم على السيادة. بهذه الروح والفكرة تمكن المسلمون أن يصلوا برسالتهم إلى كسرى في

إيـوانه، وإلى قيصـر في أبراجـه وحصونـه، وأن يـطهـروا بإسلامهم جميع الحضارات غير الاسلامية.

ـ وهل كان للمرأة المسلمة دور في صدر الاسلام؟

ـ طبعاً.. فإن للمرأة المسلمة مواقف خالدة في تاريخ الاسلام وبطولاته، وقد أثبتت جدارتها كمسلمة، وشخصيتها كصاحبة رسالة، فلم تكن المرأة المسلمة تقل عن الرجـل المسلم ممارسة واندفاعاً.

ـ وما أكثر الفرق بين المرأة المسلمة في صدر الاسلام وبين المرأة المسلمة في عصرنا هذا!.

ـ إن المرأة المسلمة في عصرنا هـذا مخدوعـة يا نقـاء! والذنب في ذلك كله يرجع إلى الرجل الـذي عمل عـلى استغفالها حتى نزل بها إلى هذا المستوى الذي انحدرت إليه، ولهذا فإن علينا محاولة إيقاظهـا من غفلتها. وانتشـالها من الوهدة التي تردت فيها دون أن تدري أو تعلم.

ـ إنني أخشى أن يكـون إصلاح المـرأة المسلمـة ليس بالشيء السهل يا إبراهيم، بعد أن تشبعت روحياتها بمفاهيم الغرب.

ـ لا تقولي المرأة المسلمة يا نقاء، ولكن قولي المخدوعات من النساء المسلمات، فالمرأة المسلمة لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تتشبع بـروحيات الغـرب، أو تخدعهـا أفكاره

وآراؤه، فالمرأة المسلمة التي تعرف حقيقة دينها وواقع رسالتها تعلم واثقة أن لها في مبدئها أعذب معين ترد منه لتنعم بحقوقها كاملة في الحياة وحتى المخدوعات من المسلمات لم يفت الوقت في إصلاحهن بعد... فالمرأة المسلمة عنصر طيب سوف ترجع إلى الطريق السوي متى ما رفعت الغشاوة عن عينها، وسوف ترفع في أقرب فرصة.

ـ وكيف؟!.

ـ إن فشل النساء المتفرنجات قد أخذ يبدو واضحاً في حياتهن، كما أن نسبة الفشل في الزيجات التي تقوم على أساس هذا التفرنج قد أخذ يتزايد تزايداً مطرداً في جميع الأقطار الاسلامية. فإن زواجاً يقوم على أسس غير اسلامية لا يمكن أن يكون زواجاً سعيداً لائقاً للاستمرار.

ـ تصور يا إبراهيم! أن بعض المخدوعات من فتياتنا يقدمن الدليل على إجحاف حق المرأة المسلمة بموضوع الحجاب. وبفرضه عليها هي وحدها دون الرجل.

ـ ليست هذه الأقاويل سوى ترجيع للدعايات الأجنبية، والواقع أن الحجاب ليس وقفاً على المرأة دون الرجل في الشريعه الاسلامية. ولكن نظراً لكون المرأة أقوى سحراً وأعمق تأثيراً كان حجابها أعم وأشمل من حجاب الرجل.

ـ هل حقاً ما تقوله يا إبراهيم؟!

ـ إنه الحق بعينه يا نقاء، فإن المرأة والرجل بما أنهما بشر يتساويان في نظر الاسلام ولم يفرض الحجاب على المرأة المسلمة لحساب كونها بشراً ولكن لحساب كونها أنثى، وصيانة لأنوثتها الطاهرة، فكما أن على الأنثى أن تتستر بأنوثتها، على الرجل أيضاً أن لا يظهر للمجتمع بدعوة كونه ذكراً، بل لكونه بشراً فقط وبما أن معالم أنوثة المرأة أعم وأوسع من معالم ذكورة الرجل كان حجاب المرأة أشمل وأعم من حجاب الرجل، فالاسلام لم يجعل من الحجاب أداة لتقييد المرأة أو حبسها عن المجتمع، ولكنه جاء به كوسيلة لوقايتها من مفاسد المجتمع ومضاره، فالمرأة المسلمة في صدر الاسلام كانت تشهد الحروب، لتطبب وتداوي وتشجع وتحرض وهي في الوقت نفسه متلفعة بأزارها. ونقابها لم يثنها عن أن تقوم بدورها الفعال في المجتمع المسلم.

ـ ليتنا كنا كذلك يا إبراهيم!

ـ إن في وسع كل امرأة أن تكون كذلك.

ـ وكيف؟

ـ إن الجهاد لأجل العقيدة درجات وألوان يا نقاء! ولا يمكن أن تتعذر بعض درجاته وأشكاله على المرأة المسلمة في كل وقت وحين.

ـ أتظن مثلاً أني أتمكن أن أجاهد في سبيل عقيدتي وإيماني؟

ـ نعم. . . وتتمكنين بسهولة، فإن صمودك عن الاغراءات، وثباتك أمام التيارات، ودفعك كلام الباطل بالحق، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، يعتبر جهاداً عند عجزك عن القيام بما هو أكثر من ذلك، بل أن جهاد النفس هو من أقدس وأكمل ألوان الجهاد كما قال بذلك الامام أمير المؤمنين (ع) تطهير النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد.

وهنا ارتفع صوت المؤذن يتردد في أنحاء الجامع هاتفاً هتافه الخالد: «الله أكبر. . .».

الفصل الثاني عشر

كان موعد سفر إبراهيم قد تحدد في صباح يوم الأربعاء، ولم يكن قد بقي على رحيله سوى يومين، ومنذ أيام مضت لم تعد سعاد تتصل بنقاء، لكنها في صباح ذلك اليوم اتصلت بها تلفونياً بحجة أنها كانت عند الخياطة، وقد كلفتها أن تخبر نقاء بطلب حضورها لعمل (البروفة) فشكرتها نقاء ولم تزد على ذلك، ولكن سعاد قالت لها أنها سوف تذهب مبكرة للخياطة، وهي مستعدة لاصطحابها معها، فلم يسع نقاء إلا أن ترد عليها بأنها لا تتمكن أن تذهب خلال هذين اليومين لأجل قرب موعد سفر إبراهيم. واهتمت سعاد بالخبر واستفهمت منها عن موعد السفر وساعته.. ثم كررت عليها استعدادها لايصالها إلى الخياطة في أي وقت رغبت، وأنهت المكالمة... انتبهت نقاء إلى أن حكاية الخياطة لم تكن سوى ذريعة لاتصال سعاد بها، فقد كانت الخياطة تتصل بها تلفونياً في كل مرة لتطلب حضورها عندها، ولكنها كانت في شغل عن التفكير في سعاد وما يدور حولها.. وفي صباح يوم الأربعاء استيقظت نقاء بعد ليلة لم تنم منها إلا القليل،

وتناولت فطورها على عجل، وأخذت تستعد للذهاب إلى المطار، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف وصل إبراهيم ليصحبها معه إلى المطار، فقد اتفقوا على أن تذهب إلى المطار بصحبة إبراهيم، ويلتحق بها أبوها هناك، لتعود معه إلى البيت. وركبت السيارة إلى جوار إبراهيم، وهي ساكتة مطرقة تتحاشى نظرات إبراهيم كي لا يقرأ ما يعتلج في قلبها من أحاسيس ولم تشأ أن تتكلم لئلا يخرج صوتها متهدجاً... وشعرت أن إبراهيم يلتفت إليها بين حين وحين... ويحاول تسليتها بأحاديث عن المستقبل وعهد اللقاء السعيد... وفي المطار كانت تبذل جهداً كبيراً كي تخفي عن إبراهيم ما تعانيه من آلام الوداع، وظنت أنها نجحت في ذلك، إلا أن إبراهيم لم يغب عنه ما تقاسي منه نقاء، فقد قال لها بعد الوداع:

ـ أنا أعرف أنك تبذلين جهداً كبيراً لأجلي يا نقاء، وهذا ما سوف يجعلني وجلاً عليك، ولكن تصبري واجهدي في الدعاء لنا بالتوفيق، وتذكري عودتي، وافرحي لساعة اللقاء. تصوري أن لديك عزيزاً طال به السفر، وسوف يعود بعد أشهر ثلاث، لا تفكري أن هذا بداية الفراق، بل فكري أن اللقاء سوف يكون قريباً بإذن الله.

شعرت نقاء وهي ترى إبراهيم يصعد سلم الطائرة... إنها سوف تضعف أمام ضغط انفعالاتها، وكادت أن تسقط

لولا أن يداً رحيمة قد أسندتها من الخلف، ولم تحاول أن تلتفت لترى من يكون هذا الذي أسندها إلى صدره، فقد عرفت أنه أبوها لا أحد غيره.. وأجلسها أبوها على أحد الكراسي لمدة وجيزة، ثم صحبها إلى خارج المطار، وكانت تستند على ساعد أبيها، وهي تسحب قدميها بتعب وإعياء... ساعدها أبوها على ركوب السيارة وتوجه معها نحو الدار، وفي الطريق شعر أبوها أنها تعاني الكثير من سفر إبراهيم، فحاول أن يتكلم في أي شيء، لكي يخرج بها عن بعض أفكارها وانفعالاتها، فقال:

ـ كان هناك في خارج المطار رجل فضولي وكان همه منحصراً في إلقاء النظرات على الرائحين والغادرين، وقد لاحظت أنه كان يطيل النظر إلى السيدات.

ولم تتمكن نقاء أن تتجاهل كلام أبيها فردت عليه قائلة:

ـ إن الدنيا تزخر بأمثال هذا الرجل من التافهين الفضوليين وما الذي يعنينا منه يا أبتاه؟.

ـ لا شيء مطلقاً ولكن نظراته أزعجتني كثيراً.

ـ إن نظراته لم ولن تؤثر علينا يا أبتاه، فمن حقه أن نرثي لأجله، لا أن ننزعج منه، فأمثال هذا من الرجال هم أجدر البشر بالرثاء، إذ يحرمون شبابهم ويبددون طاقاتهم بأفعالهم الصبيانية.

ولكنهم لا يشعرون بالهاوية التي يجرهم إليها هذا السلوك.

ـ نعم أنهم مخدوعون.

واكتفت نقاء بهذا القدر من الكلام، فلم تزد شيئاً. وفي البيت كانت أمها تنتظرها بفارغ صبر، فألقت بنفسها في أحضان أمها، وهناك فقد أطلقت لدموعها العنان...

الفصل الثالث عشر

أما سعاد فقد ألقت سماعة التلفون بعد محادثتها الأخيرة مع نقاء، وبعد أن استوثقت من سفر إبراهيم. وعرفت ساعة سفره، فركت يدها بغبطة، وهي تقول: سوف أبدأ محاولتي الناجحة.... نعم، سوف أبدأها في أول فرصة من سفر إبراهيم صاحب المثل والمفاهيم... ولم تشأ أن تخرج ذلك الصباح، بل عكفت في دارها تقلب خطتها على جميع الوجوه حتى استوثقت أخيراً من استكمال حلقاتها وعند الظهر تناولت طعامها مع محمود، وعلى المائدة قالت وكأنها تذكرت أمراً:

- معذرة أنا لم أحدثك بتطورات الموقف يا محمود...

- وأي موقف هو هذا يا سعاد؟!.
- الصراع القائم بين سعيد والممثل.
- آه... حول تلك الغادة الحسناء؟
- نعم حولها.
- ما الذي جد في الأمر يا سعاد؟
- إنهما لا يزالان يتباريان...

يا لها من مقامرة ماهرة... إنها تعرف كيف تكسب الرجل الذي يحمل إليها أكثر مقدار ممكن من المال، تصور أنها الآن تتظاهر بمصادقة رجل كهل، لكي تغيظ هذين الشابين وتزيد حماسهما إندفاعاً.

ـ كيف ومن أين لك هذه المعلومات وأنا لا أرى لهذه الفتاة أثراً ولا خبراً في أي حفلة من الحفلات أو أي منتزه من المنتزهات؟!

ـ وما يدريك يا محمود، فلعلك رأيتها ولم تعرفها، فهي تظهر بمختلف الأزياء، فتارة هي محافظة وقورة تلبس الطرحة وتلتفع بمعطف أسود.. وتارة هي غانية لعوب ترود الحفلات وتحي السهرات. وأنا لا أكاد أشخصها حتى الآن، ولكني عرفت أنها سوف تذهب إلى المطار صباح يوم الأربعاء في الساعة التاسعة لموادعة إحدى صديقاتها، فإذا أمكنني الذهاب إلى هناك فسوف أتمكن من التعرف عليها بلا ريب...

ـ وكيف يمكنك ذلك وسط مجموعة النساء اللاتي يعج بهن المطار؟!

ـ أنا أعلم أنها بيضاء شقراء عسلية العينين، بيضوية الوجه، متوسطة الطول، رشيقة القوام، ثم إن لديها خالاً أسود فوق رقبتها من الجهة اليمنى، وسوف يدلني هذا عليها بدون شك... هذا إذا كانت سافرة. وأما إذا كانت في

مسوح المحافظات، فإن زيها أحسن دليل يدلني عليها، وأغلب الظن أنها ستكون كذلك بلا ريب إن صاحبها الكهل، سوف يصحبها إلى هناك... وهي تكثر الظهور بهذا الزي التنكري ما دامت معه.

واكتفت سعاد بهذا القدر من الكلام في هذه المرة، فأتمت غذاءها على عجل، وتوجهت نحو غرفتها، وما أن أوصدت خلفها الباب، حتى تمتمت قائلة: سوف أتظاهر يوم الأربعاء بالمرض، وسوف لن أخرج من البيت لأدعٍ له المجال في الذهاب إلى هناك. هو لا يعرف أباها مطلقاً، ولذلك فسوف يصدق ما قلته له عن وجودِ صاحب لها، كهل، فهي سوف تذهب إلى المطار مع إبراهيم في الساعة الثامنة والنصف كما أخبرتني، والطائرة سوف تقلع في تمام التاسعة، ولا بد أنها سوف ترجع مع أبيها إلى البيت...

ثم ألقت سعاد بنفسها على السرير، وأطلقت لفكرها العنان... فكرت أنها قد أقدمت على مغامرة طائشة، قد تفقد من ورائها محمود، ولكن سرعان ما عادت تقول: إن محمود لن يتحرر من نفوذي عليه، فأنا بالنسبة إليه أكثر من زوجة، وأكثر من معشوقة... أنا موجهة له ومرشدة، أنا التي سكبت فيه روحاً من روحي، وبعثت في رأسه جميع أفكاري وآرائي، أنه لم يكن سوى رجل تافه خامل قبل أن ألقي شباكي عليه، فهو صنعية يدي في هذا الباب، ثم إنه

دائب على تتبع الغواني، وترصد الفاتنات، فما الذي يؤثر عليَّ إذا كانت إحداهن نقاء... إنه سادر في طيشه، منساق وراء نزواته، سواءاً مع هذه أو تلك، ولديه من أساليب الاغراء أقواها أثراً وأرسخها أساساً، وهو المال معبود الملايين...

وفعلاً فقد نفذت خطتها كاملة، فتظاهرت بالمرض في صباح يوم الأربعاء، وأظهرت أمام زوجها أسفها لعدم تمكنها من الذهاب إلى المطار، والتعرف على تلك الفتاة، وشعرت أن محمود قد أكثر من التأنق في ذلك الصباح... وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين، خرج محمود من الدار، وألقت عليه سعاد نظرة من نافذتها، وهو يستقل سيارته، وتمتمت تقول: إنك حريص جداً على تحديد المواعيد، إذهب إلى حيث بعثتك يا محمود! ولتكن سيارتك الفارهة هذه أول أحابيل إغرائك... ولم تتمكن سعاد من الخروج، لئلا يعود محمود قبلها فلا يجدها في الدار، وفعلاً فقد عاد محمود في التاسعة والنصف وذهب إلى غرفته رأساً ولم يخرج منها إلا إلى غرفة المائدة، وتناولت سعاد الغداء معه فعرفت أنه في سبيل إيجاد أحسن طريقة يستحوذ بها على تلك الفتاة.

الفصل الرابع عشر

مر يومان على سفر إبراهيم، ولم تخرج نقاء من الدار، وفي صباح اليوم الثالث صممت على أن تذهب لزيارة خالة إبراهيم، التي ربته وأنشأته، وكانت له بمثابة الأم، وعند الباب أبصرت سعاد وهي تترجل من سيارتها أمام البيت، فلم يسعها إلا أن تقف لتستقبلها، وكان لقاء سعاد لها ودوداً حاراً... ولما عرضت عليها الدخول إلى الدار، قالت: أنها تود لو تجلس قليلاً في الحديقة، وفي ظل إحدى الشجيرات... وفهمت أن سعاد تحاول الانفراد بها دون خالتها، ولكنها لم يسعها أن تمتنع من ذلك، وعزمت على أن تذهب لتستدعي أمها بعد قليل، ولكن سعاد لم تتطرق إلى ابراهيم وسفره إلا بكلمات قصيرة، وكان حديثها يدور حول أمور شتى بعيدة عن إبراهيم، ولهذا لم تجد نقاء أي داع لطلب حضور أمها وهي تعلم أنها تنفر من سعاد وتتحاشاها... تحدثت سعاد عن حرصها الشديد على التنزه وهي راجلة في كل صباح.. ثم سكتت لحظة تنتظر تعليقاً من نقاء على كلامها، ولكنها لم تعلق بشيء، فلم تر بدأ من أن تسألها قائلة:

ـ وأنت يا نقاء! ألا يسمح لك بالتنزه للترفيه عنك في بعض الأيام؟...

وآلم نقاء أن تكون جميع كلمات سعاد مسمومة... ولم تر بداً من أن تجيبها وهي تتعمد اللامبالاة.

ـ وقد أقصد منتزه الجمهورية، أو حدائق الغوطة.

وتظاهرت سعاد بالاستغراب، وقالت:

ـ آه، إذن أنت لا تتعدين هذين المكانين؟.

ـ لا، مطلقاً.

ـ وهل كان إبراهيم يصحبك إلى هناك... أقصد أيسمح لك إبراهيم بذلك؟.

ـ أما مع إبراهيم كنت أذهب إلى كل مكان يراه مناسباً لي.

ـ إذن أنت وحدك تذهبين إلى هذين المكانين؟.

ـ نعم... أو مع أبي.

ـ أو تذهبين وحدك يا نقاء؟!

ـ نعم بعد أن يأذن لي إبراهيم!

ـ كنت أظن أن تقاليدك تمنعك من ذلك.

ـ إن الآداب التي تعتبرينها تقاليد، لا تقيد الحريات المهذبة، وإنما تشترط في كل ذلك أن يكون في إطار ديني، وأن لا يخرج عن حدود الآداب الاسلامية... ولي من

عقيدتي ومبدأي ما يقيني كل سوء، ويدفع عني كل شر.

ـ وكيف تقضين أوقاتك هناك وأنت وحيدة بين مئات من الناس؟.

ـ إن من عادتي أن أعتزل المنطقة المزدحمة، وأختار لي ركناً قصياً، وأصحب معي آثر كتاب عندي، فإن المطالعة هناك تحلو لي كثيراً..

فتأوهت سعاد وكأنها تستمع إلى كلام ذي شجون وقالت بصوت يقطر أسى ومرارة:

ـ يا له من ظلم فظيع... أمثلك تعتزل المجتمع وتعيش على هامش الحياة؟ أتكون محاسنك هذه رهناً للمعطف والطرحة السوداء، وتكون أفكارك الفتية مدفونة بين صفحات كتاب؟ إن أسفي عليك لا يكاد ينقضي يا نقاء! فأنت جديرة باحتلال عرش ملكات الجمال. حقاً أن الماس ليبدو غريباً إلا على جيدك العاجي... أنا على ثقة من أنك لا تزالين تجهلين حقيقة جمالك وروعته، فالفتاة الصغيرة لا تشعر بواقع جمالها إلا إذا استمعت إليه من أفواه الرجال، فهم أخبر ما يكونون بأنواع الجمال، إن حياة المرأة تبدأ عندما تشعر أن ألوفاً من القلوب أخذت تحوم حولها. فما دامت الفتاة مغلفة بالأبراد، فهي لن تتمكن أن تعرف لأنوثتها طعماً، أو تشعر لجمالها لذة... أنت مظلومة يا نقاء! فها أنت تقبعين هنا في عزلتك هذه، في الوقت الذي يتنقل

فيه إبراهيم حراً طليقاً في ربوع فرنسا... أنت تتجنبين رجال بلدك، وإبراهيم يتقلب في أحضان غانيات باريس...

قالت نقاء:

ـ أية حياة هذه التي تتحدثين عنها يا سعاد؟! ومتى كانت غرائز الرجال هي المحور في تهديد شخصية الفتاة؟ إن غرائز الرجال تتمكن أن تقيم جانباً واحداً من جوانب وجودها فقط وهو الجانب المادي! هذا الجانب الذي لا يمكن أن يكتب له الاستمرار بصورة ثابتة في حياة الفتاة، ولهذا فإن الكيان الذي تصل إليه الفتاة في مسيرة حياتها نتيجة حكم غرائز الرجال عليها محدود الأمد والنمو والكيان الذي تحققه الفتاة لنفسها عن طريق حكم العقول والأفكار، هو الطريق الثابت القابل للتصاعد والتقدم نتيجة تصاعد الأسباب التي دعت إليه، والدين هو المنار الذي يهدي السائرات إلى تحقيق وجودهن على أساس هذا الواقع الثابت المستقيم، إنني لست مظلومة، ولكن الفتاة التي تفتقد أنوثتها وكرامتها وتستحيل إلى سلعة مقروضة يختارها الرجل تارة وينبذها أخرى.. مظلومة يا سعاد...! إنني لست أسيرة وإنني حرة في جميع تصرفاتي، لا أخضع لأحد فيها سوى الله عز وجل، ولكن الأسيرة تلك التي يتلاعب بمقدورات وجودها واضع موضة، أو مصمم زي من الأزياء، أو مقترح صبغ من أصباغ الوجه والكفين، أما الآن فانني سأذهب لأستدعي أمي، فقد ظننت أنك لن

تتطرقي إلى أمثال هذه المواضيع... أما الآن فقد وجب حضور أمي.

ولكن سعاد سارعت بالنهوض أيضاً وهي تقول:

ـ ولكني أسفة يا نقاء...! فقد حان وقت عودتي إلى البيت، فإن لدي ضيوفاً ولا بد أنهم قادمون بعد قليل.

فلم ترد عليها نقاء ولم تحاول أن تستبقيها، بل ظلت واقفة وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية، فقد ودت لو أن سعاد لم تكن ضيفتها أو قريبتها، إذن لعرفت كيف تتصرف معها.

ولهذا فقد انصرفت سعاد بسرعة، وحرصت على أن تجتمع مع محمود في ذلك اليوم، وأن تشير أمامه إلى أن الفتاة التي يحوم الصراع حولها، تتردد على منتزه الجمهورية، أو حدائق الغوطة، وإنها لا تتعدى هذين المكانين ما دامت لم تصل إلى اختيار واحد من الاثنين... ومنذ ذلك اليوم كان محمود يتنقل بين هذين المكانين، وكله عيون تتطلع ليجد ضالته بين الحسان، بعد أن رآها وعرفها في المطار، وقد توطد أمله بالفوز بها بعد أن رآها في صحبة أبيها الذي صورته له سعاد بصورة صديق أو خليل وعزا ذلك إلى أن مصاحبتها لهذا الرجل الكهل، لم تكن إلا لأجل المال، وهو يملك المال والشباب... ومرة رآها في ركن قصي من المنتزه، وكان معها

نفس الرجل الكهل، فلم يشأ أن يتقرب نحوها، واستمر ينتظر فرصة أخرى في يوم ما. . .

الفصل الخامس عشر

كانت نقاء تتلقى في نهاية كل أسبوع رسالة من إبراهيم، وكانت رسائله مسهبة مفصلة، يحدثها فيها عن أعماله وأحواله وعن أفكاره ومشاعره، وهي مليئة بكلمات الحب، نابضة بعبارات الاخلاص والوفاء، ولم تكن نقاء تتوانى عن الرد، فهي تكتب في يوم وصول رسالته إليها وتحدثه أيضاً عن أحوالها، وما يجد في حياتها، كما أنها كانت تحاول أن تبعث فيه بكلماتها العاطفية العذبة، روح المقاومة على الفراق... وكانت تقضي أيام الأسبوع وهي تعيش على رسالة إبراهيم، تعيد قراءتها مرة ومرة، وتعد كلماتها باتقان، ثم تعود لتعد حروفها أيضاً، وعندما كانت تشعر بوحشة ممضة، كانت تقصد المنتزه لترفه عن نفسها في الهواء الطلق... وفي مرة كانت تجلس في ركنها المنعزل من المنتزه، وهي منهمكة في مطالعة رواية معربة لفيكتور هيجو، أحست أن وراءها من يتطلع نحوها، ونحو الكتاب الذي تقرأ فيه، ولكنها رأت أن من الحكمة أن لا تلقي بالاً إلى هذا المتطفل أياً كان، ولهذا فلم ترفع رأسها عن الكتاب، وفجأة شعرت

أن كرسياً قد وضع قريباً من الكرسي الذي تجلس عليه، ولم تلتفت كذلك، فقد كانت هذه هي طريقتها دائماً في تجاهل الفضوليين، وبعد برهة وجيزة أقبل الساقي ليسألها إذا كانت تطلب شيئاً، فرفعت رأسها وقالت: أنها تطلب كأساً من عصير الليمون. وذهب الساقي ليأتي بما طلبت، ولكن صوتاً غريباً ارتفع من الجالس على الكرسي القريب منها، وهو يقول:

ـ أرى أن الأنسة تفضل شراب الليمون . .

فالتفتت نحو مصدر الصوت لترى شاباً قد اتخذ له مجلساً على كرسي هناك، وهالها منه هذه الميوعة التي كانت تبدو واضحة عليه ولم تر بداً من أن تجيب قائلة: نعم. . . ولم تزد على ذلك، وهمت أن تنهض لتنصرف، ولكنها لاحظت أنها مقيدة أدبياً بانتظار الساقي. فتململت في جلستها وعادت تقرأ، ولكن الرجل المتطفل لم يكن ليهزم بهذه السرعة، ولم يخطر بباله سوى أنها أساليب إغراء، فأردف يقول:

ـ ما هذا الكتاب الذي استحوذ عليك يا أنسة؟!.

ولم تشأ أن تجيبه، ولكنه كرر سؤاله ثانية وثالثة. . فلم تر من اللياقة أن تبقى أسئلته المتكررة بدون جواب. . . فأجابته في برودة قائلة:

ـ إنه «عاصفة وقلب» لهيجو.

ولم يفهم محمود لكلماتها معنى، فهو لم يقرأ أي كتاب لهيجو، بل ولم يكن يعرف أي شيء عن أسلوبه في الكتابة، ولذلك فهو لم يقع في جوابها إلا على كلمة «عاصفة وقلب» فأرسل آهة قصيرة ثم قال:

- إن أروع القصص هي قصة القلوب... نعم، القلوب الخفاقة بالحب، الناضحة بالوجد، إن أقدس شيء في الحياة هو الحب يا أنستي العزيزة.

وأزعجت نقاء هذه الكلمات، وردت عليه، وكأنها تحدث نفسها قائلة:

- إن أقدس شيء في الحياة هو المبدأ. وأعز شيء هو الدين والعقيدة.

وظنت أنها قد تخلصت بجوابها هذا من مضايقة محدثها المتطفل وأنه سوف يعرف أن أهدافه لن تصيب عندها مرمى، ولكن محمود لم يكن لتهمه هذه الألفاظ، وهو يظنها رياءاً وخداعاً، وساءه أن تكون فاتنته قد اختارت أن تلعب معه هذه اللعبة، فتضاحك وهو يقول:

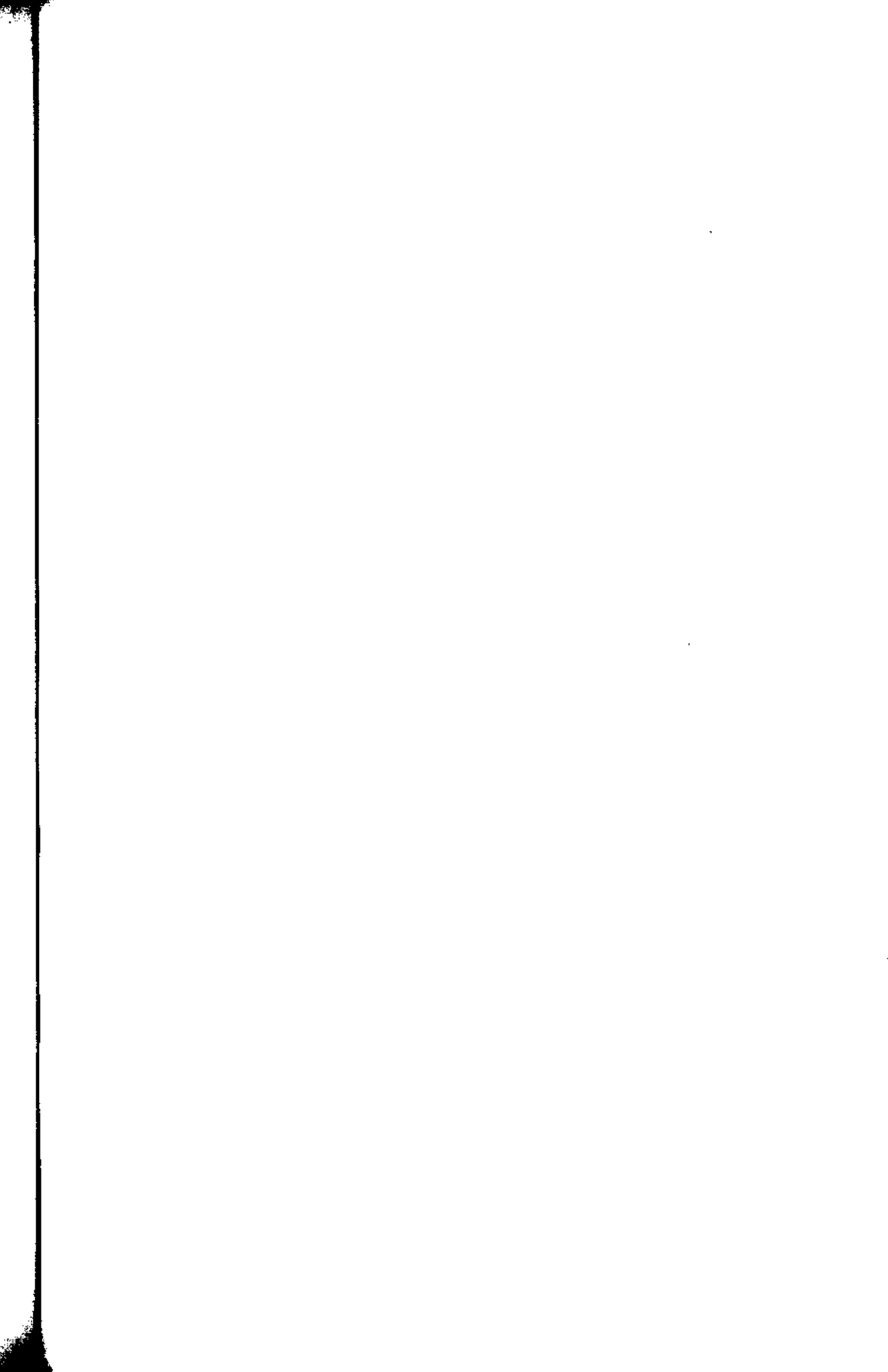
- إن الحب والمال هما العنصران الأساسيان في الحياة... فلا حب بلا مال، ولا مال بلا حب... فأنا مثلاً لدي من المال الشيء الكثير ولكني ما زلت أسعى وراء الحب، إن الذهب الذي بين يدي حائر يفتش عمن يتهاوى على قدميها.

وهنا لم يسع نقاء إلا أن تنهض سواء أجاء الساقي أو لم يجيء، فانتفضت واقفة وهي تقول:

ـ إنك على خطأ فظيع، فإن المال الذي تضعه أنت قبل كل شيء وفوق كل شيء، ما هو في الواقع غير خديعة وسراب قد يتلاشى في لمحة عين، فلا يخلف وراءه غير الحسرة والندم... ولكن الشيء الوحيد الذي هو فوق كل شيء وقبل كل شيء هو الكرامة... نعم كرامة الانسان... ولا تكتسب هذه عن طريق مال أو ثروة... ومن يفلس منها فقد أفلس من كل شيء...

قالت نقاء هذا وأخذت طريقها نحو الخروج... ولم ييأس محمود بل زاده هذا اللقاء رغبة واندفاعاً، وتمتم قائلاً وهو يراها تبتعد عنه: حقاً أنها لعنيدة ماكرة، ولكني سوف أعرف كيف أكشفها على حقيقتها... ثم نهض وتوجه نحو الخارج وقرب سيارته نحو باب المنتزه، ثم ترجل منها ووقف إلى جوارها وعيناه شاخصتان إلى الباب... فقد كان يعلم أن نقاء لم تخرج بعد وقد رآها تدفع ثمن العصير، ثم خرجت فتقدم نحوها خطوات، ولكنها تجاهلته واتجهت إلى الناحية الأخرى، وكاد أن يناديها ليعرض عليها إرجاعها إلى البيت، ولكن شيئاً ما في مشيتها وتجاهلها له منعه من أن يقوم بأي عمل صبياني... فتراجع نحو سيارته وهو يقول: أنها رأت السيارة ولا ريب، وسوف يأتي اليوم الذي تطلب

هي فيه أن تستقلها إلى جواري، أما الآن فإن عليَّ أن أتبعها لأعرف بيتها الذي تسكن فيه. وكانت نقاء قد توجهت إلى «الأمانة» واستقلتها، وأسرع محمود بسيارته خلف السيارة التي كانت فيها نقاء، وحرص جداً أن لا يفوته تعقبها من بين باقي السيارات، وفي أحد الشوارع وقفت السيارة التي كان يتبعها ونزلت منها نقاء فدلفت إلى أحد البيوت، فأوقف محمود سيارته، ونزل ليرى رقم البيت حتى يسهل التعرف عليه فيما بعد، ولكنه فوجيء بلوحة تحمل إسم إحدى الخياطات الشهيرات، فعلم أنها زبون لهذه الخياطة، فشعر بالخيبة ولم يسعه إلا أن يعود بسيارته من حيث أتى، وقد كانت نقاء قد خمنت ذلك، ولهذا لم تشأ أن تذهب إلى البيت لئلا يتبعها هذا الرجل الفضولي إلى هناك.



الفصل السادس عشر

رجعت نقاء إلى البيت، وكان في انتظارها هناك رسالة من إبراهيم، أنستها الرجل المتطفل، وكل ما يدور حوله، وأمضت في قراءتها وقتاً طويلاً... فهي كالعادة رسالة مسهبة تشرح كل شيء، وتتناول كل موضوع... وأحست نقاء أن إبراهيماً لا يزال قريباً منها، فهي لم تفتقد روحه ولم تنقطع عن أفكاره، فهذه رسائله الأسبوعية تنبض بالحياة وتصل بين قلبيهما وفكريهما، ولا تدع لعامل من عوامل الفراق أن يقطع هذه الصلة الروحية... وفي المساء سهرت نقاء مع كتابة رسالة لإبراهيم، ولم تنته منها إلا في ساعة متأخرة من الليل، فآوت إلى فراشها وهي تحس بمتعة ونشاط، وكأنها عادت من سهرة كانت تضمها مع إبراهيم... وكان يلذ لها كثيراً أن تجلس في نهاية كل أسبوع لتحدث إبراهيم في رسالتها عن أسبوعها المنصرم وكل ما جد في حياتها خلاله. وفي الصباح ذهبت بنفسها لابراد الرسالة، فقد كانت تحرص على انجاز هذه المهمة بنفسها في كل أسبوع، وفي أحد الأسابيع توجهت إلى البريد لتبرد رسالتها الأسبوعية، وفي طريق عودتها عرجت

على المنتزه، فقد كان اليوم صحواً والشمس دافئة نقية، ودخلت المتنزه فلاحظت أنه يكاد أن يكون خالياً من الرواد لولا بعض المتنزهين توزعوا في أنحائه البعيدة، ولذلك فلم تشأ نقاء أن تذهب إلى ركن منعزل، فقد كان هدوء المنتزه يوحي بالوحشة، وفكرت في أن تعود من حيث أتت، ولكنها فطنت أن ذلك سيبدو منها حركة غريبة بعد أن لاحظ دخولها الجالسون، فجلست وهي تشعر بقلق وحيرة ولم تكن تحمل معها كتاباً في هذه المرة، وجاء الساقي ليسألها عن طلبها فلم تر بدأ من أن تطلب إليه زجاجة من العصير، وصممت على أن تترك المنتزه قبل أن تشربه، ولكن بعد دفع ثمنه، وفي تلك اللحظة سمعت وراءها صوتاً يقول:

ـ يا لها من فرصة سعيدة جمعتني بك مرة أخرى.

وكان صاحب الصوت يتقدم حتى واجهها، فرأت إنه ذلك الرجل الفضولي الذي تطفل عليها في المرة السابقة، فسرت رعدة خفيفة في عروقها وهزت رأسها قائلة:

ـ لعلك غلطان يا سيدي، ثم أدارت وجهها عنه.

فقد رأت أفضل طريقة لازاحة هذا الرجل هو تجاهله التام، ولكنه اتخذ له مجلساً بالقرب منها وضحك وهو يقول:

ـ لا أظن ذاكرتك ضعيفة إلى هدا الحد، أما أنا قد انطبعت صورتك على شغاف قلبي منذ النظرة الأولى، وها أنا

مستعد لبذل روحي وثروتي التي تعد بالملايين في سبيل نظرة واحدة منك يا آنسة!.

فانتفضت نقاء غضباً، وهمت أن تقوم فتنصرف دون أن ترد عليه، ولكنها خشيت أن يظن فيها الضعف أو ينسب فرارها إلى الخوف فيشجعه ذلك على التعرض لها فيما بعد، فتمالكت نفسها وقالت:

ـ الآن ذكرتك يا رجل! فإن نغمة المادة التي تشع على كلامك تميزك عن غيرك من الرجال.

ورأى محمود أن الفرصة مواتية لكي يسترسل في بيان مقدار ثروته فقال:

ـ نعم، أنا أقرك على هذا... فقد انصبغت كلماتي بصبغة المال.. فالثروة إذا تكاثرت بدت علاماتها واضحة على جميع تصرفات صاحبها.

وودت نقاء لو ضحكت على هذا الرجل المسكين الذي لا يملك شيئاً غير المال، والذي يعني أن المال هو أقوى سلاح، ولكنها لم تشأ أن تضحك أمام هذا الرجل الفضولي، حتى ولا ضحكة استهزاء، وشعرت أن لديها ما تقوله قبل أن تقوم، وشعرت أيضاً أن عليها أن تقول ذلك لتفهمه أن بين بنات الاسلام من لا يغرها المال، ولا تخدعها الثروة، ولهذا فقد أجابته قائلة:

ـ من المؤسف حقاً أن يصطبغ الانسان بطابع الثروة، وأن تبدو عليه دلائلها في جميع أحواله وتصرفاته، لأن ذلك لا يتم إلا إذا اقفرت شخصيته من جميع العلامات الأخرى.

ـ إن المال الذي يلبس شخصية صاحبه أي لبوس شاء، ويبرزه بأي شكل رغب.

ـ أبداً فإن المال لا يتمكن أن يخلع على صاحبه أي إطار، اللهم سوى إطار الاناقة، وهذا هو أتفه شيء بالنسبة إلى الرجال.

وبحركة لا اختيارية رفع محمود يده نحو شعره الذي كان مصففاً بأحدث طريقة، وكانت خصلات منه تتدلى على جبينه، وقد دهنت وصبغت، في الوقت الذي كان شعره الباقي يقرب من السواد، وكأن كلمات نقاء عن إناقة الرجال وميوعتهم قد أثرت عليه دون أن يشعر.. وأحست نقاء بحركته هذه، فاسترسلت تقول:

ـ إن الكرامة مجردة قد تجر إلى الثروة، والاستقامة وحدها يمكن أن تأتي بالثروة، والشخصية القوية بمفردها ربما ساقت صاحبها إلى المال، ولكن المال وحده لا يتمكن أن يأتي بأي ميزة من هذه الميزات.

واستغرب محمود لهجة نقاء الصادقة، وكلماتها المركزة، وعجب أن يبلغ الرياء بهذه الفتاة هذا المبلغ، وتردد لحظة قبل أن يرد قائلا:

ـ أنت تتحدثين بأسلوب غريب لا ينطبق وشخصيتك.

وهنا تلكأ محمود قبل أن يردف كلمة شخصيتك بكلمة الفاتنة، ولم يستطع أن يفهم سبباً لهذا التردد، وهو يحدث فتاة معروضة للمساومة حسب ما كان يعتقد. . . وكادت نقاء أن تنهض بعد هذا الجواب، ولكن دافعاً خفياً كان يشدها إلى الجلوس ويدعوها إلى أن ترد على هذا الرجل وتجعله يقف بجرأته عند حد. . فردت عليه بنفس لهجتها التهكمية قائلة:

ـ أنا لا أتحدث بأي أسلوب غريب، وليس في كلماتي أي معنى جديد، وإنما أنت هو الذي يتحدث بأسلوب غريب عن الرجولة، بعيد عن العزة والكرامه، ولا أدري ما الذي يدعوني إلى الرد عليك وكلماتك لا تستحق عندي أي رد أو تعليق، ولكن العاطفة الانسانية هي التي دفعت بي إلى أن انبهك من غفلتك، فاعلم يا سيدي، أن الشخص الذي يركز حياته ويبني نجاحه على المال وحده ويعقد مستقبله على تأثير الثروة والغنى يكون ضائعاً لا محالة، فإن المواد الأرضية معرضة للفناء مهما عزت وغلت، فلا تظن بعد الآن أنك بما تملك من ثروة تستطيع أن تتطفل على من تشاء وتستحوذ على من تريد. . . أنت واقع تحت تأثير مفهوم خاطىء، بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع.

وما أن أتمت كلماتها هذه حتى وقفت واتجهت نحو باب

الخروج، وخلفت محمود وراءهـا، وقد أخـذ بهذا السلوك الغريب من هذه التي كان يحسبها غانية لعوباً.

الفصل السابع عشر

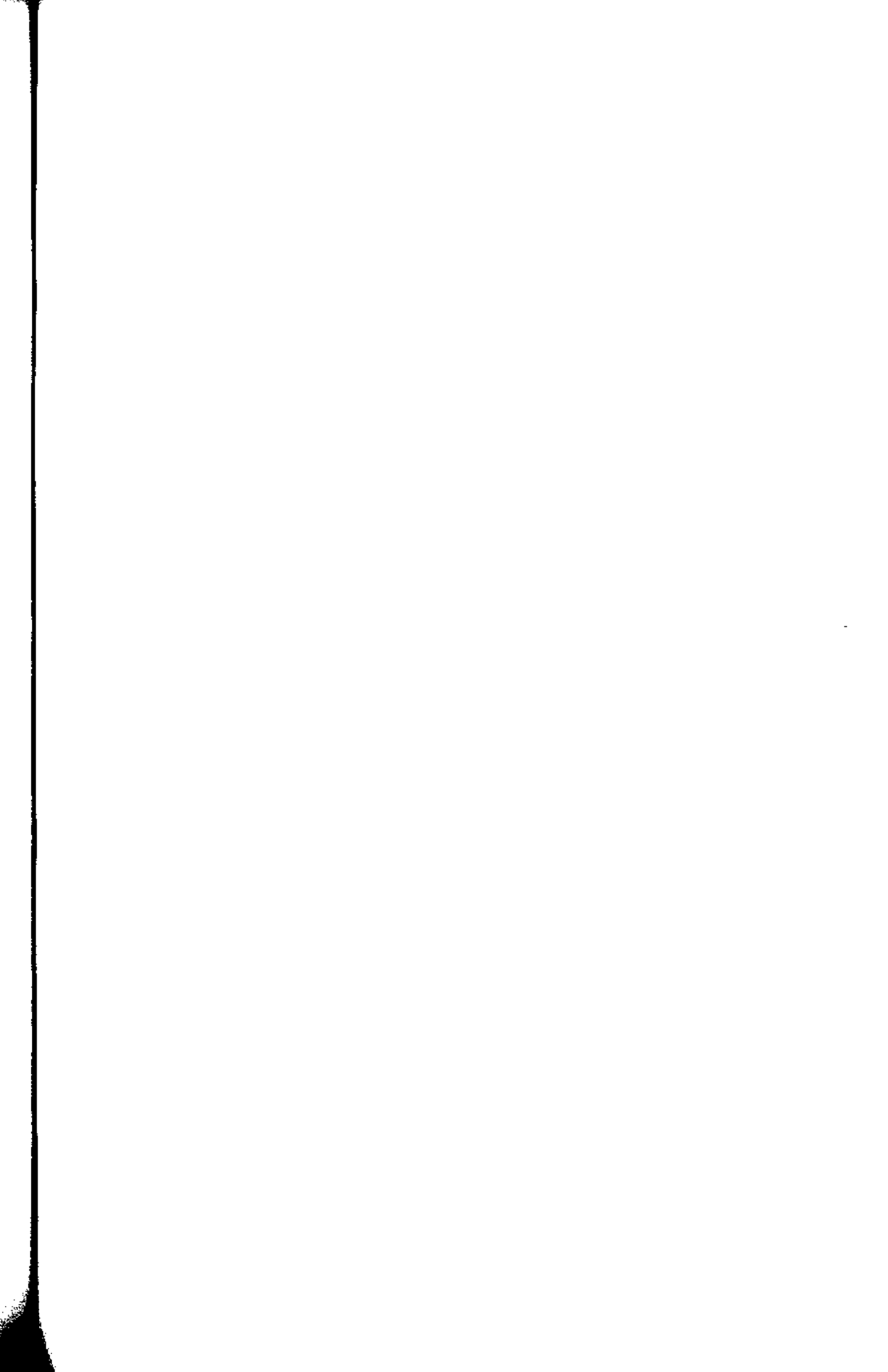
أما سعاد فقد كانت تود لو استطلعت من محمود نتيجة فعالياته... ولكنها لم تجرأ على ذلك، لا لشيء ولكن لكي لا تلقي في قلب محمود الشك من إرشاده إلى هذه الفتاة، فقد كان عليها أن تتجاهل أن كلامها كان له أي تأثير على محمود، والشيء الذي لاحظته أن محمود لم يكن يؤم البيت إلا ساعة أو ساعتين في النهار وعرفت أو أوقاته موزعة بين المنتزه وحدائق الغوطة، وكان منظر سنية وهي غضبى مقطبة أكبر تسلية لها على تصور محمود، وهو واقع في حبائل نقاء... فقد كانت سنية تعيش في هم مقيم، بعد أن انشغل عنها محمود، وانصرف إلى ملاحقة نقاء... وفي مرة عاد محمود إلى البيت فلاحظت عليه سعاد أنه حائر مشوش الفكر، وأنه كثيراً ما يشرد بين آونة وأخرى فشاع الاضطراب في نفس سعاد، وخشيت أن يكون محمود قد فشل في محاولاته أو ضعف أمام عناد نقاء، ولكنها لم تتوصل إلى طريقة تمكنها من فهم الواقع، وبعد كثرة تردد قررت أن تذهب لزيارة نقاء، فاتصلت بها تلفونياً واستوثقت من عدم وجود زوار

لـديها ثم استقلت سيـارتها إلى بيت نقـاء ولم تخرج نقـاء لاستقبالها، بل كلفت الخادمـة أن تقودهـا إلى الصالـون، وأخبرت أمها بعزم سعاد على المجيء وطلبت منها أن تحضر، ولكن أمها لم تتمكن أن تجلس مع سعاد أكثر من دقائق، واعتذرت بكونها محمومة ويلزم عليها أن تذهب إلى غرفتها لتستريح، وفوجئت نقاء بعزم أمها على الذهاب إلى غرفتها، وحاولت أن تثنيها عن ذلك، ولكن أمها كانت تظن أنها بحركتها هذه سوف تغضب سعاد وتظهرها على نقمتها عليها وعدم اهتمامها بوجـودها... وسـر سعاد خـروج خالتهـا وانفرادها بنقاء، وارتبكت نقاء وحارت ماذا تفعل إذا عادت سعاد إلى كلامها المعهود وهي لا تطيق ذلك مطلقاً. فهي تخشى أن تصدر عنها كلمات تسيء فيها إلى سعاد، ولهذا فقد بدا الارتباك واضحاً عليها.. ولاحظت سعاد علائم الاضطراب التي ظهرت على نقاء، فعللت ذلك بتعليل آخر هو أبعد ما يكون عن الواقع... فبـدأت تتحدث وكـان حـديثها يـدور حول أذواق الـرجال في الجمـال، وكلمات الاعجاب التي سبق أن سمعتها من المعجبين... وكيف أن كثيراً من الرجال كانوا يلاحقونها بالمدح والاطراء أينما سارت وأي مكان حلت فيه...

وكانت سعاد تقصد من ذكرها لهذه الحوادث استدراج نقاء لذكر حوادث مماثلة عسى أن تتوصل إلى معرفة شيء عن موقف محمود معهـا، ولكن نقاء لم تكن ممن يجـرفهن

الحديث، فهي لم تعلق على أحاديث سعاد بأي شيء. . .
ولهذا فقد انصرفت عنها سعاد وهي على ثقة من أن محمود قد تمكن من التغرير بنقاء، وإلا لكانت حدثتها عنه وعن مغازلته لها. . وحدثت سعاد نفسها قائلة: إن نجاح محمود قد أصبح عندي أرجح من فشله، فليس من المعقول أن تقاوم هذه الفتاة الصغيرة إغراء محمود وترفض ثروته وملايينه.

وفي البيت افتقدت سعاد خادمتها سنية، وكانت تفتقدها كثيراً في الأيام الأخيرة، وخمنت أنها في سبيلها إلى التجسس على محمود والتعرف على فاتنته الجديدة. . . والواقع أن سنية كانت تتعقب سيدها في أغلب الأيام لترى غريمتها التي سلبته لبه، وقد شاهدته في أحد الأيام يتحدث مع نقاء، ولكنها لم تصدق أن هذه الفتاة المحتشمة الوقور هي التي أغرت سيدها وسحرته. . وظنت أن جلوسه معها مجرد مصادفة. ولهذا فقد استمرت تتعقبه وتتجسس عليه..



الفصل الثامن عشر

كانت رسائل إبراهيم لا تفتأ تصل إلى نقاء في نهاية كل أسبوع، وكانت جميع رسائله تحمل معها الأمل في إسراعه بالعودة وتقليص مدة الفراق.. وكانت نقاء قد تجنبت الذهاب إلى المنتزه بعد تكرر مصادفة محمود هناك، ولكنها في أحد الأيام أحست بحاجتها إلى الترفيه والتنزه، فقصدت إلى حدائق الغوطة وهي على اطمئنان من أنها ستكون في منجاة من تطفل ذاك الرجل الفضولي هناك، فلا بد أنه من رواد ذاك المنتزه بالخصوص، وفي الحدائق لفت نظرها منظر امرأة شابة، مهلهلة الثياب، بادية الشحوب، ذابلة الأجفان، وهي تحمل على يدها طفلاً لا تكاد ملابسه الممزقة تستر جسمه الهزيل، وكان منظر هذه المرأة يجسد البؤس والفاقة في أجلى مظاهرهما، وهي تدور على الجالسين تستدر عطفهم ليجودوا عليها ببعض النقود... وعندما لاحظت نقاء أنها تتقدم نحوها سارعت إلى فتح حقيبتها لتخرج منها ما تعطيه لهذه المسكينة قبل أن تسأل منها ذلك، وأخرجت منها بضع دراهم وهي على عجل وارتباك، فقد أثر عليها منظر تلك المنكودة

ومدت إليها يدها بالمال، وأشاعت هذه البادرة من نقاء الغبطة على وجه المرأة المسكينة ورفعت رأسها إلى السماء وكأنها تدعو لنقاء، ثم تركتها لتكمل دورتها في أنحاء الحديقة. وأطرقت نقاء برأسها وهي تفكر في البؤس الذي كان يشمل هذه الأم المنكودة، ولكنها انتبهت من إطراقتها على صوت رجل يقول:

ـ كم أنت كريمة يا انسة؟ هل كانت هذه البائسة تستحق أكثر من بضعة قروش؟!.

فاستدارت نحو الصوت لترى محمود... وأفزعها أن يكون هذا الرجل قد لاحقها إلى هناك.. وعلت وجهها صفرة باهتة ولأول مرة شعرت بالخوف، فقد كانت تعلل لقاءه لها في المنتزه بمجرد مصادفة، ولكن الآن... وتلفتت حولها كأنها تريد أن تستنجد بأحد.. ولكنها اطمأنت إلى حد ما.. حينما رأت أن الحديقة مليئة بالرواد وإنها ليست وحدها أمام هذا الملحاح... فانتفضت واقفة وقالت بصوت قوي لثقتها بنفسها:

ـ أما احتفظت بنصيحتك لنفسك، وهلّا عرفت أنك تتطفل بأسلوب رخيص؟!

وهنا صمم محمود أن يخرج من التلميح إلى التصريح، وأن ينهي هذه المناورات المملة، فقد أعياه التردد والشك، فقال:

ـ أنا لا أتطفل مطلقاً، وإنما أنا في الواقع. . .

وأراد أن يقول: «أساوم»، ولكن نظرات نقاء الملتهبة منعته من إتمام جملته، فردد قائلاً:

ـ في الواقع. . . في الواقع. . .

فصاحت به نقاء قائلة:

ـ إذاً فماذا تسمي فضولك هذا يا رجل؟ أنت رجل غريب لا أعرف عنك حتى اسمك. . . فكيف تسمح لنفسك أن تتدخل في شؤوني الخاصة؟!.

ـ ولكني. . . أعرف. . .

ومرة أخرى لم يستطع أن يكمل جملته، فقد كان ينوي أن يقول: لكني أعرف عنك كل شيء. . . ولكن منظر نقاء وهي في ثورتها تلك، جعلته لا يجرؤ على التصريح، فسكت أيضاً. . . وأحست نقاء أن عليها أن لا تدع هذا الرجل قبل أن تلقنه درساً لا ينساه، فصرخت به قائلة:

ـ ما لك لا تستطيع أن تتكلم؟ أو ليس المال قادراً أن يطلق عقدة لسانك؟! الويل لك من الدرك الذي أنزلك المال إليه. . . ارجع إلى نفسك، وانقذها قبل فوات الأوان، فلعل هناك في صميم روحك نقطة من خير. حاول أن تنحي بريق الذهب من أمام عينيك، لترى الحياة الحرة الشريفة كيف تكون. . .

فخفض محمود رأسه وقال:

ـ أنا مستعد لتحقيق جميع شروطك وإنجاز كل رغباتك، فإن ثروتي تفوق ثروات الآخرين بمراتب. . .

وصعقت نقاء لهذه الكلمات، ولم يسعها إلا أن تصرخ فيه:

ـ يا لك من رجل. . مع من تظن أنك تتكلم؟ وأي فكرة شيطانية أوحت إليك بذلك؟ كنت آمل في إصلاحك أول الأمر، أما الآن فإنك لست أهلاً للاصلاح، فاذهب إلى حيث يقودك شيطانك، ولكن شخص طريقك جيداً بعد الآن، وفي المرات اللاحقة، فوربي لولا هذه المسكينة التي أرى خاتم خطوبتها حول أصبعك لسلمتك الآن إلى أيدي الشرطة، ولكن تلك المسكينة ما ذنبها إذا كان زوجها أحد ذئاب البشر!! ولهذا فأنا لا أريد أن أسبب لها فضيحة. . .

وتهدج صوت نقاءفلم تستطع أن تتكلم أكثر من ذلك، فاستدارت، وتوجهت نحو باب الخروج.

أما محمود فقد غير مجلسه وجلس في الطرف الآخر من الحديقة، ولكنه لاحظ أن المرأة المنكودة التي كانت تستعطي قد توقفت قليلاً أمام الكرسي الذي كانت تجلس عليه نقاء، ثم انحنت والتقطت شيئاً من الأرض وأخفته في قبضة يدها، فرأى أن الفرصة قد واتته للاحتكاك بنقاء مرة أخرى. نهض

من مجلسه نحو المرأة المسكينة وهو يصرخ فيها قائلاً:

ـ دعي ما أخذتيه يا سارقة.

وحاولت المسكينة أن تفر، ولكن صوت محمود كان قد جمع حولها جمعاً من الناس، وفتح محمود يدها عنوة ليجد فيها قرطاً من الماس الثمين، فالتفت الساقي وهو يقول:

ـ إسرع باستدعاء الانسة التي كانت تجلس هناك، فإن هذا القرط يعود إليها بلا شك.

وأسرع الساقي لاستدعاء نقاء، فجاءت لترى المرأة المنكودة وقد أحيطت بعشرات من الناس وهم يوزعون عليها الشتائم والسباب ويحاولون أخذها إلى مركز الشرطة، واتجهت نظرات المرأة المسكينة نحو نقاء، وهي تعلم أن القرط يعود إليها، ولذلك فقد قرأت نقاء في نظراتها معنى الاسترحام والخوف والاستعطاف، وكانت المنكودة ترتعد كريشة في مهب الريح، حتى أنها لم تعد تتمكن من إمساك طفلها، فتعلق بعنقها وهو يضج بالبكاء، فتساءلت نقاء: ما الخبر؟... فارتفعت الأصوات وهي تردد: إنها سارقة، سرقت قرطك الماسي. فتقدمت نقاء نحو المرأة، وكانت لا تزال متمسكة بالقرط في قبضة يدها، فأمسكت بيدها في لطف وقالت بنغمة عذبة رقيقة:

ـ أريني القرط يا أختاه.

ولم يسع المرأة أن تمتع أمام لهجة نقاء العاطفية ففتحت يدها وألقت نظرة على القرط ثم رفعت رأسها وقالت:

ـ إنه كان قرطي ولكني أعطيته لها، فهي ليست سارقة أبداً.

فظهرت علامات الدهشة على المجتمعين. وكانت يد المرأة المسكينة لا تزال مفتوحة وفيها أحد القرطين، فعادت نقاء وأطبقت يدها على القرط وقالت:

ـ إنه ملكك يا اختاه، فتعالي واخرجي من الحديقة.

فتهاوت المسكينة على أقدام نقاء تريد أن تبللها بدموع الندم والشكر، ولكن نقاء أنهضتها وهي تقول:

ـ قومي يا اختاه، أنا لم أقم إلا بأقل الواجب، لم يكن لدي ما أقدمه لك فقدمت قرطي، هيا واتركي المحل يا اختاه.

ثم أخذت بيدها وجرتها نحو الباب، والجميع يتابعونها بنظرات الاستغراب.

أما محمود فقد تبعها بنفسه، وهو لا يكاد يصدق ما رآه، وفي خارج الحديثة أبصر نقاء تجر المرأة المسكينة إلى ركن في الشارع، وتخرج القرط الثاني من حقيبتها وتقدمه لها، وهي تتكلم بكلام لم يتمكن أن يسمعه، ولكنه رأى ابتسامة ملائكية كانت تلوح على وجه نقاء وهي تفعل ذلك، ثم

رآها تهز يد المرأة مصافحة قبل أن تستقل «الأمانة». . . وذهل محمود وكاد يظن أنه في حلم، فهو لا يصدق أن فتاة تعرض نفسها للمساومة، تقف هذا الموقف النبيل، وإن المرأة التي تتصيد المال تتنازل عن قرطيها الماسيين بهذه السهولة وبدافع من الرحمة.

واستقل سيارته وهو غارق في خضم الأفكار، وكانت أفكاره مشوشة مختلطة، وفي البيت أغلق عليه باب غرفته لكي لا يكدر تفكيره أحد، وأخذ يراجع تصرفات نقاء ويستعيد كلماتها وعباراتها ويتمثل لهجتها الصادقة وأسلوبها الواضح المستقيم، وتذكر نظراتها النارية وصوتها المتهدج. . . ولم يسعه بعد ذلك إلا أن يعترف بأن هذه أمور لا يمكن أن تكون مصطنعة أو مزيفة، ولا بد أن يكون قد وقع هو نفسه في خطأ فظيع. . .

ولم يتمكن محمود أن يصرف فكره عن حادثة القرط، فقد قلبت هذه الحادثة مفاهيمه، وفتحت أمامه آفاقاً جديدة لم يكن يعرفها أو يعترف بوجودها أيضاً. . . وشعر أن في الحياة معان سامية كانت خافية عليه. . وإن في هذه المعاني روعة لا متناهية، تفوق جميع ما صادفه في حياته من روائع مصطنعة وأحس بالوضاعة وهو يتمثل موقفه من الفتاة، وهو يحشو كلماته الجوفاء بذكر الثروة والمال، في الوقت الذي لا يهمها فيه أن تتنازل عن قرطيها الماسيين في سبيل التستر على امرأة

فقيرة منكودة، وتذكر الابتسامة الملائكية التي كانت مطبوعة على وجهها وهي تسلم القرط الثاني... فردد يحدث نفسه قائلاً: حقاً لست أنا غير رجل تافه في الحياة... ما أحلى أن يشعر الانسان بشعور الخير، ويحس بلذة عمل المعروف...
فهو لم يكن يظن قبل الآن أن لأمثال هذه الفتاة وجوداً واقعياً، كان يعتقد أن الخير والفضيلة ليس لهما وجود إلا في أذهان المفكرين... وليست سوى مفاهيم خيالية لا يمكن لها أن تظهر إلى حيز الوجود...

الفصل التاسع عشر

عادت نقاء إلى البيت ولم تشأ أن تحدث أمها عن حادثة القرط، لئلا تأسف على ذلك، ولكنها كتبت عن الحادثة بإسهاب في رسالتها الأسبوعية إلى إبراهيم. وجاء جواب إبراهيم مليئاً بالمدح والتشجيع، وقد ذكر في آخر رسالته: أنه سوف يبتاع لها قرطاً أثمن منه... ومضت أسابيع ثلاثة كانت كفيلة بطمس معالم حادثة القرط والرجل الفضولي من ذهن نقاء، ولم تكن سعاد قد اتصلت بها خلال هذه الأسابيع...

وفي أحد الأيام اقترح والد نقاء على ابنته أن تصحبه إلى أحد المنتزهات، فلم تر بداً من إجابة طلبه، ولم يهمها تعيين المكان الذي يذهبان إليه ما دامت مع أبيها، وقد اختار منتزه الجمهورية فوافقته على ذلك، ولكنها عندما دخلت المنتزه رأت أن عليها أن تنفرد عن أبيها، فقد كان المنتزه يعج بالرواد، وقد صادف أبوها كثيراً من أصدقائه وأصحابه، ولم تشأ أن تفصل أباها عن أصدقائه، فاعتذرت منه، وذهبت إلى ركن منعزل، ولكنها أحست بوحشة، لانفرادها هناك على خلاف

عادتها، فقد بعثت حادثة ذلك الرجل المتطفل الـرعب في قلبها وجعلتها لا تطمئن إلى الانفراد، ولذلك فقد صممت على أن تنهض من مجلسها المنعزل وتتخذ لها مجلساً هو أقرب للمجتمع من هذا المجلس النائي، وفعلاً فقد نهضت واتجهت نحو قلب المنتزه، غير أن صوتاً خافتاً تردد في أذنيها قائلاً:

ـ من فضلك يا سيدتي كلمة واحدة لا غير..

ولم تتمكن نقاء أن تعرف صاحب الصوت، فتوقفت عن السير والتفتت لترى من الذي يخاطبها، فأبصرت محمود وهو واقف على بعد أمتار منها فاستدارت بعنف ولم ترد عليه ولكن صوته لاحقها متوسلاً:

ـ كلمة واحدة يا سيدتي! أنا آسف جداً.. من فضلك لحظة واحدة...

واستمرت نقاء تسير دون أن تلتفت إليه، ولكنها شعرت أنه يتبعها وهو يردد:

ـ أنك ملاك طاهر يا سيدتي، فلا تغلقي طريق الخير من أمامي... لا تتجاهليني لكي لا يخفت بصيص النور الذي أشرق على جنبات روحي.. كلمة واحدة لا غير...

فرأت نقاء أن عليها أن تقف، فمحدثها مندفع وراءها لا يـريم وهي لا تريـد أن تجره إلى حـ ـ مجلس أبـوهـا وأصحابه... فتوقفت والتفتت نحو قائلة:

ـ يا لك من ملحاح. . .

ولكنها لم تكد تراه حتى استغربت منه علامات الندم التي كانت تلوح عليه. . . كما أنها كانت قد استغربت عباراته المهذبة. . . فردد محمود قائلاً:

ـ أنا آسف يا سيدتي. . . فقد أوقعوني في غلطة لن أغفرها لنفسي أبد الدهر، أنت لا تعلمين الآلام التي قاسيتها. . وكان أملي كله منوطاً برؤيتك وطلب العفو منك، فهل تمنين عليَّ بذلك؟.

وتفحصته نقاء بعقلها ملياً ورأت دلائل الصدق واضحة على قسمات وجهه فردت عليه قائلة:

ـ أما بالنسبة لي فقد غفرت لك يا سيدي فأنا لا أغضب على أمثالك من الرجال. . . ولكن أرثي لهم من صميم قلبي، والرثاء لا يوجب النقمة ولكن. . .

ـ ولكن ماذا؟ قولي بالله عليك كلمة أخرى مهما كانت. . . فأنا على استعداد لسماع كل شيء.

ـ أقصد أنك يجب أن تطلب العفو من ربك أولاً، ومن روحك ثانياً. . فالروح عنصر طاهر كان يمكن لها أن تكون في أهاب تسمو فيه على الملايين من البشر، ولكنك ظلمتها وأسرتها بين جدران جسمك الذي لم يجلب لها سوى العار، فالروح لا يهمها المال ولا تعنيها الثروة ولا تهوى غير العزة

والكرامة... هذه هي روحك التي لم تتجه نحوها بعد، فقد ألهاك الجسد الفاني عنها وغرك المال المتلاشي عن إجابة طلباتها، ولهذا فإن عليك أولاً أن تتجه إلى روحك فترضيها وتستغفر منها كل ما مضى... عند ذاك فقط سوف تشعر براحة التوبة... ثم ما الذي دعاك إلى الندم؟.

ـ الندم... فقد رأيتك في ذلك اليوم وأنت تتنازلين عن قرطيك الماسيين لا لشيء إلا للستر على المرأة المسكينة، وبدافع من الرحمة والاحسان، فما شككت يومها أنك ملاك طاهر في صورة انسان.

وتذكرت نقاء حادثة القرط فابتسمت وقالت:

ـ لم يكن الأمر مهماً إلى هذا الحد، فقد كان من واجبي كامرأة وكمسلمة وكبشر أن أفعل ذلك.

وجمدت عينا محمود على فم نقاء وهي تتكلم، ثم شعر أنها في سبيلها للانصراف... فعز عليه ذلك وود لو استمرت تتكلم واستمر هو يستمع فقال:

ـ أنا أجهل طريقي إلى روحي فلم يسبق لي أن توصلت إليها من قريب أو بعيد، فقد أعمتني سطوة الجسد عن كل شيء!.

ـ أنه طريق واضح لا يكلفك سوى تجاهل سلطان المال والجسد عليك.

ـ أنت ترينه واضحاً بلا ريب، ولكني أنا الذي لم أعرف طيلة حياتي سوى إطاره، أنّى لي أن أتعرف إلى الروح، وأن أصل إلى واقعها في الحياة!.

ـ أنت تشعرني بأنك لست بعيداً عن الحقيقة... البعد الذي تتخيله أنت، راجع نفسك مرة أخرى لترى أنك قريب منها وقريب جداً...

ـ وكيف لي أن اراجع نفسي وقد طمستها يد النزوات والهفوات؟!..

ـ النزوات مهما كانت لا تتعدى أن تكون نزوة عابرة، والهفوات وإن عظمت ما هي إلا أحداث مندثرة ولكن روحك لا تطمس ولا تختفي أبداً.

ـ إذن أنت تظنين أن من الممكن إصلاح نفسي وتهذيبها.

ـ طبعاً وبسهولة جداً، فإن عوامل الشر عوامل سطحية ولكن عوامل الخير ثابتة راسخة في الأعماق.

ـ هذا إذا كانت عوامل الخير موجودة لدي...

ـ إن لكل انسان عوامل خير وعوامل شر، والشخص هو الذي يظهر إحدى العوامل ويخفي الأخرى، ولهذا فهو يتمكن إذا أراد أن يرجع إلى أعماقه ليبرز العوامل الأخرى إلى حيز

الوجود، فقد اتفق أن انقلب الفاسق قديساً، والقديس فاسقاً.

ـ أحقاً يمكن ذلك؟!

ـ أنا واثقة من إمكان ذلك بالنسبة اليك، فحاول لترى أنك لن تعجز عنه مطلقاً.

ـ وكيف أحاول ذلك؟ أنا ضائع في خضم الأخطاء!.

وهنا أحست نقاء بأن وقوفها قد طال أكثر مما ينبغي... ولكن دافع الخير كان يدعوها أن لا تترك هذا الرجل الذي يقف على عتبات التوبة. وترددت لحظة بين الواجب الديني والآداب الاجتماعية، ولكن صوت محدثها كان يصلها قائلا في تضرع:

نعم أنا ضائع في خضم الخطايا ولست أرى طريقي منها فهل لك أن ترشديني إليه؟..

وتغلب على نقاء واجبها الديني، فأسندت ظهرها إلى جذع شجرة وقالت:

ـ إن الأخطاء تمحى بالندم والخطايا تغفر بالتوبة، فأنت إذا راجعت ماضيك واستشعرت الأسف على ما صدر منك ووددت صادقاً لو لم تفعل ما فعلت كنت في مستقبلك وكأنك لم تأت بشيء، فإن التائب النادم يكون كمن ولدته أمه.

ـ ولكن ثروتي تغرني بالانحراف.

ـ أبداً.. فالثروة قد تصبح أداة للاستقامة، وقد تكون وسيلة للخير والصلاح إذا كان لديك ما يساعدها على ذلك من كرامة واستقامة، أنت سوف تستشعر لثروتك بلذة لم تكن تستشعرها من قبل، فثروتك قبل اليوم كانت كل بضاعتك في الحياة، وإذا شعر الانسان أن كيانه متركز على شيء واحد في الحياة، خالط سعادته بذلك الشيء عوامل كثيرة من الحرص والخوف عليه... ولكن الثروة إذا كانت عاملاً ثانوياً وكانت شخصية الانسان متركزة على أشياء أخر غير المال، شعر صاحب المال أن ثروته نعمة اضافية من حقه أن يسعد فيها وينعم.

سكتت نقاء، ولكن محمود استزادها قائلاً:

ـ أنت تتكلمين بأسلوب رائع لم يسبق لي أن سمعته من قبل!.

ـ ولكنك تتمكن أن تسمعه فيما بعد، فالدنيا تزخر بالأساليب الرائعة من الكلام، وبالمعاني السامية في التعبير، أنا لست إلا واحدة من ملايين، وليست كلماتي سوى نغمة من بين آلاف النغمات الطاهرة العذبة.

ـ وأين أتمكن أن أجد بعض هؤلاء؟!.

ـ إنهم في كل مكان، ولا يخلو منهم مكان، ولكنك لم

تكن لتتمكن من التعرف عليهم قبل اليوم، فقد كنت في سكرة تحت سطوة الجسد والمال، فإن عوامل الخير أوفر بكثير من عوامل الشر، والصلاح أقوى في العالم من الفساد.

وردد محمود نفس كلماتها قائلاً:

ـ عوامل الخير أوفر من عوامل الشر، والصلاح أقوى من الفساد.

وأردفت نقاء تقول:

ـ نعم وبكل تأكيد، فما عليك إلا أن تتجه نحوالخيرلترى منبعه الرقراق ومعينه الصافي المتدفق.

وأطرق محمود برأسه وكأنه يفكر، واغتنمت بقاء فرصة سكوته فتحركت وهي تقول:

ـ سوف أتركك إلى روحك، لتحاول أن تفتش فيها عن عوامل الخير المكبوتة، ولي وطيد الأمل في أنك سوف تفعل ذلك بلا ريب، وأما أنا فأستودعك الله.

ورفع محمود رأسه ليرى نقاء وقد استدارت وتوجهت نحو وسط المنتزه فردد قائلاً:

ـ في أمان الله...

الفصل العشرون:

رجع محمود إلى داره وهو يتلذذ بيقظة انسانيته... حقاً أنه كان يشعر بالندم منذ اللقاء الأخير مع نقاء، وحقاً أنه تعذب كثيراً قبل أن يراها ويطلب منها العفو، وحقاً أنه طيلة أسابيع ثلاثة كان منصرفاً عن مجونه وعبثه.. يفكر في الفتاة التي أساء إليها إساءة فظيعة قبل أن يعرف أنها ملاك طاهر وروح عذبة... ولكنه في ذلك اليوم كان يحس بشعور لم يحسه من قبل، وكان يستعيد كلمات نقاء في ذهنه دون أن يتعمد ذلك، وكان كمن أخذ يستيقظ من سبات عميق... وود لو طال به المقام مع نقاء فقد حسبته بأفكارها وآرائها... وأرق في تلك الليلة وهو يقلب في ذهنه ما قالته... ويحاول أن يركز أفكاره عند كل نقطة من كلماتها وألفاظها، وشعر أنه مدين نحو تلك الفتاة بهذا النور الذي أخذ يضيء جنبات روحه، ففتش في جوانب قلبه: هل أنه يعشق تلك الفتاة أو يهواها؟ ولكنه لم يجد للعشق في قلبه اثراً، فالشعور الوحيد الذي يحسه نحوها هو شعور الاكبار والاعجاب فهو يود لو رآها مرات أخرى ولكن لا على حساب

العشق والمتعة، بل لأجل أن يستمد منها قوة وعزيمة...
وصمم على أن يستمر بتردده على المنتزه والحديقة حتى يعود
فيلقاها ثانية.

وفي الصباح لم يبرح محمود غرفته مطلقاً ولم يسمح لأحد
بالدخول عليه، فقد كان يعيش في دوامة من الأفكار
المتضاربة، وقد أخذ يستعيد في فكره جميع مراحل حياته،
ويذكر ما الذي جناه من سلوكه وطريقته في الحياة، وهاله أن
يرى أنه لم يحصل على شيء سوى المال، وحتى المال فلم
يحصل عليه هو بنفسه أيضاً فقد ورثه عن أبيه وها هو قد بدد
نصفه في مدة عشر سنوات، وفكر في حاله بعد عشر سنين،
وبعد أن يبدد جميع أمواله على ملذاته وشهواته، فما الذي
سوف يتبقى لديه... وراح يعدد في ذهنه كل ما قد يجنيه
المرء في الحياة من العزة والكرامة والجاه والذكر الطيب
والصديق الوفي والزوجة المخلصة. وكان جوابه عن كل هذه
الأمور لا شيء، فهو يعلم أن أصدقاءه لن يحاولوا النظر إلى
وجهه إذا أفلس من المال، وإن مكانته في المجتمع قد
انعدمت تماماً، بعد أن اعتزله وسط شلة من المنحرفين، وإن
كرامته قد أريقت على مذبح الشهوات، وحتى زوجته، فهي
لن تقيم معه يوماً واحداً إذا تلاشت ثروته... وهاله أنه
توصل إلى هذه الحقيقة، وآلمه أن تكون سعادته منوطة بالمال
حتى في حياته الزوجية، فهو يعلم أن سعاد لا تحمل له في
قلبها أي عاطفة، ولا يشدها إليه إلا المال... وود لو

استطاع أن يهرب من هذه الأفكار وأن يعود إلى غفلته الأولى التي كان سادراً فيها منذ سنوات، ولكن مفاهيم نقاء وأفكارها كانت مسيطرة عليه بصورة لم تكن تمكنه من الفرار، فهو كان يجهل قبل اليوم أن دنياه التي يعيش فيها تعمر بأمثال هذه الروحيات التي رأى عليها الفتاة، أما الآن وقد وجد أمامه ما كان يظنه مثالياً أو أسطورياً، فما عليه إلا أن يكونه، فالأعمى الذي يرتد إليه بصره، عليه أن يعمل نظره ولا يركن إلى الظلام الذي كان يطبق عينيه من قبل، وعجب أن تكون أفكاراً وليدة في ذهنه تتمكن أن تصارع أفكاراً عاش معها سنوات، ولكنه عاد يقول: أنه منذ الآن بدأ يفكر... أما ماضيه فقد كان خلواً من الفكر، كان سطحياً، لا يستند إلى جذور... وشعر بحاسة ماسة إلى لقاء الفتاة مرة أخرى، فهو يشعر بضيعته وسط مختلف التيارات، وود لو عرف من تكون تلك الفتاة ليقصد بيتها، ويستزيدها من الكلام... وفجأة فكر في سعاد، وفي السبب الذي دعاها أن تخدعه على هذه الصورة، وتدفع به نحو هذه الفتاة الطاهرة، ولم يتمكن أن يفهم لذلك سبباً، أو يأتي بتبرير معقول، سوى أن بعض مشاعر الحقد هي التي دفعتها إلى ذلك، وعجب أن تحقد سعاد على تلك الفتاة وليست هي ممن يعيشون حياتها أو يرتادون مجتمعها، ولكنه عاد ليقول: إن أحقاد سعاد لا تقف عند حد، ولا تقتصر على أشخاص معدودين... ولذ له أن يتخيل سعاد وهي تتحرق شوقاً لفهم النتيجة، ولكنها لا

تتمكن من السؤال، وصمم على أن لا يدعها تتوصل إلى معرفة أي شيء مهما حاولت ذلك، وفعلاً فقد غلف وجهه بغلاف لم تتمكن سعاد أن تصل من ورائه إلى الحقيقة، وحاولت مراراً أن تستدرجه إلى الكلام، ولكنه كان يروغ عن الحديث، وقد أعجبه صموده هذا أمام سعاد، فلم يكن ليعهد بنفسه المقدرة على ذلك من قبل. وآمل أنه سوف يتمكن أن يثبت كيانه الخاص أمامها في الحياة.

الفصل الحادي والعشرون

رجعت نقاء إلى البيت وهي تشعر براحة نفسية، وتحس أنها قد أدت واجبها الديني والأدبي تجاه ذلك الرجل، وفي تلك الليلة كتبت إلى إبراهيم تفصيل الحادث وموقفها من الرجل الغريب، وجاءها الجواب من إبراهيم وكان يمتدح فيه موقفها الشريف الواضح، وقد كتب لها قائلاً: «ألم أقل لك أنك تتمكنين أن تجاهدي يا نقاء! ألم أقل لك أن الجهاد ليس وقفاً على الحروب فقط؟ فامضي في جهادك يا عزيزتي! مكللة بالغار، مجللة بأبراد العفة والفضيلة...» وزاد هذا الجواب ثقة نقاء بنفسها، واطمئنانها إلى سلوكها.

وفي مرة خرجت من البيت، قاصدة زيارة خالة إبراهيم، فقد كانت تكثر من التردد عليها في أيام غيبة إبراهيم. ووصلت نقاء إلى باب الدار وقرعت الجرس مراراً دون أن يرد عليها أحد، واستغربت أن تكون خالتها قد خرجت من الدار وهي لا تخرج إلا لماماً، فانتظرت لحظة ثم أعادت قرع الجرس، وفي هذه المرة سمعت صوت حركة في الداخل، وفي

اللحظة التي كانت تفتح فيها الباب، برزت من جانب الشارع سيارة محمود، ولكن نقاء لم تنتبه لذلك وأسرعت إلى الدخول، أما محمود فقد أبصر بها لأول وهلة وصمم على أن لا يبرح الشارع، حتى تخرج مرة أخرى، سواء كان هذا بيتها أو كانت زائرة فيه، وأطالت نقاء جلوسها هناك، وفي تمام الساعة الثانية عشرة انصرفت من بيت خالتها ووقفت على رصيف الشارع تنتظر سيارة تقلها إلى البيت وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود، وراعها التغير الذي طرأ على هذا الرجل، فقد كان يرتدي بدلة زرقاء غامقة لا يزينها أي شيء وشعره مردوداً إلى الوراء ببساطة، كما أن الخصلات التي كانت تتدلى على جبينه قد اختفت... وتأخرت نقاء خطوات... ولكن محمود قال بصوت هادىء رصين:

ـ عفوك يا سيدتي! إذا كنت قد أزعجتك برؤيتي، لا تظني أني سوف أحاول أن أدعوك إلى الركوب معي في سيارتي، أو أعرض عليك إيصالك إلى البيت، أبداً... لن أقوم بشيء من هذا، فأنا أعلم أنك سوف لن تلوثي طهرك بمصاحبتي... ولكن أريد أن أحدثك فقط...

وأسعد نقاء أن تجد هذا الرجل المغرور المتغطرس الذي لم يكن يتكلم إلا عن الثروة والمال وقد عاد إنساناً مهذباً ينطق صوته عن الصدق والاخلاص، واحتارت ماذا تفعل.. ولم تر بدأ من أن تقول:

ـ وأي حديث تريد أن تحدثني به يا سيدي؟!.

فتردد محمود لحظة ثم أجاب:

ـ أنا أخطأت التعبير، فأنا لا أريد أن أتحدث .. ولكن أريد أن استمع، فقد كان لكلماتك الماضية أعظم الأثر في روحي وفكري. نعم، روحي التي وجدتها أخيراً.

ـ وعلى أي حال وجدت روحك يا سيدي... أي شيء كانت تدعوك إليه؟

ـ إلى الخير والصلاح، والى انتشالي من حضيض الرذيلة وتجنيبي خطر الانحراف.

ـ ألم أقل لك أن روحك خيرة؟... وأنك كنت تظلمها في الماضي.

ـ ليتني أكون على ثقة من ذلك.

ـ إن هذه المشاعر التي تحسها هي الدليل على ذلك.

وبدا وجه محمود وكأنه وجه طالب يؤدي الامتحان لأول مرة، وتردد مدة ثم تمتم قائلاً:

ـ ولكنني ضائع لا محالة...

ـ ولماذا تظن ذلك وتفكر فيه؟! أنت الآن أبعد ما تكون عن الضياع... فأنت منذ الآن موجود كما لم توجد من قبل، إن حياتك الواقعية ابتدأت منذ وقعت على حقيقة روحك بين

مختلف التيارات، أنت لم تكن لتحيا في الواقع من قبل، ولكن أموالك هي التي كانت تحيا وتحييك معها، أما الآن فسوف تحيا أنت لا لتحيا الثروة وتعيش لتتصرف فيها لا تتصرف هي فيك، أنت واقف على أبواب الحياة الواقعية لا الحياة المزيفة الضائعة.

وهنا مرت سيارة «الأمانة» فحاولت نقاء أن تركب فيها ولكن محمود توسل إليها قائلاً:

ـ لا، ليس الآن.. لا زلت أطلب المزيد، أنا بعيد العهد عن الحياة الحرة الكريمة، غريق بمهاوي الضلال والفساد وأخشى أن لا تهبني هذه الكلمات القصار، الصمود الكافي الذي أحتاجه في هذا الصراع.

قرأت نقاء أن عليها أن تجيبه إلى طلبه، وإلا فستكون هي المتجنية عليه فقالت:

ـ أنت الآن قد اتجهت إلى الخير وتطلعت إلى أفق الكمال، فما عليك إلا أن تقرأ الكتب المهذبة للروح والفكر والعقيدة.

ـ أرشديني إليها فأنا لا أعرف عن الكتب والكتّاب شيئاً؟.

فأخذت نقاء تعدُّ له أسماء بعض الكتب، وأرشدته إلى تتبع نتاج بعض الكتاب، وظنت أن مهمتها قد انتهت ولكنه

قال:

ـ ألا يمكن لي أن أعرف من يكون ملاكي الهادي لك أفزع نحوه عند كل مشكلة؟ فحياتي معقدة مليئة بالمشاكل والآلام ولن أتمكن أن أسيرها كما أريد بسهولة.

فضحكت نقاء ضحكة قصيرة ثم هزت رأسها وهي تقول:

ـ أما هذا فلا...

ـ ولكن...

ـ ولكن ماذا؟!.

ـ أقصد أن شعوري نحوك لا يتعدى شعور الغريق نحو المنقذ، والمريض نحو الطبيب، أنا أنظر اليك كاشعاعة من رحمة أشرقت على جنبات روحي، فهلا أرشدتيني إلى مطلع ذلك النور؟.

ومرة أخرى هزت رأسها بإصرار وقالت:

ـ لا، إن هذا لن يكون...

ـ ولماذا؟!

ـ لأني لا أستقبل في بيتي رجالاً أجانب.

ـ أنا واثق من هذا، ولكن عندي ما أقوله لك...

ـ أي شيء مثلاً؟ .

ـ مشاكلي الخاصة لا تتسع لنقلها وقفة على جانب الطريق.

ـ أنا أسفة، ولكن ما في اليد حيلة.

ـ وأخيراً؟ .

ـ لا شيء. . .

ـ إذن فما الذي عليَّ أن أعمل؟ .

ـ إقرأ الكتب التي دللتك عليها، فإن فيها أكبر غذاء روحي، يغنيك عن كل شيء. . .

وفي هذه اللحظة مرت «الأمانة» فركبت فيها متوجهة نحو البيت. . . ووقف محمود يتابع سيارتها بنظره حتى اختفت في منعطف الطريق، وعجب لنفسه كيف لم يحاول اللحاق بها في سيارته ليتعرف على بيتها ويعرف من تكون، ولكن عاملاً غريباً منعه من ذلك وتساءل في حيرة: هل هذا الذي يعبر عنه بالشهامة أو الكرامة؟ .

وعلى كل حال فقد استقل سيارته، وتوجه إلى سوق الكتب وحرص على أن يشتري كل كتاب ذكرته له نقاء، ومؤلفات الكتاب الذين عددت أسماءهم. . . ورجع إلى البيت وهو محمل بأنواع الكتب. . . ورأته سعاد من نافذتها

وهو يدخل الدار، وقد حمل في كلتا يديه لفافات ثقال، وفكرت ما عسى أن تكون هذه اللفافات؟... وخطر لها كل شيء عدا الكتب. وكانت قد لاحظت على زوجها تغييراً كلياً في الأيام الأخيرة، وركوناً إلى العزلة والانفراد، فلم يشهد ضمن هذه المدة أي احتفال، بل ولم يذهب إلى أي مسرح من المسارح، وكان دائم التفكير، طويل الشرود، ولم تتمكن سعاد أن تفهم لذلك سبباً، فهي حتى ولو افترضت أن محمود قد فشل في محاولاته مع نقاء... لم تكن ترى أن فشله يستوجب منه هذا التغيير الفجائي، فطالما فشل في غزواته الغرامية من قبل، وخطر لها أنه عاشق... ولعل التي يعشقها هي نقاء. ولكنها عادت فاستبعدت أن يعشق محمود وهي تعهده سطحياً في جميع الأمور...

وفي مرة استدعت سنية وكانت الأخيرة قد نحلت وظهر على وجهها شحوب باهت، وسر سعاد أن تراها كذلك، وهي التي طالما أشعلت في فؤادها نار الحقد والغيرة وصممت سعاد على أن تصارح سنية بكل شيء فقالت:

ـ لقد دعوتك يا سنية لكي أكون معك صريحة فصارحيني أنت أيضاً ولا تخفي عني شيئاً...

ـ وبماذا أصارحك يا سيدتي؟!.

ـ إن سيدك منذ أسابيع وحاله ليس على ما يرام...

ـ من أي ناحية؟

ـ أنا لا أحب منك التغابي... أنا أعلم موقفك من محمود وموقفه منك، وأنت تعلمين أيضاً أنه زوجي ولي الحق في تتبع أحواله.

ـ تماماً كما تقولين يا سيدتي.

ـ طيب... الآن أعود إلى كلامي الأول... ألم تلاحظي على محمود تغيراً في هذه الأسابيع؟

ـ وكيف لا وقد تغير سيدي كثيراً.

ـ وما عساه يكون السبب؟..

ـ ......

ـ أجيبي يا سنية! فأنا لن أفوه أمام محمود بحرف واحد مما ستقولين، اطمئني من هذه الناحية، فليس من مصلحتي في شيء أن أخبره بأني كنت أتجسس عليه، والآن ألا تعلمين من أمره شيئاً؟.

ـ إذا أردت الحقيقة يا سيدتي! فقد صادف ورأيت سيدي...

وقطعت سعاد كلامها قائلة:

ـ عدت مرة أخرى إلى كلمات المداهنة، لا تقولي صادف، أنا أعرف أنك كنت تتابعين خطواته وتتجسسين عليه.

ـ نعم وقد رأيته في صحبة فتاة في إحدى المتنزهات. . .

وهنا تحفزت سعاد وقالت:

ـ ما شكل هذه الفتاة؟

ـ الواقع أني لم أصدق عيني حينما رأيتها يا سيدتي! فقد كانت فتاة وقوراً بريئة المظهر محتشمة الملبس ولكن. . .

ـ ولكن ماذا؟

ـ عدت فرأيته معها ثانية وكانت تحدثه وهي مستندة إلى جذع شجرة وهو واقف أمامها يستمع.

ـ ألم تسمعي ما كانت تقول؟.

ـ ومن أين لي أن أسمع وأنا خارج أسوار الحديقة. . . وفي مرة أخرى. . .

وسكتت سنية، لكن سعاد استحثتها على الكلام قائلة:

ـ وماذا في مرة أخرى؟!.

ـ رأيته واقفاً معها على رصيف الشارع، وكانت سيارته إلى جواره تنتظر. . .

وهل ركبت معه السيارة؟.

ـ لا أدري وإن كنت لا أشك في ذلك، فقد خشيت أن أتأخر فيلحظني سيدي.

وأطرقت سعاد تفكر، ثم رفعت رأسها وقالت:

ـ شكراً لك يا سنية! والآن انصرفي واخبريني عن كل ما يجد في الأمر.

وشعرت سعاد بلذة الانتقام، ونسيت كل شيء سوى فوزها بالتنكيل بإبراهيم، وظنت أن ساعة الانتقام منه قد دنت، وما عليها إلا أن تزور إبراهيم بعد رجوعه لتهنئه بالعروس التي اختارها دون باقي الفتيات، وتتلذذ بمرآه وقد جلله العار وحطمته خيانة نقاء، ورأت أن الوقت لم يحن بعد لاسترداد محمود فلتدعه لنقاء مؤقتاً حتى يرجع إبراهيم، فهي واثقة من جره إليها في أي حين وعليها هي أيضاً أن تلتفت نحو صلاح قبل أن يفلت من يدها نهائياً، فقد كانت قد أهملته منذ الحفلة الأخيرة لانشغالها بالمهندس الشاب.

الفصل الثاني والعشرون

عكف محمود على مطالعة الكتب التي اشتراها، وكانت تفتح أمامه أبواباً كثيرة من المعرفة والثقافة الدينية والروحية، وتنقله إلى عالم أوسع يحلق فيه بروحه سعيداً نشواناً، ولم يكن ييأس من لقاء ملاكه الهادي مرة أخرى، فهو يقضي جلِّ أوقاته بين المنتزه والحدائق، وكتابه معه أينما ذهب. وفعلاً فقد صادفها في أحد الأيام وهي جالسة في ركنها القصي تطالع كعادتها دائماً، فتقدم نحوها بخطى ثابتة وحيّاها بصوت هادىء، فعرفت نقاء صوته فرفعت رأسها وردت تحيته باحترام فقال لها:

- أتسمح لي سيدتي بالجلوس على مقعد قريب لمحادثتها؟.

ولم يسع نقاء إلا أن تقول:

- لك ذلك.

فجلس محمود وقال:

ـ أنا لا أريد أن أضيع هذه الدقائق عبثاً. لقد قرأت جل الكتب التي أرشدتيني إليها.

ـ بارك الله فيك، كيف أنت بعد اقراءتها ؟.

ـ أرى نفسي وكأني ولدت من جديد، فقد تبدلت جميع مفاهيمي عن الحياة... نعم لقد ولدت من جديد!.

ـ فلا تفكر إذن بعد اليوم في ماضيك، واحرص على أن تحصر فكرك في مستقبلك وحياتك الجديدة.

ـ أنا أحاول أن أنتزع نفسي من ماضي، وقد توصلت إلى كثير من ذلك ولكن...

ـ ولكن ماذا؟.

ـ ولكن صاحبة هذا الخاتم الذي يطوق أصبعي، والتي منعتك مرة دون أن تسلميني إلى يد البوليس هي التي تحول بيني وبين نسيان الماضي.

ـ آه!...

ـ نعم ،فحاضرها مرآة ماضي

ـ ألا يمكن أن تقوم هي أيضاً؟.

ـ مطلقاً فقد بعد بها الطريق، ولم تتورع عن ارتكاب أي شيء.

ـ حتى.. أقصد حتى...

ـ دعيني أقول ما تريدين قوله، نعم حتى الخيانة الزوجية!

ـ آه!...

ـ إنها كالفراشة تنتقل إلى حيث شاءت ومتى رغبت.

ـ إلى هذا الحد!؟.

ـ نعم وأكثر...

ـ ولماذا لا تحاول التخلص منها؟.

وسكت محمود برهة ثم قال:

ـ لأني أحبها يا أخية، وحبي لها هو الذي جعلني امسك عليها طيلة هذه المدة.

ـ أنت غلطان يا أخي، فأنت لا تحب زوجتك هذه أبداً؟!

ـ وكيف؟!

ـ إنك لو كنت تحبها حقاً، لما أمكنك أن تسمح لها بتلك الأعمال، ولكن شعورك نحوها ليس شعور حب، بل أنه مجرد نزوة جسدية وشعور بالضعف أمام سلطانها عليك، فأنت تحب دارك مثلاً، فهل يمكنك أن تدع واحداً غريباً عنك لا يمت

لك بصلة يسكنها وإياك؟ وأنت تحب ثروتك ولا ريب، فهل ترضى أن يشاركك فيها أحد؟ أنت لا تحبها مطلقاً.

ـ . . . .

ـ فتش في نفسك عن الحب، لترى أن الشعور الذي يشدك نحو هذه الزوجة هو أبعد ما يكون عنه، فالحب لا يقوم مع الخيانة، ولا يدوم في جو الرذيلة، لأنه شيء مقدس لا يعمر إلا في القلوب الطاهرة والأرواح البريئة، أنك لو طالعت نفسك لرأيت كيف أنك تمقتها بدلاً من أن تحبها وتتمنى الفرار منها، وتؤثر البعد عنها للخلاص من سيطرتها على جسدك وتسخيرها لنزواتك.

ـ أنا أخشاها دائماً. . .

ـ إن هذا أحسن دليل يدلك على أنك غلطان في تقدير عواطفك نحوها، فالمحب لا يخشى حبيبه ولا يخافه، ولكن الخاضع يخشى من أخضعه، والضعيف يخشى القوي، كنت ضعيفاً أمامها قبل الآن، أما الآن فإنك انت القوي وهي الضعيفة، فإن قوة الشرف والايمان هي أسمى قوة في الانسان، وأنت الآن مؤمن وشريف. فحاول أن تتخلص من أحابيلها، راجع نفسك مرة أخرى لترى صدق ما أقول.

ـ أنا على يقين من أني لن أتمكن من أن أنزع الماضي ما دمت خاضعاً لسلطان هذه المرأة.

ـ فتحرر من سلطانها إذن.

ـ سوف أحاول ذلك مهما استطعت.

ـ حاول أولاً أن تصلحها، فإذا فشلت فلا تدعها تلوث حياتك الحرة الشريفة...

ـ إن إصلاحها متعذر، فهي قد استحالت إلى مجموعة من آثام وخطايا...

ـ إن المحاولة لن تخسرك شيئاً على كل حال، فإذا عجزت حدد موقفك منها.

ـ فسكت محمود، ثم قال بصوت خافت:

ـ هل لي أن أوجه إليك سؤالاً واحداً؟

ـ تفضل... إسأل...

ـ لقد رأيتك مرة في المطار بصحبة رجل كهل؟.

ـ نعم، أنت تقصد يوم سفر إبراهيم، لقد كان أبي معي هناك وهو رجل كهل كما رأيت.

ـ أبوك؟!.

ـ نعم، أبي.

ـ ومن عساه إبراهيم هذا الذي كان له سعادة مشايعتك؟!.

فعلت حمرة الخفر والحياء وجه نقاء وهي تقول:

ـ إنه زوجي..

ولم يظهر محمود أي خيبة وارتباك، فهو لم يكن يشعر نحو نقاء غير شعور الأخوة والاعجاب، ولكنه ود لو عرف زوجها، ومن يكون فتساءل:

ـ هلا زدتيني إيضاحاً بشخصية إبراهيم؟.

ـ وما الذي يعنيك من ذلك يا أخي!؟

ـ أرجو أن لا تحملي سؤال محمل الفضول...

ـ أنا أعلم أن غايتك من السؤال نبيلة، والاستطلاع إذا كان بداع النبل لا يعد فضولاً أو تطفلاً.

ولم يشأ محمود أن يتابع هذا الموضوع لئلا يغضب محدثته، أو يسيء اليها. فسكت برهة ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

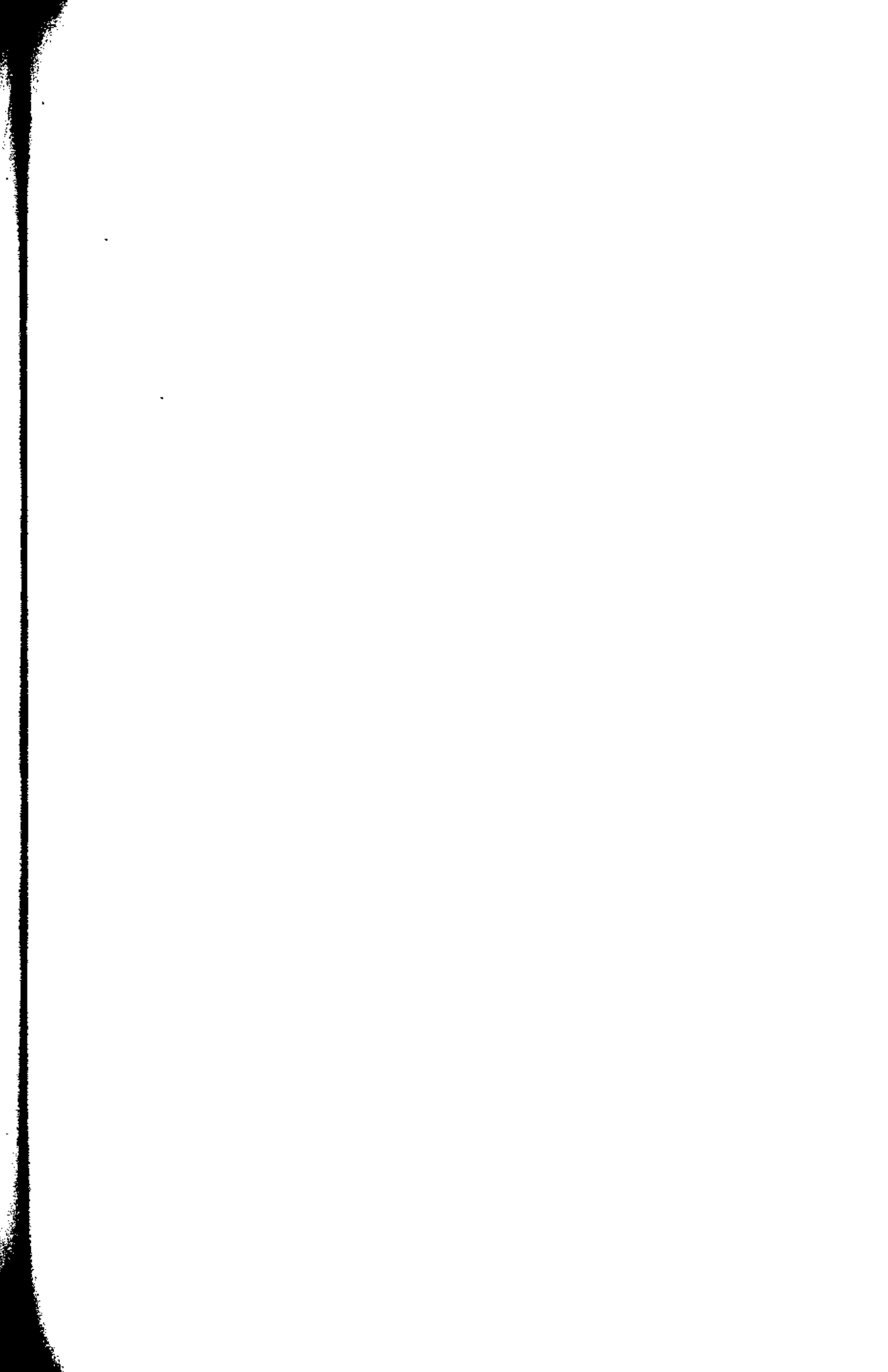
ـ ليتني أتمكن أن أدفن الماضي في سجل النسيان، ولكني لن أستطيع ذلك ما دامت تلك موجودة.

ـ أنت الآن رجل مستقيم، لك أفكارك الواضحة وشخصيتك الثابتة، فتصرف بما يمليه عليك ضميرك، وبما تدعو إليه روحك.

وعند ذلك نهضت نقاء وقالت:

ـ أنت لم تعد تحتاج إلى أحد، فإن عندك من الكتب رصيداً يغنيك عن كل شيء، ولكن فاتني أن أقول لك: إذا أردت أن تطالع قصة، فاقرأ قصة «البؤساء» لفكتور هوجو، فهي مدرسة إنسانية رائعة.

ولم يسع محمود إلا أن ينهض احتراماً لها، فودعته وانصرفت، وفي هذه المرة لم تحدثه نفسه أن يتبعها أو يتعقبها، فقد كان يشعر أن ذلك بعيد كل البعد عن الأخلاق الفاضلة...



الفصل الثالث والعشرون

رجع محمود إلى البيت وهو يحس بالصراع قائماً بين عاملين في روحه، فقد كان يشعر أن عليه أن يتحرر من سعاد وأنه لن ينجح في حياته الجديدة، إلا إذا تخلص من سلطانها عليه، وكان يقف فكره عند كل مرة، يحدث فيها نفسه عن حياته الجديدة، ويتساءل في سره: هل حقاً أنه بدأ حياة جديدة لا زيف فيها ولا خداع... لا فسق فيها ولا مجون؟ هل حقاً أنه أخذ يستيقظ من سكرته الماضية؟ وكيف؟... وما هو السبب في هذا؟... ولم يكن في كل مرة يحصل من نفسه إلا على جواب واحد: كنت تكفر بوجود الخير، ولكنه وجد أمامك فآمنت به... كنت تنكر أن للقيم حقيقة فتجسدت أمامك... فلم يسعك إلا أن تقر بها... أنت خضت تجربة كانت فاشلة، لكنها دلتك على طريق النجاح. وكان أشد ما يعذبه هو موقفه من سعاد، وكان يود أن يعرف نوعية الحبل الذي يشده إليها، وهل أن الحب هو الذي يخضعه لها أو شيء آخر فيتردد... أهو يحبها حقاً؟ أيحق له أن يستبقيها بذريعة الحب؟ أيسمي شعوره نحوها

حباً أم مجرد رغبة ورهبة؟ أيجوز له أن يدعها تنبش ماضيه وهو في طريقه لدفنه في طيات التوبة؟ أيصح له أن يعيش مع امرأة لا تتقيد بأي قيم انسانية؟... إنه يقر بأنها كانت ضرورة من ضرورات حياته السابقة، أما الآن فقد أصبحت ضرراً على حياته اللاحقة... نعم، إنه كان يهواها فيما مضى، ولكن الآن هل لا يزال يهواها أو هل يحبها حقاً؟!.

الفصل الرابع والعشرون

مضت الأيام على محمود وهو يعاني صراعاً عنيفاً بين قوى الشر والخير، وما أكثر ما أرق لياليه يتقلب بين مختلف الأفكار. . . وكانت سعاد تتجنبه طيلة هذه المدة، ظناً منها أنه عاشق مفتون مندفع وراء هواه. . وفي أحد الأيام خرجت سعاد من البيت، فرأت محمود يستعد لركوب السيارة، وقد حمل بين يديه حقيبة صغيرة، فتوقفت وسألته متخابثة:

- إلى أين أنت مسافر يا محمود؟

- أنا ذاهب لزيارة جدتي العجوز فقد علمت أنها مريضة. . .

- ومتى أصبحت طبيباً تداوي العجائز؟

- أنا لست بطبيب، ولكن علي أن أذهب لآتي لها بطبيب، فأنا كل ما تبقى لها في الوجود.

- ومنذ متى أصبحت تحس بهذه العواطف الانسانية؟!.

- منذ أبصرت عيني نور الحياة.

وظنت سعاد أنه يهزأ، فأردفت تقول:

ـ وكم سيطول بقاؤك هناك؟.

ـ إلى الوقت الذي أطمأن فيه على صحتها.

ـ حتى ولو أسبوع؟.

ـ أنا سوف أبقى أسبوعاً على كل حال، فلم أزر جدتي المسكينة هذه منذ سنوات، مع أنها بعثت تستدعيني عشرات المرات، ولكن إذا أحوج الأمر فسوف أظل أكثر من أسبوع.

ـ إذهب مع السلامة يا محمود!.

واستقل محمود سيارته، ومضى ينهب بها الشارع وكأنه كان يريد الابتعاد عن سعاد بأسرع وقت، وتابعته سعاد بنظرها، وردت في نفسها قائلة: أنت لن تذهب إلى جدتك يا محمود!... فهنيئاً لنقاء بأسبوعها الحافل... وليكن هذا الأسبوع هو أسبوع الوداع، فقد قربت عودة إبراهيم...

أما محمود فقد كان صادقاً فيما قال، وكانت جدته مريضة حقاً ولكنها لم تشأ أن تستدعيه، فقد يئست من استجابته لها لكثرة ما استدعته فلم يجب، وكتبت إليه فلم يرد عليها بكلمة واحدة، فأقامت على علتها ووحدتها تنتظر الأجل المحتوم.

ولم يتوقف محمود في الطريق، فقد كان يخشى أن يتأخر

ساعة فيصل بعد فوات الأوان، فهو يحس بعاطفة قوية تجيش بصدره نحو هذه الجدة المسكينة، وهو يتصورها على سرير الموت، نقلبها أيدي الأجانب والأغراب، وود لو يلقاها حية ليستغفرها عن عقوقه ويذرف بين يديها دموع التوبة والندم... ووصل أخيراً إلى بيت جدته وطرق الباب ففتحه له خادم شيخ استغرب قدومه ولم يتعرف عليه، فسأله محمود في لهفة:

- كيف حال السيدة يا حاج؟!.

فرد الخادم بصوت يشوبه الاستغراب لهذه اللهفة قائلاً:

- لا تزال كما هي يا أستاذ!..

- تقصد أنها لا تزال مريضة؟.

- نعم فهي ما برحت تصارع الموت ولكن...

ولم يمهله محمود ليتم جملته بل اندفع نحو الداخل، وهم الخادم أن يمنعه من الدخول وهو يقول:

- إن الدخول ممنوع يا سيدي! فحالها لا يسمح بذلك.

- ولكني ابنها يا شيخ!.

- إبنها!؟.

- نعم أنا حفيدها الوحيد.

ـ آه. . . أنت السيد محمود إذن؟

ـ نعم.

ـ لقد كانت تذكرك كثيراً يا سيدي!. . . وطالما سكبت لأجلك الدموع.

ودخل محمود على جدته فوجدها في غيبوبة وقد وقفت عند رأسها خادمتها العجوز التي لازمتها منذ صباها الأول. . . ولهذا فقد عرفت محمود في الوهلة الأولى، فقالت بصوت تخنقه العبرات:

ـ هل أتيت أخيراً يا سيد محمود!. . . لقد كانت تحيي بذكرك دائماً ولكنها الآن لا تتمكن أن تحس بوجودك.

وتساقط العرق بارداً على وجه محمود وردد في جزع قائلاً:

ـ لعلها. . . لعلها. . .

ـ لا يا سيدي! إنها لم تنته بعد ولكن نهايتها ليست ببعيدة.

ـ وكيف؟ ألا يوجد طبيب هنا؟!

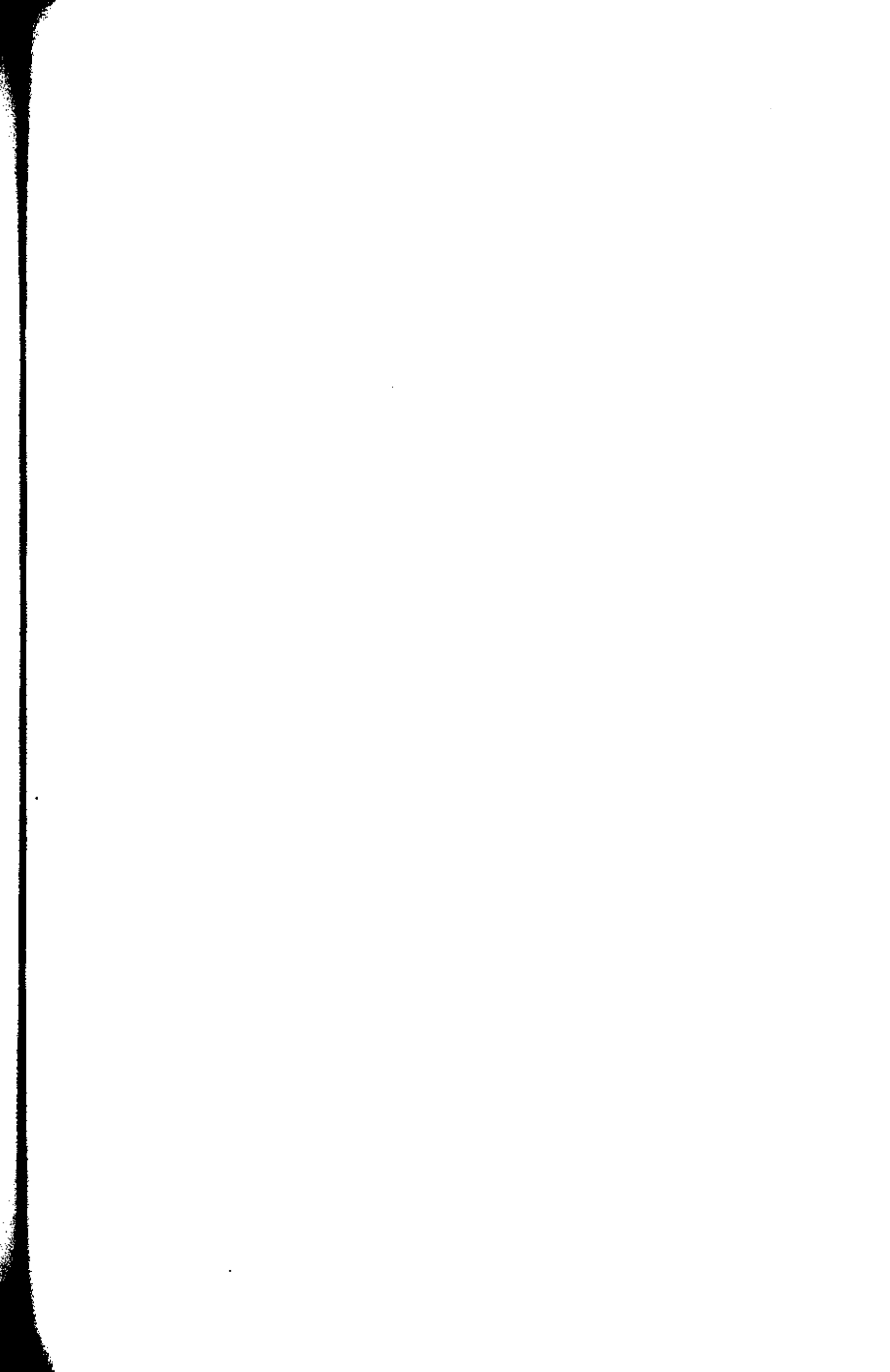
ـ لقد رآها الطبيب منذ ساعة، ولكنه قال: إنها لن تحتاج إليه بعد الآن.

انحنى محمود على الجسد المسجى، ورفع اليد المعروفة إلى فمه وطبع عليها قبلة طويلة ثم رفع رأسه وقد تبلل وجهه بالدموع، وظل واقفاً أمامها لا يريم، وفجأة صدرت عن صدر المريضة العجوز آهة أتبعتها بتململ قليل من رأسها، فانحنى عليها مرة أخرى وناداها بصوت خافت حنون: جدتي... جدتي العزيزة! أنا محمود. جهد جبار فتحت العجوز عينيها وابتهل محمود إلى ربه في سره قائلاً: ليتها تعرفني يا رب! وعرفته المسكينة، فقد لاحت على وجهها المغضن الشاحب شبح ابتسامة... فعاد محمود يقول:

ـ أنا محمود، جئت إليك تائباً نادماً مستغفراً عما بدر مني، فهل تغفرين لابنك العاق؟.

ورفعت المرأة العجوز عينها نحو السماء كأنها تريد أن تدعو له بالغفران، فانحنى مرة أخرى وقبل يدها بخشوع وشعر بأناملها باردة متشنجة، فلم يشأ أن يترك تلك اليد الكريمة التي طالما هدهدته وداعبته فأبقى عليها بين يديه، واختلجت الأنامل في قبضته اختلاجة صغيرة، وصدرت عن الجسد المسجى أنة خافتة، فنظر نحوها فزعاً، وحاول أن يناديها مرة أخرى، ولكن الخادمة العجوز منعته من ذلك، وقالت وهي تذرف العبرات:

ـ دعها فقد أسلمت روحها إلى باريها راضية مرضية.



الفصل الخامس والعشرون

أنهى محمود مراسيم دفن جدته، وفي ساعة متأخرة من اليوم الثاني وصل إلى داره ففتح الباب بالمفتاح الذي كان يحمله معه، وتوجه إلى غرفته، وكان السكون يسود أرجاء الدار، وقد انصرف الخدم إلى بيوتهم كعادتهم في كل يوم، فلم يكن يستقيم في البيت أحد من الخدم عدا سنية، وكان بصيص من النور يلوح من نوافذ غرفتها فعلم أنها لا تزال يقظى، وحانت منه التفاتة نحو غرفة سعاد فراها غارقة في ظلام دامس، فعجب لذلك وهو يعلم أنها لا تنام في الظلمة، وفكر أنها لم تعد بعد، ونظر إلى الساعة فرأى أنها تقارب الثانية صباحاً.. وكانت حوادث اليومين الماضيين قد أثرت على أعصابه فلم يتمكن أن ينام، وهو يشعر بالندم... كيف أعمت الشهوات عينيه؟ وكيف سمح لنفسه أن يجري وراء هواه؟ وكيف صيرته المادة عبداً لا يخضع إلا لها؟ ولا يعيش إلا لأجلها، حتى جدته العجوز لم يستجب لنداءاتها أو يرد على رسائلها، ليت حياتها استمرت مدة أطول، إذن لعرف كيف يضمها إليه، وكيف يمسح بعواطفه

على آلامها وأمراضها، لكنها ذهبت ولن تعود، وأرق محمود مع هذه الأفكار... وعز عليه النوم، ومرت ساعة وساعتان ولم يطبق له جفن، تذكر سعاد وخطر له أن يعرف إن كانت قد عادت أم لا، فنهض وتطلع نحو نافذتها فرآها كما كانت غارقة في الظلام، فهاله أنها لم ترجع بعد، واتجه ببصره نحو غرفة سنية فوجد أن النور الضعيف لا يزال يلوح منها، فهمَّ أن يستدعيها ليسألها عن سعاد، ولكنه خشي أن تحمل سنية ذلك منه على محمل غير شريف، فتردد مدة ثم أقلع عن هذه الفكرة وحاول أن ينام، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وقد أخذت تنكشف أمام ضميره أعمال سعاد وأفعالها على أبشع صورة، وعجب لنفسه كيف ظن أن في وسعه إصلاحها بعد أن بلغت من انحرافها هذا المدى البعيد... وعند بزوغ أول علائم الفجر ذهب بنفسه إلى غرفة سعاد ليتأكد من خلوها فألفاها مغلقة يسودها الظلام، وخطر له أن يطرق الباب فلعلها آثرت أن تنام ليلتها في الظلمة، ولكن طرقاته لم تكن لتنتج شيئاً والغرفة خالية، فرجع إلى غرفته وهو يتميز غيظاً وحنقاً وألقى بنفسه على الكرسي وهو يتمتم: لقد حسبت أني لن أرجع قبل أسبوع... ولكن أيمكن أن يحدث هذا؟ أوصلت بها الخيانة إلى هذا المدى البعيد! نعم إنها هكذا كانت دائماً، ولكني أنا الذي كنت سادراً في سكرتي المقيتة فاستغفلتني حتى أمنت جانبي واستبعدتني حتى لم تعد تخشى مني.

ثم صمم على أن يستدعي سنية... وما عليه إذا خامر الشك قلبها إلى دقائق... وقرع الجرس، فقد كان في غرفته جرس خاص يتصل بغرفتها مباشرة، ولم تمض لحظات حتى سمع نقراً خفيفاً على الباب فقال: ادخلي يا سنية!... فدخلت سنية وهي تتعثر بأذيالها من الارتباك ووقفت تنتظر فسألها محمود في هدوء قائلاً:

- أين سعاد يا سنية؟!.

فسكتت سنية ولم تجب، بل ولم ترفع نحوه رأسها أيضاً، فكرر السؤال في شدة:

- أجيبي يا سنية! أين ذهبت سعاد؟ ولماذا لم تعد طيلة هذه الليلة؟.

ورأت سنية أن الفرصة قد واتتها للانتقام من سعاد، وليكن بعد ذلك ما يكون، فهي لم تكن تخشى سعاد إلا من ناحية واحدة، وهي إن تتسبب في طردها وإقصائها عن محمود، وأما الآن فقد خسرت محمود على كل حال، فما الذي يدعوها إلى التستر على سعاد، ولهذا فقد صممت على أن تقول كل شيء... فقالت:

- لقد تركت سيدتي البيت منذ الساعة السادسة بعد الظهر من مساء أمس...

فارتعد صوت محمود وهو يسأل:

ـ ألا تعلمين أين ذهبت؟ ألم تقل لك شيئاً عن ذلك؟.

ـ إنها لم تخبرني بشيء.

ـ أصدقيني يا سنية! ألا تعلمين شيئاً عن المكان الذي قصدت إليه.

ـ إنها ذهبت إلى أحد المسارح.

ـ أحد المسارح! وفي الساعة السادسة.

ـ لقد قضت ساعتين في حدائق المسرح قبل بداية العرض.

ـ وهل كانت وحدها يا سنية؟.

ـ لا...

ـ إذن فمن كان معها هناك؟.

ـ كانت بصحبة صلاح...

ـ صلاح!!..

ـ نعم صلاح.

ـ ومن أين علمت ذلك؟.

ـ لقد تعقبتها يا سيدي! ولم أعد إلى البيت حتى عرفت كل شيء...

ـ أنت تعقبتيها يا سنية!.

ـ نعم فأنا موتورة، فقد حطمت حياتي وسحقت سعادتي.

ـ وكيف يا سنية؟!

ـ أنا على ثقة من أنها هي التي تسببت بحرماني من...

ـ أما هذا فلا.. أنا أفهم ما تريدين أن تقولي، ولكن اعلمي يا سنية! أن سعاد لم يكن لها أي دخل في ذلك... والآن أخبريني أين قضت سعاد ليلتها؟.

ـ عند صلاح... نعم، وقد رأيتهما يدخلان داره وهما مخمورين.

ـ أحقاً ما تقولين أم أن حقدك عليها يدفعك إلى ذلك؟.

ـ أقسم لك بربي يا سيدي! على صحة ما أقوله.. وإذا أردت أن تتأكد فاذهب إلى بيت صلاح لتجدها هناك.

وأحس محمود أن الدماء تغلي في عروقه وأن قبضة الغيرة تضغط على عنقه بيد من حديد، فسكت برهة ثم رأى أن عليه أن يقول لهذه المسكينة الواقفة أمامه شيئاً وهو يعلم أنه أساء إليها من قبل فقال:

ـ سنية! أنت امرأة شابة على جانب غير قليل من الذكاء والفطنة، فهلا شققت لنفسك طريقاً في الحياة وأنا كفيل بتمهيده لك على أحسن وجه...

ـ أنا لا أفهم ما تقصد يا سيدي! وأي حياة هذه التي تحدثني عنها؟.

ـ أقصد مستقبلك يا سنية!.

ـ مستقبلي! ومن أين لي مستقبل واضح!...

ـ أنا على استعداد لأن أعينك بأي شيء...

ـ ماذا مثلاً؟.

ـ عمل تجاري أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

ـ عمل تجاري... عمل تجاري!.

ـ نعم يا سنية! أنا مسؤول عن كفالته لك.. فكري فيما قلته الآن ومتى ما توصلت إلى قرار فأنا حاضر أن أساعدك كأخ.

ـ ماذا تقول يا سيدي؟ أنا أكون صاحبة عمل تجاري؟!.

ـ نعم أنت تكونين المالكة لرأس مال تتصرفين فيه كما تشائين، لكي أتمكن أن أعيش حياتي هانئاً سعيداً... والآن انصرفي يا سنية! واعلمي أني قد خلقت من جديد...

انصرفت سنية وهي لا تكاد تصدق ما سمعته!... وظل محمود ينتظر رجوع سعاد، وقد صمم على أن يحدد موقفه منها... وفكر لو ذهب إلى بيت صلاح ليضع النقاط

على الحروف معها هناك، ولكي يحول دون عودتها إلى البيت... ولكنه تذكر كلمات نقاء وتذكر أنها أوصته أن يحاول إصلاحها أولاً، فإذا يئس فإن عليه أن يبعدها عن حياته بأي ثمن.

وفي حوالي الساعة الثامنة سمع بوق سيارة سعاد... فانتظر حتى استوثق من دخولها إلى غرفتها ثم توجه إليها، وكان باب غرفتها لا يزال مفتوحاً ولكنه قرع الباب فجاءه صوت سعاد:

ـ من الطارق.. سنية؟ أدخلي.

فرد محمود قائلاً:

ـ لا... أنا محمود يا سعاد!

ثم دلف إلى الغرفة قائلاً:

ـ أظنك لم تتوقعين رؤيتي في هذا الصباح...

وصعقت سعاد لمرآه وتمتمت قائلة:

ـ محمود... محمود...

ـ نعم.. أنا محمود زوجك المخدوع!.

وكانت سعاد واقفة فألقت بنفسها على الكرسي وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها، وأن تواجه الواقع مهما كان، فقالت بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً:

ـ اراك عدت سريعاً يا محمود! ألم تكن رحلتك موفقة؟

فتقدم نحوها ووقف لمواجهتها وقال وهو يتصنع الهدوء:

ـ نعم لقد عدت لأراك تقضين ليلك خارج بيتك... ولا تعودين إلا عند الصباح... عدت لأراك وأنت تتمرغين بالرذيلة وتريقين ما تبقى لك من العزة والكرامة على مذبح شهواتك..

ـ لست أدري ما الذي دهاك يا محمود؟ هل أنت سكران أم أن الفشل قد حدى بك إلى هذه الثورة، فجعلك تتمشدق بالعزة والكرامة؟..

ـ أنا الآن صاح كما لم أصح من قبل، ولهذا فقد جئت لأحاول معك محاولة أخيرة...

ـ إن محاولاتك معلومة لدي... فوفر لنفسك نصائحك...

ـ بودي لو أقلعت عن هذه المحاولة، ولكن داعي الواجب يدعوني إلى ذلك... أين كنت يا سعاد؟ أين قضيت ليلتك هذه بعيدة عن الدار؟ متى افترقت عن صلاح؟ وهل افترقت عنه؟!.

ـ وما يعنيك أنت من ذلك... أنا حرة أفعل ما أشاء!.

ـ إن للحرية حدوداً قد أسأت لها كثيراً يا سعاد!

ـ مهما بلغت من الحرية فلن أصل إلى بعض حريتك يا محمود... ونحن متفقان مبدئياً على المساواة بين المرأة والرجل!

ـ الحرية لا تعني الخيانة، ولا تعني الانحراف....

ـ الخائن لا يخان يا محمود!

ـ أنا لا أريد أن أدخل معك في نقاش عن الخيانة الزوجية ولكني أريد إيضاحاً فقط.

ـ عن أي شيء؟

ـ عن المكان الذي قضيت فيه ليلتك هذه...

ـ أخبرني أنت أولاً عن ليلتك الماضية... والتي قبلها... حدثني أنت أولاً عن مغامراتك ومغامرتك الأخيرة على الخصوص وتفاصيلها لكي يكون لك بعض الحق في السؤال...

ـ أنا لن أفوه بحرف واحد يا سعاد، وعليك أنت أن تخبريني بكل شيء، فقد سئمت هذا الوضع المشين، ولم أعد أطيق هذه الضعة التي تشعريني بها في الحياة... أنا لن...

فقطعت سعاد كلامه، وهي تظن أنها سوف ترميه بنفس سلاحه، وأنها سوف تتمكن منه كعادتها في المرات السابقة فقالت:

ـ وما السبب في انتهاء مهمتك بهذه السرعة! هل تخاصمتما أم هل رجع الغائب من السفر؟!

ـ أنا لا أفهم ما تقولين يا سعاد، لقد عدت وكفى، نعم عدت أمس ليلاً.

ـ ثم ماذا؟

ـ لا شيء مطلقاً سوى أني لم أعد أطيق منك هذا السلوك...

ـ أراك ثائراً (اليوم) يا محمود!... أكان فشلك مع نقاء هو الذي دعاك إلى هذه الثورة؟... أنت تعلم منذ اليوم الأول أني حرة، نعم أنا حرة.

ـ أنا لا أفهم ما تقولين وماذا تقصدين... أي نقاء هذه التي تتحدثين عنها وأي فشل؟ أنا ما عدت أفشل في حياتي ما دمت... سوف أتخلص منك ومن عارك يا سعاد.

ـ أهكذا تنسى اسمها بهذه السرعة يا محمود... أم تتناساه؟

ـ أنا لا أعرف أي اسم لكي أنساه، أنا لا أذكر الآن سوى إني في طريقي للتخلص منك إلى الأبد... إلا إذا حاولت أن تبرري تصرفاتك وتتوبي وتقلعي عن تصرفاتك المشينة.

ـ ماذا أبرر... وعن أي تصرفات

ـ عن خياناتك ونزواتك...

ـ لا شك أنك مجنون... أتظن أن امرأة مثلي في شبابي وجمالي تقبع في عقر دارك وتوقف حياتها عليك؟... أنا حرة يا محمود!... ولي الحق الكامل في الاستفادة من جمالي وشبابي، أنا لا أسحق حياتي لحساب زوج مثلك أو أي زوج آخر، فهل يكفيك هذا؟.

ـ طبعاً يكفيني وزيادة، لقد كنت أظن أنك سوف تعتذرين أما الآن...

ـ فماذا عساك أن تفعل بعد أن عرفت أني لا اعتذر ولا أبدي أي تبرير، أنا هكذا كنت وهكذا سأكون!.

ـ أنت تعترفين إذن!

ـ وهل أنت قاض حتى أعترف بين يديك... كان عليك أن تعترف أنت أولاً...

ـ أنا زوجك ولي الحق في تحديد موقفي منك بعد الآن إلا إذا..

ـ مرة أخرى تقول إلا إذا.. لا أعلم، إني لن أعتذر مطلقاً فنحن متفقان على أن لكل من المرأة والرجل الحرية الكاملة، فكما ذهبت أنت إلى نقاء... ذهبت أنا أيضاً...

ـ إلى صلاح طبعاً!.

ـ نعم، فهل يرضيك هذا، وهل يكفيني شر ثورتك!...

ـ أتعلمين ما تقولين يا سعاد!.. هل انتبهت إلى كلماتك الناطقة عن الخطيئة والمجللة بالعار؟.

ـ أراك أصبحت تردد الكلمات العتيقة... هل أصابتك العدوى من نقاء؟

ـ نقاء! ومن تكون نقاء هذه! أنا لا أعرف واحدة اسمها نقاء، ولا أردد كلمات عتيقة، وأنا أحاول جاهداً أن أسيطر على أعصابي معك، لكي لا أبقي ناحية مغفولة، أو أغلق باباً من أبواب الأمل في الاصلاح...

ـ لا أدري هل أنت غبي أم تتغابى؟ أم تظن بي الغباء؟! أتنكر معرفة نقاء؟!.

ـ أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل!.

ـ هه... نقاء فاتنتك الجديدة زوجة ابراهيم.

وهنا أفلت زمام غضب محمود فصرح بها قائلاً:

ـ الويل لك يا سعاد! أتجرأين على النيل من هذا الملاك الطاهر...

وقطعت سعاد كلامه قائلة:

ـ أرأيت كيف أنك تعرفها يا محمود!؟.

ـ أنا لم أكن أعرف حتى اسمها قبل الآن، ولكني عرفتها لذكر إبراهيم، وحتى هذا فهي لم تكن لتخبرني به لولا داعي العفة والفضيلة...

ـ العفة!!..

ـ نعم، إنها ملاك طاهر في صورة انسان، انها مجموعة مثل خيرة، وأنموذج كامل للأخلاق الفاضلة.

ـ ماذا تعني يا محمود؟!.

ـ أنت لا تستطيعين أن تتوصلي إلى ما أعنيه، فمن أين لفكرك الطائش أن يسبر ماهيتها ويدرك حقيقتها..

وارتبكت سعاد ولم تفهم معنى لكلمات محمود، فرددت قائلة:

ـ أنا لا أفهم ما تعنيه يا محمود، أيمكن لنقاء أن تكون عفيفة فاضلة وهي خليلتك؟!.

ـ أعوذ بالله، أنا لم أكن أعرف عنها حتى مجرد اسمها، ولا تعرف هي عني حتى اسمي، ولا يمكن لقلب طاهر على شاكلة قلبها أن يعشق رجلاً مثلي، إنها وهبته لمن يستحقه، ولا شك...

وارتعش صوت سعاد وهي تقول:

ـ أنت إذن لم...

ـ لا... أبداً، أنا أعرف ما تريدين أن تقولي... لقد دفعت بي إلى الغواية، ولكني اهتديت... وأرسلت بي نحو الظلام ولكني أبصرت قدامي نوراً فمشيت... وبعثت بي إلى الحضيض، فسموت إلى الآفاق. أنت أردت أن تمعنين في تضليلي، فشاء الله أن يكون في إضلالك هداية لي. وإنقاذاً لروحي من بحر الخطيئات. أنا لم أعد ذلك الرجل الضائع في خضم الخطايا، فقد تفتحت عيني لأول مرة على نور الحياة، وذقت طعم سعادتها منذ أيام.

ـ إذن... إذن... فأنت تعشق نقاء ولم تحاول إغراءها!

ـ أنا لم أعشقها، ولن أعشقها أبداً، ولا أشعر نحوها بأي شعور شهو ي، ولكني احترمها كملاك هادي، وكوكب منير فهي بالنسبة لي معنى روحاني يفوق العشق، ويسمو على الحب، ولا يدانيه شيء.

وخرجت الحروف متقطعة من فم سعاد وهي تقول:

ـ وهي؟!.

ـ مسكينة أنت يا سعاد، لعلك تودين لو تعرفين الحقيقة، ولا مانع عندي أن أخبرك بها الآن، وبعد أن حزمت أمري معك يا سعاد: أنت أغريتيني بنقاء ولم أعرف

لذلك سبباً حتى الآن ودفعتيني إليها، فاندفعت إلى حيث تريدين وحاولت أن ألقي حولها شباكي ولكني فشلت، وبدلاً من أن تسلمني إلى أيدي الشرطة بدأت في هدايتي وارشادي إلى طريق الصلاح وقد نجحت كما ترين، كادت أن تسلمني إلى أيدي الشرطة لولا عطفها عليك وحرصها على أن تجنبك الفضيحة، قالت لي مرة: لولا هذه المرأة التي تحمل خاتمها حول إصبعك لسلمتك للشرطة.

وصعقت سعاد وسألت في فزع:

ـ وهل تعرفني هي؟!

ـ لا، ولكنها تعرف أني رجل متزوج، ولو كانت تعرفك لعلمت أن ذلك لن يزيدك فضيحة وعاراً جديدين.

فتمتمت سعاد قائلة:

ـ أو لم تعرف من تكون أنت؟

ـ أبداً فما حاولت أن تتعرف عليَّ، فهي لم يكن ليغيرها أمري من قريب أو بعيد عن موقفها ولا تزال تجهل حتى اسمي مع أنها تعلم كونها هي التي بعثتني بعثاً جديداً في الحياة وهي التي فتحت أمامي أبواب المستقبل الشريف، نعم أنها لا تعرف عني حتى اسمي.

فخرج صوت سعاد على شكل أنات وهي تقول:

ـ إذن فلم تتمكن من إغرائها؟

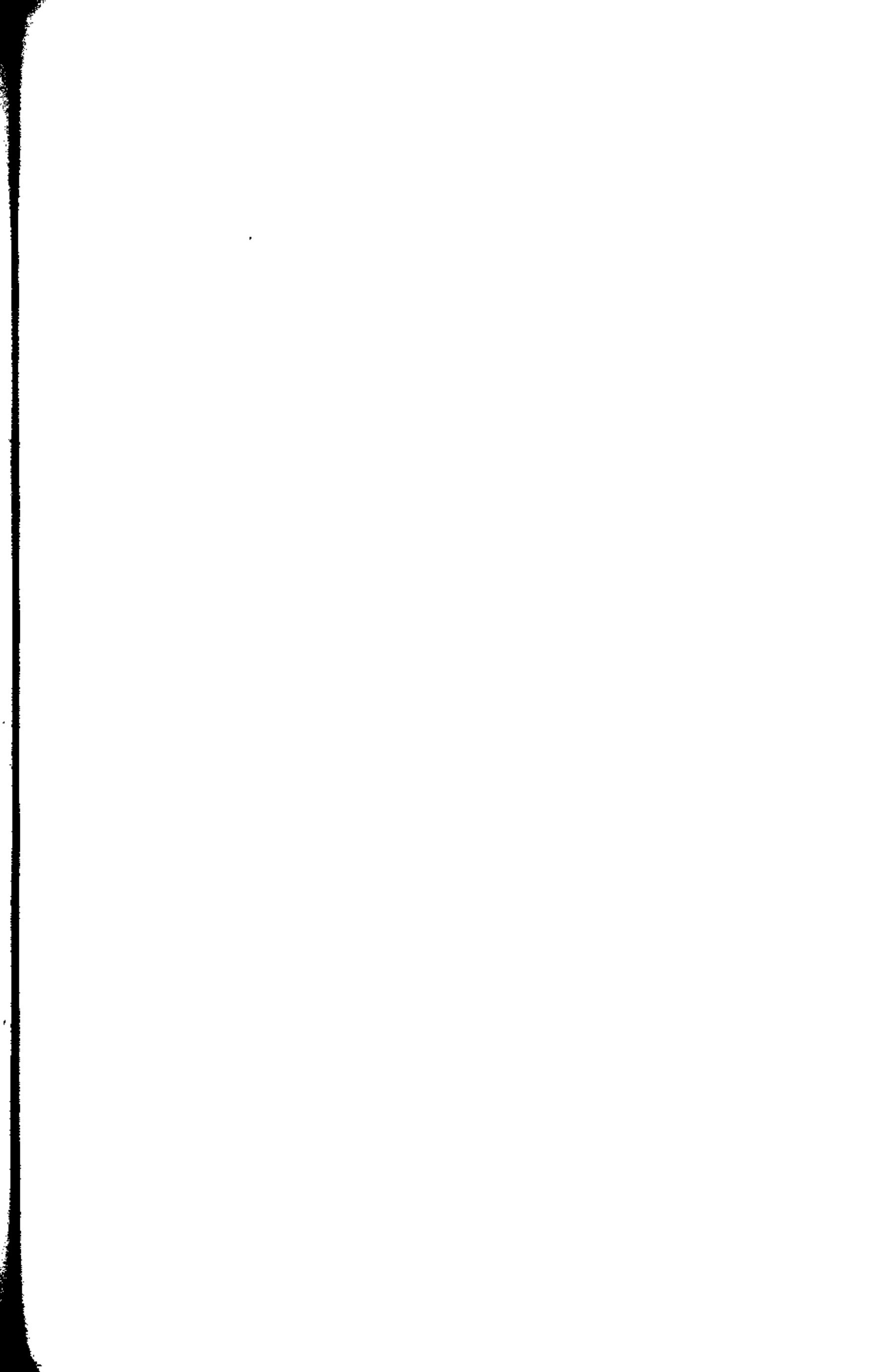
ـ وهل يمكن لمثلي أن يغرر بمثلها! وهل يمكن لتفاهة أفكاري أن تتلاعب بأفكارها السامية... أنها في حصن حصين من مفاهيمها ومثلها وثبات عقيدتها.

ـ آه، أنت تتكلم عن المثل والمفاهيم!

ـ نعم، بعد أن عرفت أن لا حياة بلا مثل، ولا سعادة بدون مفاهيم صالحة... أنا لم أكن أصدق قبل معرفتي لها أن للخير وجوداً على هذه الأرض أو أن المثالية الحقيقية توجد في البشر، ولكنها قلبت مفاهيمي رأساً على عقب، وأحدثت في نفسي انقلاباً لم أخرج منه إلا وقد انتصر عنصر الخير فيّ على عنصر الشر، جعلتني أؤمن أن الدنيا مليئة بالناس الطيبين بعد أن كنت أجهل حتى وجود واحد منهم، أما الآن فأنا رجل جديد... ولهذا فقد صممت على أن أحزم أمري معك يا سعاد! فقد تنبهت أخيراً إلى الخطأ الذي كنت أعيش فيه. فأنا لم أحبك يا سعاد! بل ولن أحبك في يوم من الأيام مطلقاً، وإنما الشعور الحيواني هو الذي أخضعني لك فيما مضى، وقد تخلصت من ذلك الشعور البغيض، فأنت الآن لا تعنين عندي شيئاً. سوف أدفع لك صداقك كاملاً فلعله يكفل لك حياتك لمدة وجيزة تقعين بعدها على صيد جديد، وأنا إذ اتخذ هذا القرار استشعر الراحة والرضاء، فقد حاولت إلى آخر لحظة أن أنتشلك من حضيضك أو أرفعك

من وهدتك هذه لكنك أبيت ذلك وركبت غرورك واندفعت وراء شيطانك، فاذهبي إلى حيث يقودك فكرك الضال.

وكانت سعاد تستمع إلى محمود وهي تستشعر بقلبها يتحطم تحت وطأة كلماته الرصينة، فقد تجسم لها في لحظة شقائها وفشلها في الحياة، ورأت كيدها وهو يرد إلى نحوها وسلاحها يعود فيدمي فؤادها ويهدم ما بنته من آمال على الثروة التي أخذت تتلاشى من بين يديها وتتركها ليد العدم والحرمان، إنها لم تكن تحب محمود ولم تكن تحزن لفراقه أبداً، ولكنها ما كانت تطيق حياة الفاقة وهي تعلم أن شخصيتها في المجتمع مرهونة بالثروة والمال الذي يخولها ولوج المجتمع الذي تعيشه، وهكذا رأت نفسها في لحظة وهي خلو من كل شيء...



الفصل السادس والعشرون

كانت الأشهر الثلاثة تكاد تنقضي وتنتهي بمضيها سفرة إبراهيم وقد أصبحت رسائله تصل مرتين في الأسبوع بدل المرة الواحدة، ونقاء تعيش بأمل اللقاء القريب وعلى أحلام المستقبل السعيد... وأخيراً تعين يوم وصوله، ولم يكن قد بقي عليه سوى يومين. وخرجت نقاء إلى السوق لتشتري بعض حوائجها، ولما أتمت مهمتها وقفت تنتظر سيارة «الأمانة» وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود، وابتدرها بتحية مؤدبة رصينة، فلم تفزع نقاء في هذه المرة ولم تتقهقر خطوات كما فعلت في المرة الماضية، فقد اطمأنت إلى غايات هذا الرجل وواقعه النبيل، ولهذا فقد ردت تحيته بما يليق.. وشجع محمود حماسها في الجواب وسره أن يكون قد توصل أخيراً إلى إشاعة الثقة في نفس نقاء وقال:

منذ مدة وأنا أفتش عنك يا اختي، فأنا في حاجة إلى مزيد من الارشاد...

ـ ألم تكمل قراءة الكتب؟

ـ قرأتها جميعاً، وعدت فاشتريت كتباً جديدة. . .

ـ وهل اشتريت «البؤساء» ليفكتور هوجو؟

ـ نعم، فإن اقتناء الكتب أصبح هوايتي المفضلة.

ـ فعليك بها إذن فهي كفيلة بإرواء ظمأك إلى العلم والمعرفة.

ـ ولكن لدي ما أقوله لك، فقد تمكنت أن أتخلص أخيراً من جميع توابع الماضي البغيض!

ـ حقاً. . . بارك الله فيك ولكن كيف؟

ـ أظن أني لن أتمكن أن أشرح لك ذلك هنا وسط الزحام.

وسكت محمود فلم يردف شيئاً، وسكتت نقاء أيضاً، ونظرت إليه فرأته يتطلع نحوها بتضرع والتماس وشعرت أن عليها أن تفعل شيئاً تجاه هذا الرجل لكي لا تعقده ثقته بنفسه ولتوحي إليه أن نظرتها نحوه قد تغيرت وأنه الآن يختلف عما كان عليه من قبل فقالت:

ـ يمكنك أن تلاقيني في المنتزه.

ـ أحقاً تمنين عليَّ بذلك؟

ـ نعم لأنك أصبحت رجلاً شريفاً ومستقيماً.

ـ ولكن متى؟

ـ اليوم في الساعة الخامسة.

ـ شكراً.

ـ لا داعي للشكر فليس هذا إلا واجب إنساني. . .

ـ أما الآن فأظن أن عليَّ أن أنصرف. . .

ـ إذا سمحت بذلك طبعاً.

ـ طبعاً فلن أطيل وقوفك على قارعة الطريق.

ثم انحنى لها باحترام وذهب، واستقلت نقاء «الأمانة» إلى البيت، وفي تمام الخامسة كانت تتوجه نحو المنتزه لتستمع إلى حديث الرجل الغريب، فهي لم تعد تخافه بعد اليوم بعد أن أشرق على قلبه نور الايمان، وهناك وجدته ينتظر ولم تشأ أن تذهب إلى ركنها القصي فاختارت مجلسها في ناحية واضحة من نواحي المنتزه، وبعد لحظات من جلوسها سألها محمود في أدب قائلاً:

ـ هل لي أن أتحدث؟

ـ تفضل يا سيدي! على الرحب والسعة. . .

ـ لقد أصبحت لي مرشدة وناصحة. . .

ـ . . .

ـ وقد حدثتك في اجتماع سابق عن مشاكلي المعقدة، التي تحول بيني وبين بدء حياة جديدة، ولكنك نصحتيني أن أحاول . . .

ـ أنت تقصد زوجتك إذن؟

ـ نعم إنها هي، ولكنها لم تعد زوجتي والحمد لله، فقد وفقت إلى إبعادها عن حياتي نهائياً.

ـ وكيف؟ أعجزت عن إصلاحها؟

ـ لقد حاولت ذلك إرضاء للمروءة ولكني لم أفلح، لقد قضيت أسابيع طوال يؤرقني القلق وتعذبني الحيرة، حتى حدث أخيراً ما قطع الشك باليقين . . .

ـ آه! . . .

ـ نعم . . . ولهذا فقد تمكنت أن أتحرر من سلطانها ونفوذها الشيطاني.

ـ وكيف؟؟

ـ طلقتها منذ أيام . .

ـ يا لها من تعيسة!

ـ لا يا نقاء! إن التعاسة تحتاج إلى شعور وإلى قلب وإلى كرامة، أما هذه فلا تملك شيئاً من هذه الأمور، ولهذا فهي لن تكون تعيسة مطلقاً.

فاستغربت نقاء ذكره لاسمها وهي لم تخبره به من قبل، فسألته في استغراب قائلة:

ـ من أين تعرفت على اسمي؟ فأنا لم أذكره أمامك على ما أظن.

ـ أبداً فقد كنت حريصة على أن لا تذكريه، ولكن سعاد هي التي ذكرته لي.

فبغتت نقاء وسارعت تقول:

ـ سعاد! ومن تكون سعاد هذه؟

ـ إنها زوجتي السابقة التي حدثتك عنها منذ دقائق، إنها الشيطان بعينه، ليتك كنت رأيتيها لتعرفي ما أقول. . .

وغرقت نقاء في فكر عميق. . . أتكون سعاد هذه بنت خالتها هي؟ أيكون هذا الرجل هو زوجها محمود؟ ولم يسعها إلا أن تسأل بارتباك.

ـ كم هي المدة التي قضيتها معها بعد الزواج؟

ـ أربع سنوات، عشنا ثلاثة منها في أوروبا.

ـ في أوروبا!

ـ نعم، ولم نرجع إلا قبل بضع شهور. . .

ـ آه. . .

ـ ماذا؟

ـ لا شيء..

ـ هل أزعجك حديثي عن سعاد؟

ـ لا، أبداً...

ولكن محمود عرف أنها ليست على حالها الطبيعي، ولكنه لم يعرف لذلك سبباً، فعاد يقول:

ـ نعم إن سعاد هي التي ذكرت اسمك لي.

ـ وبماذا كانت تذكرني؟

ـ أنا لم أصارحك بالحقيقة بعد... ولا بد لي أن أصارحك بها مهما كلفني ذلك من آلام: إن سعاد هي التي دفعتني إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفظيع.. فقد صورتك لي على صورة هي طبق الأصل لصورتها الواقعية، وكانت المادة تعمي بصري وتسيرني بسلطانها، فصدقتها بما ادعت وأنت تعلمين النتيجة...

ـ أو عملت سعاد هذا كله؟! هل حقاً أنها هي التي كانت تدفعك إلى ذلك؟!

ـ إي وربي! وقد أعطتني أوصافك لأتعرف عليك في المطار.

ـ يا لها من امرأة؟!

ـ نعم، يا لها من امرأة!

ـ لم أكن أظن أنها سوف تنزل إلى هذا المستوى.

ـ أكنت تعرفينها من قبل؟

ـ نعم إنها بنت خالتي!

ـ بنت خالتك! إذن فأنت تلك الفتاة التي كانت تحدثني عنك...

ـ عن تأخر أفكاري ورجعيتي في الحياة.

ـ تماماً.

ـ ولكن...

ـ ولكن ماذا؟ وهذه آخر صفحة عار من حياتها اكتشفتها الآن عن بنت خالتك، وهي تقف مثل هذا الموقف المشين، حقاً لست أدري بماذا ينبغي أن أصف هذا الجرم الفظيع!.

ـ وإذا أردت أن تكون رجل اليوم فلا تصفها بأي شيء واتركها ومصيرها المظلم.

ـ ولكنها بلغت من الدناءة...

ـ أرجوك يا أخي محمود لاتأت على ذكرها بعد الآن، يكفيها من تلاقي من آلام.

ثم سكتت نقاء وهي لا تكاد تصدق ما سمعته بأذنيها منذ لحظات، ولا تعرف لذلك سبباً، أي بغضاء هائلة هذه التي بعثت سعاد إلى إلقاء هذه الأحابيل، فهي لا تذكر أنها أساءت إليها يوماً ما، ولم يشأ محمود أن يقطع عليها سلسلة تفكيرها، ولكنها نظرت إلى ساعتها ثم نهضت وهي تقول:

ـ إن علي أن أذهب إلى البيت، فلدي موعد مع بعض الصديقات فنهض محمود أيضاً، وقال: .

ـ هل لي أن أسأل عن موعد قدوم السيد ابراهيم، وعن السبب في سفره إلى باريس؟

ـ أما السبب فهو تقديم الأطروحة للحصول على شهادة الدكتوراه، وقد حصل عليها، وأبرم عقود جديدة مع بعض الشركات الأجنبية ليحصل على وكالات لبيع منتوجاتها هنا، وأما موعد قدومه فهو في صباح يوم الأربعاء في الساعة الثانية عشرة.

ـ أيمكن لي أن أكون من جملة المستقبلين؟

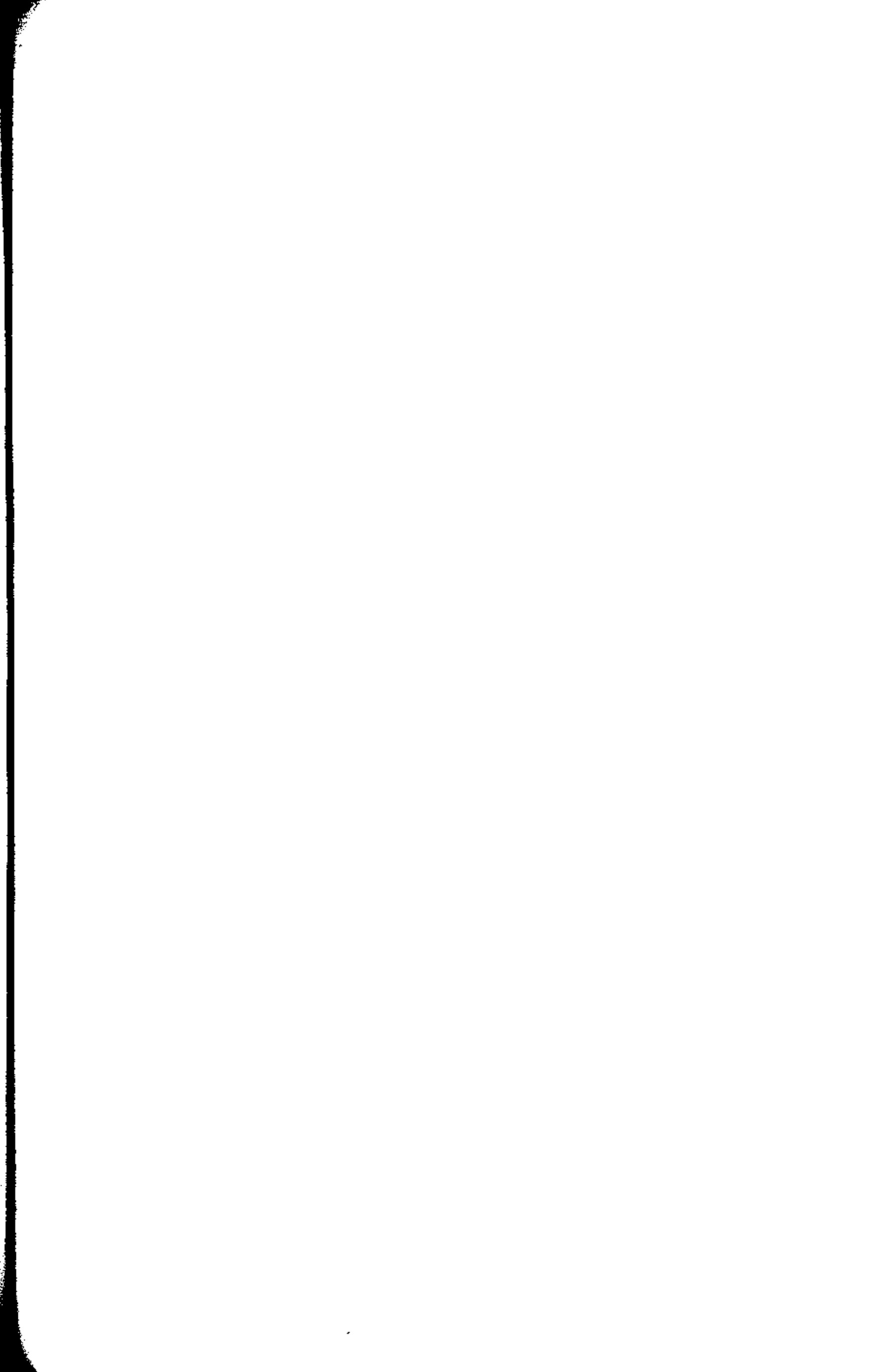
ـ طبعاً فقد كتبت له عنك وحدثته عن جميع التطورات . . .

ـ يا لك من شخصية نادرة، أيمكن أن تصل ثقتي بنفسي يوماً ما إلى هذا المستوى؟

ـ نعم، إذا استضاءت جميع جنبات روحك بنور الايمان.

ـ إذن فأنت تسمحين لي بالذهاب إلى المطار؟

ـ وبكل ترحيب.



الخاتمة

وفي صباح يوم الأربعاء كانت نقاء تقف في المطار وهي تنتظر وصول الطائرة التي تقل إبراهيم، وكان لدى استقباله عدد كبير من أصحابه وأصدقائه، وقبل وصول الطائرة بقليل وصل محمود وكان بادي الارتباك لعدم معرفته بأحد من المستقبلين. . وبدت في الأفق الطائرة التي تقل ابراهيم وبعد دقائق حطت على أرض المطار. . . ونزل منها إبراهيم وقد علت وجهه ابتسامة عريضة، وحيى بيديه مستقبليه، ثم توجه نحو الجمارك، وهنا تقدم محمود ناحية نقاء وسألها قائلاً:

ـ أتظنين أن وجودي سيغضبه يا نقاء؟

ـ على العكس، فهو سيسر لمرآك وسيسعده أن يجدك في استقباله كأخ. . .

ووصل إبراهيم فصافح مستقبليه بحرارة، وكانت نظراته المعبرة تحمل لنقاء معان كثيرة، أغنته عن البيان، وتولت نقاء تعريف محمود فقالت:

ـ إنه السيد محمود الذي حدثتك عنه في رسائلي.

ـ فصافحه ابراهيم مرة أخرى وهو يقول:

ـ تشرفنا يا أخي محمود، لقد حدثتني نقاء عنك كثيراً...

وعلت حمرة الخجل وجه محمود، فلا بد أن تكون نقاء قد كتبت لابراهيم عن كل شيء، ماضيه وحاضره... وعند باب المطار تقدم محمود طالباً من إبراهيم السماح له بإيصالهم إلى البيت، فتلقى إبراهيم عرضه بسرور، ولأول مرة ركبت نقاء سيارة محمود، ولكن في صحبة ابراهيم... ومضى محمود يقود سيارته ببطء، وبعد مدة قصيرة التفت إلى إبراهيم وقال:

ـ أتعلم يا دكتور! أن الأخت نقاء قد اخرجتني من الظلمات إلى النور، ورفعتني من حضيض الخطيئة إلى أفق الفضيلة...

ـ دعك من هذا يا أخي، فهي لم تقم إلا بواجب مقدس يفرضه دينها، ويدعوها إليه شعورها الانساني، دع الماضي يذهب في سجل التوبة...

ـ نعم وأنا أحاول ذلك جاهداً، وسوف يتسنى لي هذا بعد أن تخلصت نهائياً من سعاد.

ـ سعاد!.

ـ نعم، سعاد زوجتي السابقة، التي كانت السبب غير

المباشر لهدايتي إلى مطلع النور، كانت تقدر أنها تبعثني نحو الظلام، ولكن النور هو الذي كان ينتظرني هناك.

وهنا أردفت نقاء قائلة:

ـ أنا لم أزل أجهل الكثير يا سيدي! فلم أفهم حتى الآن الداعي الذي دعا سعاد إلى تلك المناورة مع أنها...

ثم سكتت نقاء، فلم تكمل جملتها.

ولكن إبراهيم كان يتابع كلماتها باهتمام، فلما سكتت سألها في لهفة:

ـ مع أنها ماذا؟

ـ فقد خيل له ـ إلى إبراهيم ـ أن سعاد هذه ليست سوى سعاد بنت خالة نقاء، وجاءه جواب نقاء مؤكداً لظنه:

ـ مع أنها بنت خالتي!.

ـ آه، وهل أساءت إليك إساءة شخصية سعاد هذه؟

وهنا تولى محمود الجواب فقال:

ـ انها لم تسىء إليها مطلقاً، وإن حسبت أنها تسيء، فإن لدى السيدة نقاء جيوشاً تقيها شر سعاد وأمثال سعاد، إن سعاد هي التي دفعت بي نحوها لأخطىء، فجعلني كما لها أتطلع نحو الكمال، ولكن لم أتمكن أن أفهم لحقدها الأسود هذا سبباً.

وهنا أردفت نقاء قائلة:

ـ ولا أنا أيضاً.

فأجاب إبراهيم بنبرة صارمة تنبض بالألم والكراهية:

ـ ولكني أنا أعرف يا نقاء! نعم أنا أعرف يا محمود! فهي لم تكن تقصد نقاء بهذا الحقد، ولكنها كانت تقصدني أنا، كانت تريد أن تنتقم من نقاء، فظنت أنها تتمكن أن تنال من المثل والمفاهيم التي نؤمن بها أنا ونقاء، ولكن فاتها أن جيوش العقيدة تحمينا من كل كيد، وتدفع عنا أي سوء.

واتسعت حدقتا نقاء وهي تستمع إلى إبراهيم، وسألته قائلة:

ـ وأي شيء تنقمه عليك سعاد يا إبراهيم؟!.

ـ عرفتني قبل سنوات، وحاولت أن تلقي حولي شباكها بشتى الأساليب، ولما فشلت نقمت علي وهالها أن تراني قد انتصرت عليها بقوة العقيدة والايمان، فأرادت أن تحطم عقيدتي، وتسحق كبرياء روحي، وكنت أنت يا نقاء سبيلها إلى ذلك...

وهنا خرجت الكلمات متقطعة من فم محمود، وهو يقول:

ـ يا لها من امرأة في كل يوم تنكشـ سجل حياتها صفحة جديدة، خطت كلماتها بحروف من. . .

ثم سكت محمود، فقالت نقاء:

ـ أحقا أنها كانت تهواك يا إبراهيم؟!.

ـ الآن فقد عرفت سبب الحملات الظالمة التي كانت تشنها عليك يا لها من مسكينة.

وكاد أن يصرخ محمود وهو يقول:

ـ ألا تقفين في طيبتك عند حد، ألِمثل سعاد يقال مسكينة!.

ـ إنها بشر يا محمود!

ـ ولكنك أنت فوق البشر يا أختاه!. .

ـ لا، أنا لست فوق البشر، ولكني أرثي لحال هذه المسكينة، وأرى أن أحد أسباب انحرافها يعود إلى المجتمع المنحرف، وإلى انعدام القيم الاسلامية فيه، ولو أنها كانت في مجتمع فاضل، وأنشأت فيه نشأة إسلامية صحيحة، وهذبت تهذيباً روحياً حقيقياً، لما وصلت إلى هذا الدرك، فالمجتمع الفاسد يقدم كثيراً من الضحايا وأكثر ضحاياه من النساء، لأنهن أعجل تأثراً وأسهل انقياداً، وفعلاً، فقد انقادت هذه المسكينة إلى ألوان الاغراء التي يضج بها مجتمعنا المتناقض.

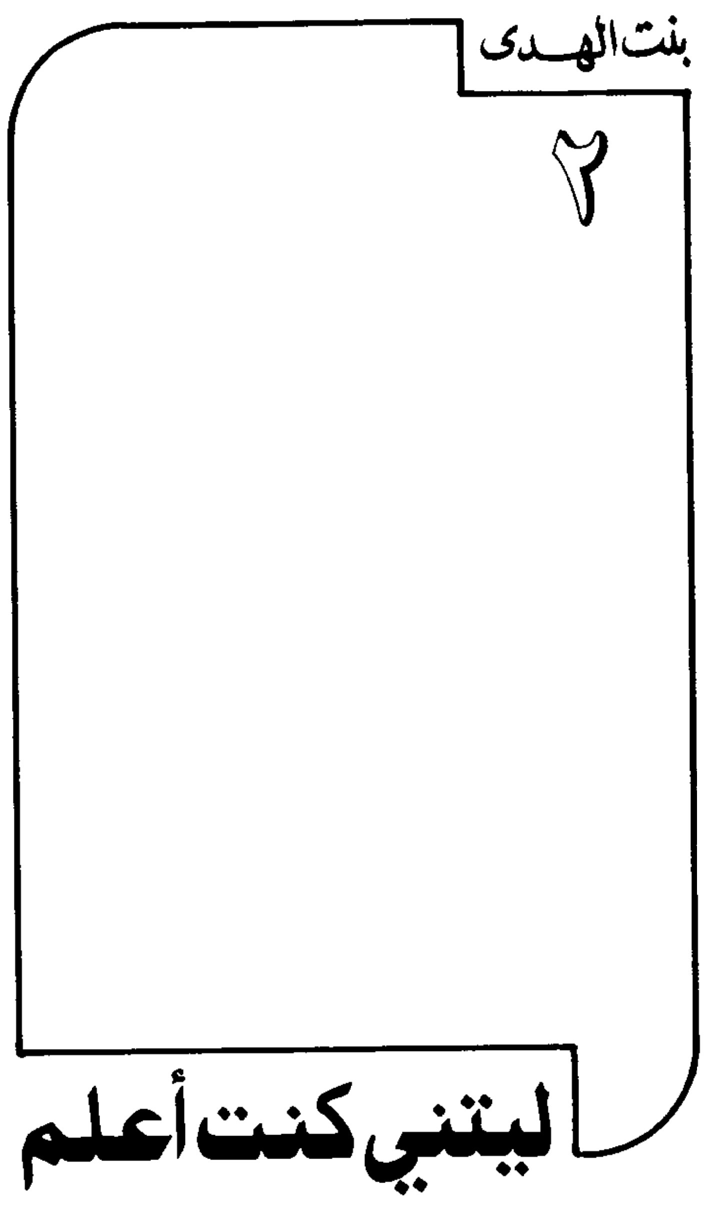
فضحك محمود، وقال:

ـ لا زلت تصرين على أنها مسكينة؟

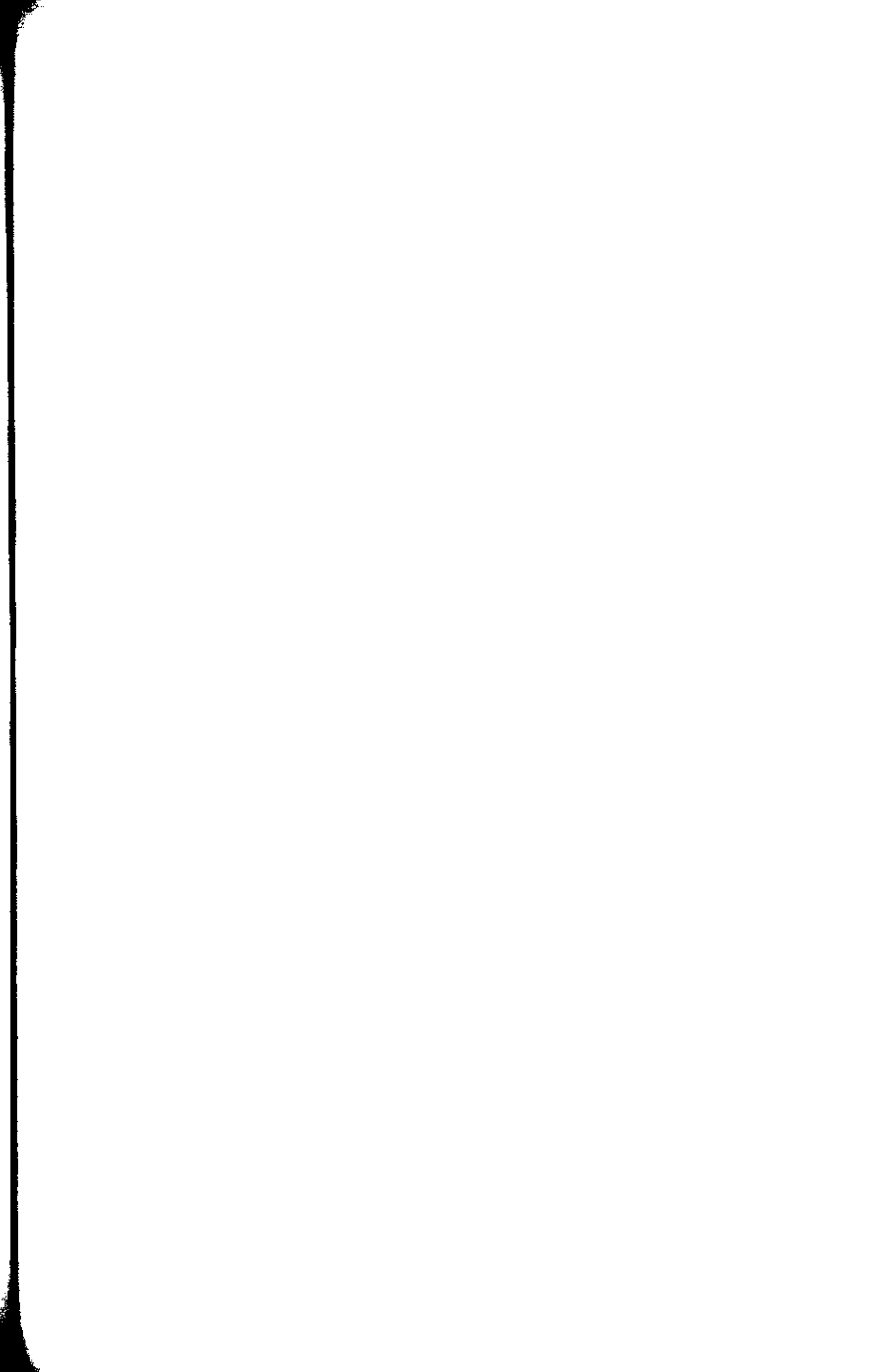
فابتسم إبراهيم، وربت على كتف محمود وهو يقول:

ـ دعها يا أخي فهي نقاء!.

ـ نعم إنها نقاء...



ليتني كنت أعلم



كانت القصة والحكاية في الأيام الدابرة هواية بحتة للشباب والفتيات وترف أدبي يلتجىء إليها بعض الأدباء والقصاصين للترفيه على الإنسان الذي يرزح تحت أعباء مشاكل الحياة والتسلية للهارب عن الواقع المعاش الكئيب.

ولكنها غدت فناً جميلاً يفصح عن مغزىً يهدف إليه الروائي من ثنايا الرواية والقصة فكم من فلاسفة قد أعربوا عن وجهات نظرهم الفلسفية عبر القصص؟ وكم من العابثين والمستهزئين بالقيم والأخلاق أو التقاليد والأعراف قد حققوا رغباتهم وميولهم في الكتب الروائية؟ وكم من المخلصين والمرشدين قد وجهوا المجتمع وأنقذوا الشعب من الانحطاط والرذائل من خلال الحكايات والأحاديث العذبة الروائية؟.

لقد أصبحت القصة مدرسة هادفة يقصدها كثير من الكتّاب المعاصرين لبلوغ مآربهم الاجتماعية والفلسفية والأدبية.

إن الفاضلة الكاتبة بنت الهدى من المؤلفات التي انتهجت هذا المنحى لرسم طريق الهدى في كتبها الإسلامية. وقد وضعت مجموعة من القصص الصغيرة الرائعة ذات المضامين الاجتماعية والأخلاقية للجيل الناشىء الذي لا يبصر إلا الظواهر ولا يدرك إلا البريق الخاطف.

وفي هذا اليوم أقدم لكم هذا السفر الهادف لهذه الكاتبة القديرة لعل الله بهاته ينقذ هذه الطليعة من التيه والفساد.

الناشر

ليتني كنت أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم

جلست (أنفال) في عيادة الطبيب، تنتظر نتيجة الفحص، وكانت تستعجل الوقت لأنها مدعوة إلى حفلة! لم تكن تفكر في طبيعة النتيحة بقدر ما كانت تخشى من تسرب الوقت وفوات موعد الحلاقة، فهي لم تكن تجد في التحليل الذي تنتظر نتائجه سوى إجراء احتياطي جاء نتيجة رغبة الأهل واهتمامهم بأمرها، وإلا فهي لا تحس بأي عارض مخيف، ولا تستشعر من المرض ما يريب، عدا بعض الآلام الطفيفة في المفاصل، وأخيراً استدعيت إلى غرفة الطبيب، فدخلت عليه وهي مستعجلة إنهاء الأمر، والاسراع في الخروج، وفوجئت عندما دخلت بسحابة من كآبة ترين على وجه الطبيب، الشيء الذي دعاها أن تقول عندما سألها:

هل أنت صاحبة التحليل؟

كلا إنها ابنتي.

فقد أرادت أن تعرف الحقيقة، ولعله سوف يتحفظ معها لو عرف أنها صاحبة التحليل، ووقفت أمامه تنتظر، فأشار

إلى كرسي هناك، وطلب منها أن تجلس فجلست، وقد بدأ الوجل يتسرب إلى نفسها، وتطلعت إليه في لهفة، ولكن ليس من أجل الخروج في هذه المرة بل من أجل فهم الحقيقة.

قال:

لماذا لم ترسلوا رجلاً بدلاً عنك لأخذ النتيجة يا أنسة؟

قالت:

لأنني كنت مارة من هنا ولهذا لم نجد ما يستدعي إرسال سواي ثم أنني أتمكن أن أسمع الحقيقة مهما كانت.

فسكت الطبيب وهو ينظر إليها في جد مشوب بالأسف ثم قال:

إن هذا يؤكد أنك فتاة مثقفة فاهمة لطبيعة الحياة.

قال هذا ثم سكت، فسرت في جسمها رعدة من الخوف وتساءلت:

كيف؟ وماذا تعني يا دكتور؟ قال إن نتائج التحليل تشير إلى وجود مرض في الدم.

قال هذا ثم سكت وأطرق في أسى، فلم تجد أنفال

حاجة لأن تستزيده أو تستوضحه أكثر، فرددت في فزع قائلة (سرطان)؟

ولم يرفع الطبيب رأسه وبقي ساكتاً في ألم من أجل هذه الأخت المصابة، وكان هذا السكوت بمثابة حكم بالاعدام عليها فغمغمت تقول في شبه حشرجة:

آه لقد انتهيت إذن...

وهنا عرف الطبيب أنها كانت تكذب عليه.. نعم عرف ذلك ولكن بعد فوات الأوان فرفع إليها وجهه ونظر نحوها نظرة حنو وقال:

اني آسف، لماذا كذبت علي يا بنتاه؟ ولكن وعلى كل حال فإن الموت والحياة بيد الله وكم من مريض عاش وصحيح مات؟

وكانت (أنفال) تشعر أن روحها أخذت تغور إلى الأعماق وأن يداً فولاذية امتدت لتشد على قلبها فتعصره في قساوة ولكنها استجمعت فلول قوتها وهي تقول:

أرجو المعذرة يا دكتور وشكراً.

فرد عليها الطبيب مشجعاً:

كوني قوية ومتفائلة، فإن الطب لا يزال

في تقدم ولعل المرض الذي لا يوجد دواء
له اليوم سوف يوجد دواؤه غداً ولهذا فإن
الأمل لا يزال موجوداً وسوف أبحث عن
أحدث الأفكار الطبية لعلني أجد الدواء
المطلوب ولهذا فانا أرجو أن تتركي لي رقم
تليفونك يا بنتاه.

وبطريقة روتينية ذكرت له رقم الهاتف فهي لم تكن تعي
ما تقول أو ما يقول فقد كانت تعيش آثار الصدمة في عنف
ومرارة ثم أعادت عليه كلمة الشكر وخرجت.

وفي البيت... كتمت الحقيقة فلم تكن تعرف أو تقوى
أن تتحدث عنها ثم إنها وجدتهم في شغل عن ذلك
بالاستعداد للذهاب إلى الحفلة... وسألتها أمها قائلة:

ألم تمري على الدكتور يا أنفال؟ ثم لماذا لم تذهبي إلى الحلاقة؟

كان السؤال عابراً غير منتظر للجواب ولهذا فقد ردت
عليها باقتضاب قائلة:

لأنني سوف لن أذهب إلى الحفلة، قالت
هذا وصعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب
من الداخل ثم استلقت على السرير وهي
بكامل ملابسها وأصوات أهلها تصلها
وكأنها تأتي من وراء بعد ساحق وكان

صوت الريح يطرق أذنها فتجد فيه عزفاً
جنائزياً حزيناً وكأنه العويل الذي ينعى
إليها شبابها وحياتها الفتية. . .

حتى غرفتها الحبيبة إليها أصبحت تجد أنها غريبة فيها ما دامت راحلة عنها بعد قليل والبيت؟ أنها أصبحت ضيفة في هذا البيت وسوف تتركه مجبرة لكي يحل آخرون مكانها فيه يذكرونها فترة ثم ينسونها بعد حين، وحاولت أن تبكي فلم تسعفها الدموع فهي تريد أن تفكر ولا تريد أن تبكي وتلفتت حولها في ألم. . . وجدت الستائر التي بذلت الكثير من الجهد حتى حصلت عليها والتي فتشت عن أحلى وأحدث تصميم لخياطتها، هذه الستائر سوف تبقى لتذهب هي إلى غير رجعة فماذا يهمها الآن لو كانت من خام أو كتان؟ أنها ذاهبة عنها ومخلِّفتها لسواها، ليتها ما بذلت الجهود من أجلها، ليتها وفرت ذلك الوقت والمال لشيء يفيدها في محنتها هذه، وهنا بدأت تفتش في ذاكرتها عن شيء لعله يفيد ماذا؟ أن لديها كل شيء الشباب. والجمال والثقافة والمال والأثاث والرياش. ولكن هل يفيدها شيء من ذلك أو يدفع عنها خطر الموت؟ إنها كانت تتمنى لو تصبح موظفة تتقاضى راتباً شهرياً محترماً وها هي الآن موظفة تتقاضى راتباً ولكن هل سوف يستنقذها راتبها من الموت؟ وهنا خطرت لها فكرة سارعت إلى التليفون وكان البيت قد أصبح خالياً إلا منها فقد ذهب الجميع إلى الاحتفال فاتصلت بطبيبها وتساءلت في لهفة قائلة:

لو ذهبتُ إلى الخارج هـل سوف أجـد
علاجاً شافياً هناك؟

قال:

ليس هناك من جديد أنها أتعاب وخسارة
بدون فائدة...

فـأغلقت السكة وجلست عـلى المقعد بجـوار الهـاتف متهالكة... حتى راتبها لا يغير من الواقع شيئـاً... ثم نهضت تتجول في أرجاء البيت وكأنها تريد أن تودع هذه المعالم الحبيبة اليها وألقت نظرة على الحديقـة وقالت ليتهـا تعلم، ليت هـذه الأشجـار تعلم أنني راحلة. ليت هـذه الأحجـار تفهم أنني راحلة ليت هذه الجـدران تعرف أنني راحلة وأنني سوف لن أبدو متنقلة بين جوانبها بعد الآن، ليت هذه الأبواب تفهم بأنني راحلة وأن يدي التي كانت أول فاتح لها سوف لن تفتحها بعد اليوم، ليت هذه الـروض يتمكن أن يستوعب معنى أنني راحلة، وهذه الأزهار التي غرستها يداي في التربة مستهينة بجميع ما كلفني ذلك من وغزرات شوك مدمية أو صلابة صخور متحجرة هذه الزهور التي طالما سقيتها من عرق جبيني إذا انقطع عنها الماء ورويتها من دموع عيني متى ما لاحت عليها علامات الذبول. أما الآن فليتها تعلم بأنني راحلة، هذه الأشجار المثمـرة التي استلمتها صغيرة ضعيفة فأمددتها بما وسعني من عناصر الحياة

والرواء حتى اهتزت وربت وأنبتت نباتاً حسناً، هذه الأشجار أتراها تفهم بأنني راحلة أو تراها سوف تذكر احتضاني لها أيام زمان حينما كانت لي معها أيام؟ آه ليتها تعلم وليتها تفهم، ثم هذه المقاعد التي كانت تحتضن رأسي تارة وتسند ساعدي أخرى أتراها تحس بأنني راحلة عنها عما قريب، أم تراها سوف تستبدل بي غيري وتمهد الجلوس لسواي ومنضدتي هذه التي كتبت فوقها بالدموع مرة وبالبسمات مرات أتراها تعلم بأنني راحلة؟ وهل تفتقد رنة قلمي فوقها وموضع أوراقي داخل جرارها، آه ليت كل ما حولي يعلم بأنني راحلة... ثم (ليتني كنتُ أعلم) بأنني راحلة إذن لما عشت الحرص على الدنيا ولما استشعرت الفخر والغرور، نعم ليتني كنت أعلم بأنني ضيفة في هذه الدنيا اذن لما خدعتني بخداعها ولما غرتني بزخرفتها. (ليتني كنت أعلم) إذن لعرفت أن الرحيل عن حياة بسيطة هو أسهل من الرحيل عن حياة منعمة مترفة، لو لم أكن أعيش هذا الترف لكانت النقلة من هذه الحياة إلى تلك الحياة أسهل بالنسبة إليّ، إن أهلي الآن في الاحتفال... هذه الاحتفالات التي كثيراً ما كنت أنتظرها في المناسبات وأعد من أجلها الفساتين وأفتش بسببها عن أحدث التسريحات هل أغنت عني شيئاً من طربها وسرورها؟ وهنا تهاوت أنفال على مقعد إلى جوارها وكأنها توصلت إلى حقيقة كانت تجهلها وقالت:

ماذا آخذ معي؟ وهل آخذ معي شيئاً

سوى الأكفان والأعمال؟ ولكن ما هي
الأعمال التي سوف تصحبني خلال هذه
الرحلة البعيدة؟ لا شيء! نعم لا شيء!

وسرح بها الفكر بعيداً إلى نصائح صديقتها سرّاء عندما كانت تحبب إليها طاعة الله قائلة:

﴿فَتَزَوَّدُوا إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ إنها حينئذ لم تكن تشعر بأهمية الزاد، أما الآن فهي في حاجة إلى زاد، في حاجة إلى عمل صالح تقدمه بين يديها أمام الله، بماذا تجيب يوم الحساب؟ كيف سوف تطلب الرحمة من ربها وقد عصته في أبسط الأشياء؟ كيف سوف تأمل العفو من خالقها وهي لم تستجب لأمره خلال مسيرتها في الحياة؟ ليتها كانت قد قرأت القرآن بدل الساقط من الروايات. ليتها كانت قد تعرفت على دينها عن طريق الكتب بدلاً عن طريق التعرف على مسارح هوليود عن طريق المجلات... واستمرت أنفال تقول ليتني ليتني ما أسخطت فلانة ولا اعتديت على فلانة، ليتني ما كذبت على أحد وما اغتبت أحداً، ليتني ما استكبرت على فقير ولا استعليت على مسكين، ليتني أعيش من جديد لكي أصحح أخطائي وأعمل ما يرضي ربي، لقد عبدت أهوائي ورغباتي وتجاهلت عبادة ربي، ليتني أعيش إلى فترة عسى أن أكفر عن سيآتي. وخطرت ببالها آية سمعت جدها يقرؤها يوماً:

﴿حَتَّى إذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وكأنها تناجي ربها بذلك... كلا أنها ليست كلمة عابرة أعني ما أقول يا رب... وهنا وخلال مناجاتها لرب الرحمة انبجست الدموع من عينيها بحرقة وغزارة وأسندت رأسها إلى يدها وأخذت تبكي. نعم تبكي ولكنه بكاء ندم وليس بكاء ألم، وصممت أن لو امتد بها العمر فسوف لن تعصى الله طرفة عين، ورن جرس الهاتف فقامت إليه متثاقلة ورفعت السماعة لتقول (نعم) وكان صوتها متهدجاً قد غيرته الدموع فجاءها صوت يقول:

هل أن الآنسة أنفال موجودة؟.

فعرفت أنفال الصوت، أنه صوت الطبيب! قالت:

نعم إنها أنا يا دكتور. فاندفع يقول في فرحة صادقة: تهنيك السلامة يا بنتاه، إنه اشتباه، أنك صحيحة سالمة والحمد لله...

وأذهلتها الكلمات فلم تعد تعرف بماذا تجيب ورددت وكأنها في حلم قائلة:

سالمة وكيف؟ لعلك تهزأ بي يا دكتور؟ قال: معاذ الله أن أكون هازئاً ولكنه

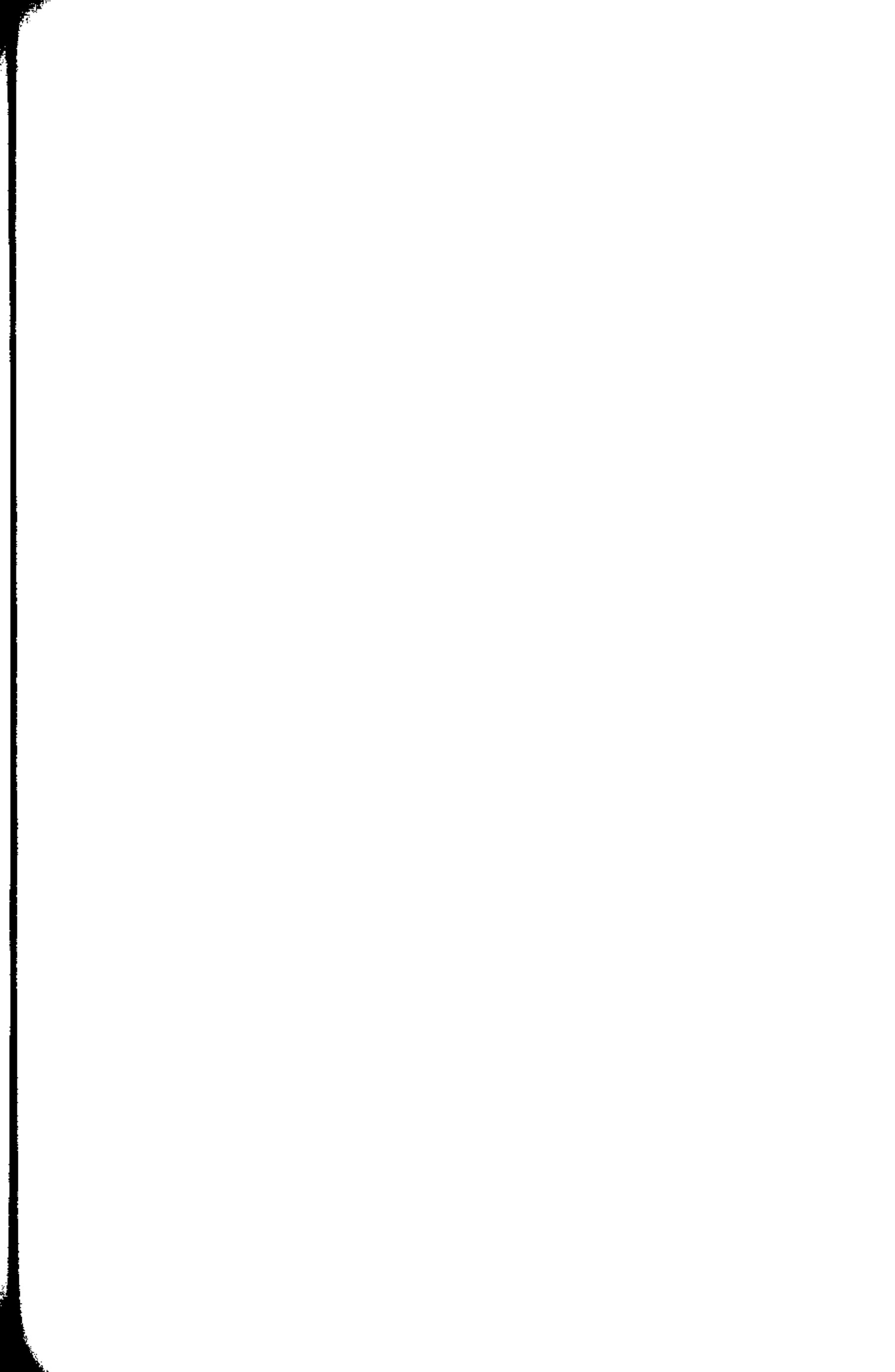
اعتذار وصلني الآن من المشرف على التحليل يشرح فيه أنه وقع في خطأ إذ سجل اسمك أمام اسم مريضة أخرى، وها هي نتيجة تحليلك سالمة من كل ما يضير فاحمدي الله على سلامتك يا بنتاه. . .

فرددت أنفال معه كلمات الحمد قائلة:

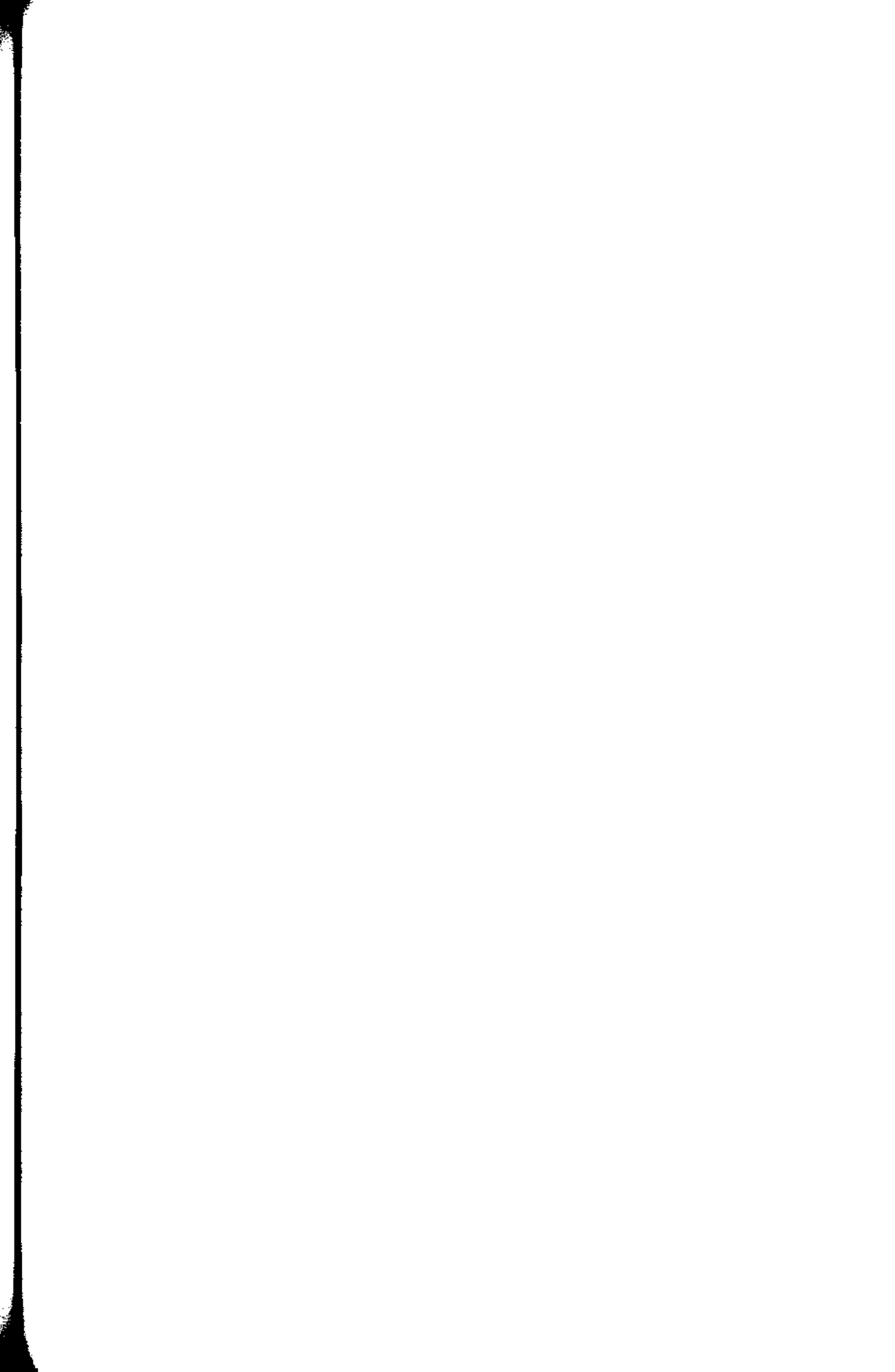
الحمد لله. وشكراً لك يا دكتور.

ثم أغلقت السكة وهي تحس بأنها تحيا من جديد وتذكرت ما عاهدت الله عليه وعرفت أنها إن نجت من موت معلوم الوقت فهي لن تنجو من موت مجهول الوقت وان الانسان ضيف في هذه الدنيا مهما طال به الأمد. . . فكان أول عمل قامت به أنها توجهت إلى القبلة لكي تصلي صلاة المغرب والعشاء بعد أن بعد بها العهد عن الصلاة، وحين انتهت من أداء الفريضة عاهدت الله من جديد أن تبقى متمسكة بكل ما أمرها به من صلاة وصيام وحجاب وأن تترك كل ما نهاها عنه، ولأجل أن لا تنسى فقد خطت هذه الآية المباركة وجعلتها على جدار غرفتها: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ووضعت في الجهة المقابلة الحكمة التي تقول: «تب

قبل موتك بيوم ولما كنت لا تعلم متى تموت فكن تائباً على الدوام».



صفقة خاسرة



جلس أمامها في وله لكي يقول لها:

بأنني أحبك إلى درجة العبادة، وبأنك
حياتي التي لا غنىً لي عنها...

صحيح أنهما كانا في بداية أيام الخطوبة ولكنه كان يؤكد لها أن الحب كالتيار الكهربائي الذي لا تحتاج انطلاقته إلى مزيد من المقدمات!! وكانت تستمع إليه في سعادة وتستشعر لكلمات الاطراء بشيء من الغرور قال:

أنه يود لو تم العقد في أقرب فرصة فهو لم يعد يجد للحياة معنىً بدونها! وقال أيضاً أنه يعجب كيف أمكن له أن يعيش سنيً حياته الماضية وهو بعيد عنها فهي قد أصبحت بالنسبة إليه محور السعادة ومنطلق الهناء! قال أنه سوف يستأجر بيتاً كبيراً فخماً يتماشى مع حجم السعادة التي يحسها، وقال أيضاً أنهما سوف يقضيان

شهر العسل في الخارج لأن حياة زوجية تقوم على مثل هذا الرصيد الضخم من الحب لا يناسب استهلالها إلا مصايف باريس!!

وكان يتحدث باندفاع ويملأ حديثه بكلمات الحب والاعجاب... وكانت هي سارحة وراء أحلامها التي بدأت تتحقق في شخص هذا الخطيب... وانتبهت على خصلات من شعرها أخذت تتطاير فوق جبينها فرفعت يدها إلى شعرها تصففه وهي تقول في دلال:

لكم كنت تتعجل الخروج بشكل لم أتمكن فيه حتى من ترتيب شعري؟ قال: أن شعرك جميل على أي صورة كان وأنت مرتبة على أي حال من الأحوال.

فابتسمت في زهو وكأنها أرادت منه المزيد فقالت:

حتى فستاني الجديد لم تنتظر حتى يصلني من الخياطة.

قال:

ألم أقل لك أن هذا لا يهم؟ أنا لا أهتم بأمثال هذه الأمور ما دام الهدف الحقيقي قد تحقق من حصولي عليك يا عزيزتي.

قالت في شيء من الحماس:

أتراك هكذا حقاً؟

قال: نعم وأقسم لك بحبي على صحة ما أقول.

قالت: إذن فأنا سعيدة إذا كنتُ أتمنى أن أحصل على زوج لا تهمه المادة...

قال: نعم أنني هكذا وسوف تلمسين بنفسك صدق ما أقول...

فتشجعت من جوابه وقالت:

نعم أن المادة هي عرض زائل وأنا لا أحسب لها في حياتي أي حساب ولهذا فقد تنازلت لأبي عن جميع ما كنت قد أدخرته من راتبي حينما وجدته في ضائقة مالية...

وهنا وعلى خلاف عادته في الاسراع في الجواب سكت برهة ولكنه استعاد نشاطه بسرعة وقال:

لطيف أن تمدي إلى أبيك يد المساعدة فأن الضائقة المالية قاسية لا تطاق ولهذا فأنا أشك بمقدرتنا على استئجار بيت كبير!!

قالت:

المهم في البيت أن يكون مريحاً سواء كان كبيراً أو صغيراً...

قال:

نعم وأن تكون فيه وسائل الراحة من ثلاجة ومكيف هواء وغسالة وأشباه ذلك..

قالت:

إن هذه حوائج تشترى بشكل تدريجي فنحن نتمكن في البداية أن نكون على شيء من البساطة لأن أبي كما لعلك تعلم لا يتمكن في الوقت الحاضر أن يساهم بشيء يذكر...

فأطرق برهة وهو يتشاغل بتوقيت ساعته ثم رفع رأسه في شيء من البرودة قائلاً:

إن البساطة لطيفة في كل شيء ولهذا فإن في إمكاننا أن نستغني عن السفر إلى الخارج!!.

قالت:

نعم ان هذا هو الأصلح سيما وأنني مرتبطة ببعض السلف والأقساط!!

وهنا لم يتمالك نفسه فقال بشيء من الحدة:

إذن فأن راتبك مستهلك على ما يبدو؟

قالت:

تقريباً...

فتململ في جلسته ثم قال:

وأنا أيضاً مرتبط بكثير من الديون والسلف ولهذا سوف لن أفكر في أمر الزواج حالياً!!

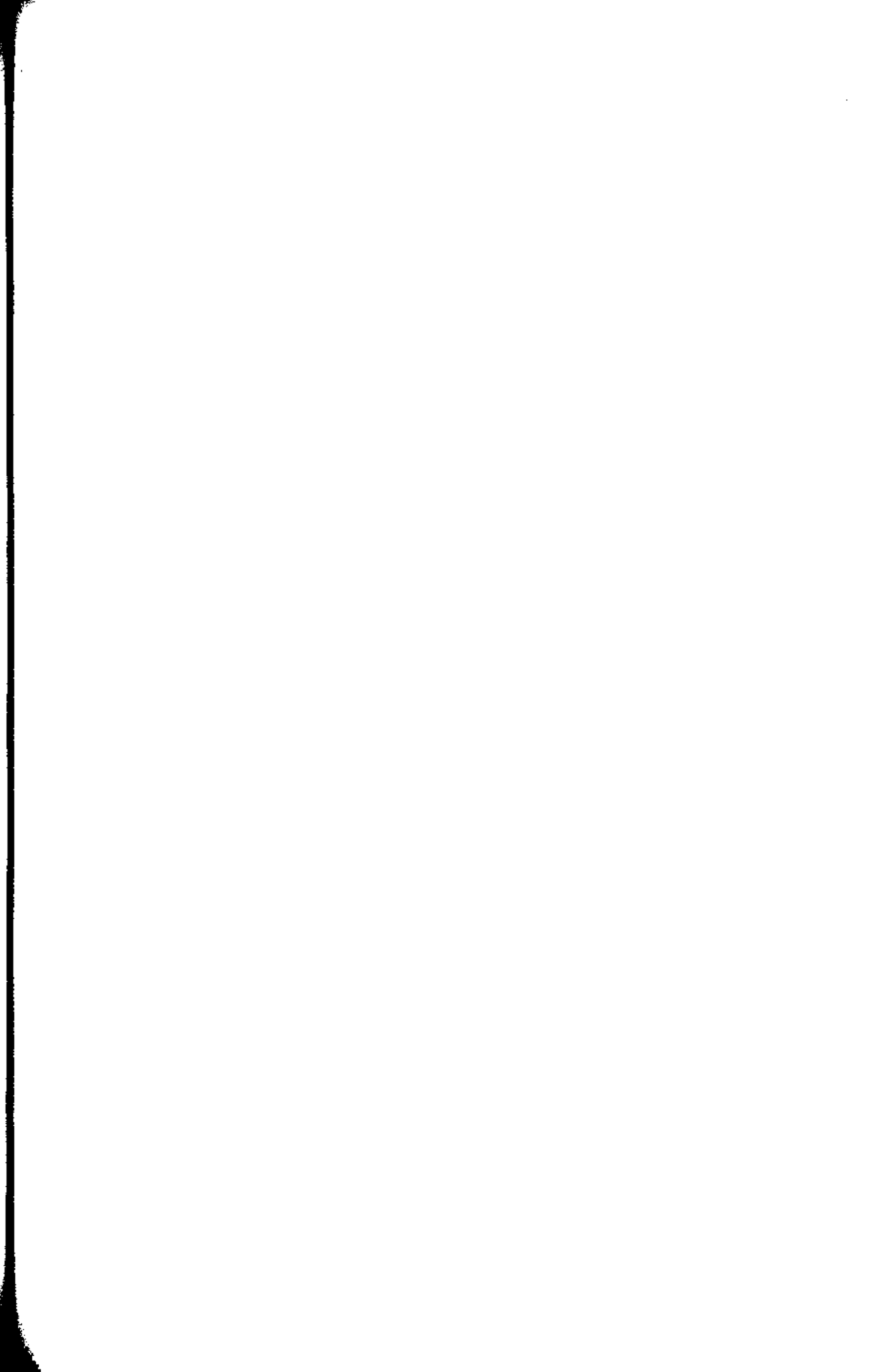
ثم نهض وهو يقول:

أخشى أن لا أتمكن من رؤيتك ثانية ولهذا أتمنى لك كل سعادة وموفقية!.

قال هذا ثم انصرف وكأنه هارب من وحش مخيف!! وكأن هذه لم تكن قبل قليل حبيبته التي لا يتمكن أن يحيا بدونها... وتقدم منها الجرسون يطلب دفع الحساب فعرفت أنه خرج حتى دون أن يدفع فحدثت نفسها قائلة وهي

تضحك: لقد كنت أظن هذا ولذلك حشدت له هذه المجموعة من الأكاذيب، إنه غبي، فقد فاته أنني كنت أختبره في ذلك وأن رصيدي في المصرف ضخم وأنني غير مرتبطة بأي سلفة ولكن الخير فيما وقع فقد كانت (صفقة خاسرة) بالنسبة إلي.

آخر هدية



كانت تعيش في قلق وانتظار، فماذا كانت تنتظر يا ترى؟ بعد أن رحل عنها الحبيب وفارقها القرين؟ لقد كانت تنتظر هدية! نعم هدية أرسلها اليها قبل أن يرحل وقبل أن يغلق عينيه الغاليتين عن هذه الحياة لفتحهما من جديد في عالم النور والخلود وهدايا الحبيب حبيبة مهما كانت لأنها التعبير المجسد للعواطف والمثال الناطق عن التجاوب والتقارب، ولكن هذه الهدية فريدة في بابها لأنها هدية زوج راحل أعدها لكي تصل إلى يد زوجته في وقت يكون هو فيه قد فارق الحياة... أنها ذخيرة واحدة من مجموع ما أمدها به من ذخائر ثمينة خلال أيام اللقاء... ولهذا كانت تنتظرها بفارغ صبر ولهذا أيضاً كانت تتساءل عمن عساه يعرف من أمرها شيئاً... لقد أخبرها بذلك قبل أن يرحل عندما كان يتدرب على خوض معركة الانتصار معركة الكرامة وأكاليل الغار ولكنه رحل قبل أن يسلمها إياها. نعم أنه رحل وتركها تنتظر عودته سالماً يحمل إليها معه هديته المنتقاة... ولكنه لم يعد، نعم أنه لم

يعد وأنّى له أن يعود؟ إن من يذهب إلى ساحة الحرب وهو مؤمن بقضيته التي يدافع عنها من العسير عليه أن يعود دون أن ينال إحدى الحسنيين:

(فأما حياة تسر الصديق
وأما ممات يغيظ العدا)

كثيرون أولئك الذين ذهبوا وعادوا للحياة... ولكن أتراها حياة هذه التي اشتروها بثمن باهظ من الانهزامية والتخاذل والاستسلام؟ كلا أنها الموت بعينه والله... وزوجها الراحل، هذا الشهيد الذي سقط في (معركة الكرامة) وهو يدافع عن أرضه المغتصبة، ودياره المباحة نعم زوجها الذي فارقها قبل أن تطفأ شمعة عرسه وودعها وزهرة زواجهما لم تتفتح بعد، هذا الحبيب الذي غرس في نفسها من قبل أن الروح الغالية حقاً هي التي ترخص أمام الواجب ولهذا خلفها وهي ما زالت ترفل في ملابس عرسها. وذهب إلى ساحة الجهاد، هذا الحبيب كان قد وعدها بهدية فما الهفها على استلام تلك الهدية الحبيبة لقد انتظرته طويلاً وهو في مكانه البعيد تتسقط أخباره وتتابع آثاره وتبتهل إلى الله أن يشد أزره ويضاعف صبره وثباته في مجابهة العدو... ثم ها هي الآن تنتظر هديته بعد أن خاب انتظارها لشخصه الحبيب بعد أن سقط شهيداً في معركة البطولة وملحمة الحق والكرامة، أفتراها تنسى أنه كان قد وعدها بهدية وأنّى لها أن تنسى؟

وقد نقشت صورته على صفحات قلبها بخطوط من نور زادها الموت بهاء ورداء... أنه فارس أحلامها حياً وميّتاً. أنها ما زالت تعيش معه وتعيش من أجله وهي فخورة به سعيدة لذكراه، إذن فمن حقها أن تنتظر الهدية وتترقبها في شوق وحنين... ثم وصلتها الهدية بعد فترة من الزمن قصيرة في حساب الأيام طويلة في حساب العواطف والأحداث... نعم لقد وصلتها الهدية فتطلعت نحوها وهي ما زالت في اليد التي حملتها اليها من بعيد... تطلعت إليها كما تطلعت إليه من قبل شهور وهي تراه لأول مرة كطيف ملائكي مشرق بالنور، وعادت بأفكارها إلى تلك اللحظات حيث كانت تتطلع إليه كأمل لحياة زوجية سعيدة وحيث كادت تهتف لولا رادع من حياء ـ أنه أمل حياتي وفارس أحلامي المنتظر ـ نعم إنه كان ولا يزال فارس أحلامها وأمل حياتها حتى ولو أنه ذهب ولن يعود. لأنه ذهب من أجلها هي، من أجل كل زوجة مظلومة. من أجل كل طفل بائس من أجل كل شاب تائه نعم أنه ذهب من أجل أن يعيد إليها وإلى كل فرد كرامته ووطنه السليب، ذلك الوطن المقدس الحبيب الذي أصبح نهباً للدخلاء والعملاء والمستعمرين، أفلا يحق لها أن تبقى تعيش معه ومن أجله كما كانت تعيش من قبل؟ وامتدت يدها تستلم الهدية وكل ذرة في كيانها تنطلق بالفرحة والحسرة وفتحتها أمامها وأطرقت ملياً تتطلع اليها ببلسم من بلاسمه التي طالما مسح بها على جراح قلبها من قبل فماذا كانت

المدية يا ترى؟ كانت لوحة خضراء كتب عليها بحروف بارزة هذه الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وعلقتها حيث يمكنها أن تفتح عليها عينيها في كل صباح وحيث تكون آخر ما تبصره عيناها في كل مساء تماماً كما كان هو من قبل... ثم وقفت أمامها لكي تعاهد الله وتعاهده من جديد بأنها سوف تبقى سائرة على الطريق الذي سار به من قبل حتى تجد أمامها راية الحق وهي ترفرف فوق الأرض المحتلة في فلسطين، ومتى عصف بها الشوق أو ضج بها الحنين تذكرت الآية المباركة لكي تكتسب منها مزيداً من الإطمئنان...

الأيام الأخيرة



وأحسـرتاه، لم أكن أعلم أن تلك كـانت هي أيامهـا الأخيرة وان ذلك اللقاء كان هو اللقاء الأخير، ليتني علمت ذلك... نطقت (سراء) بهذه الكلمات التي خنقت العبرات بعض حروفها وشاركت الشهقات البعض الآخر واستمرت تردد في يأس: ليتني علمت ذلك... وكانت صالحة لا تزال تقف أمامها بصمودها الذي ساعدها على حمل هـذا الخبر المشؤوم. فما كان منها إلا أن مدت إليها يداً حـاولت أن تجعلها ثابتة ولكنها كانت ترتجف وودت لو أنها دافئة وهي باردة كالصقيع، مدت إليها هذه اليد وهي تقول ما الذي كان يجديك يا (سرّاء) أنها جنبتنا جميعاً معرفـة أنها سوف تنتهي وآلام ذلـك واستقبلت حكم انتظار المـوت بصمـود وانطوت وحدها أهوال ذلك الانتظار، فماذا كان يجـديك معرفة ذلك يا سرّاء؟ قالت: لو كنت أعلم لتزودت منها زاداً يرشدني ويساعدني على شق طريقي في الحياة، ثم لألقيت

نظرة أخيرة أودعها جميع ما أكنه لها من حب وأحكي لها من خلالها قصة الود الصادق والوفاء الذي لا يزول. آه يا لضيعتي ببعدك يا أختاه؟ ما أراني إلا تائهة بعدك بين أمواج الحياة؟ وهنا عادت صالحة لتقول:

أنها كانت تعرف مكانتها لديك ولهذا فقد أوصت إليك بكتاباتها الأخيرة.

فانتفضت (سرّاء) ومسحت دموعها لتتطلع إلى صالحة وهي تتساءل:

كتاباتها الأخيرة؟

قالت صالحة:

نعم يبدو أنها كانت تكتب مذكرات... وها أنا قد سافرت اليك لأحمل لك هذه الوديعة الغالية.

قالت صالحة هذا ثم أخرجت من محفظتها دفتراً وقدمته إلى سرّاء. فمدت سرّاء يدها نحوه وهي ترتجف وسرعان ما طالعتها ورقة بيضاء قد ألصقت على غلاف الدفتر وهي تحمل هذه الآية المباركة ـ فرددت قائلة: إنَّا لله وَإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ ثم فتحت الدفتر لتقرأ على صفحته الأولى هذا العنوان (**الأيام الأخيرة**).

«الأيام الأخيرة»

بسم الله الرحمن الرحيم

بالأمس عرفت أنني سوف انتهي وبسرعة! عرفتُ أن حياتي أصبحت تعد بالأيام، فما هي إلا مسألة وقت فقط، وأنها النهاية على كل حال من الأحوال، نعم النهاية، ولكنني الآن لا أفكر بالنهاية كما أفكر في البداية وفيما يفصل بينهما من أحداث فإن ذلك يرتبط في الصميم مع الوضع الذي سوف تكون عليه النهاية، كما تقول الآية المباركة: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ إذن عليَّ أن أراجع نفسي وأحاسبها لأعرف ما الذي ينتظرني هناك؟ النور أم الظلمة؟ السرور أم الوحشة، القيود أم الانطلاق؟ ولهذا، فأنا الآن لا أفكر في النهاية كما أفكر في البداية ولكن ما هي البداية ومتى يحق لي أن أوقت بداية حياتي؟ هل يكون ذلك من زمن

الطفولة؟ ولكن كلا... فأنا لا أريد أن أكتب هنا قصة حياتي فأشغل بها الآخرين ولكنني احاول أن أصور مشاعري، مشاعر الانسان عندما يقف على مفترق طريقين. الحياة الأولى، والحياة الثانية. ولهذا فلا دخل لطفولتي في ذلك ولا ارتباط لها مع تحديد ما ينتظرني الآن... لأن الطفولة هي فترة المهلة التي أعطاها الله للانسان قبل توجيه التكليف إليه، ثم أن للطفولة بعض المعاني التي لم أتعرف عليها، فقد سمعت كثيراً عن الطفولة كما وقد قرأت الكثير عنها، قيل: أنها عالم زاخر بالمرح والانطلاق، عامر بالأماني والآمال، وقيل عنها أيضاً: أنها فرصة تتوفر خلالها أسباب السعادة للطفل لأنه سوف يكون سعيداً بما لديه راضياً عن حياته، نعم قيل هذا وقيل عنها ما هو أكثر من هذا وقد سمعت ما قيل وقرأتُ ما كتب ولكنني شخصياً لم أتعرف على معنى الطفولة كما يصورها الآخرون فلم تكن طفولتي بالنسبة لي سوى فترة من حياة خضتها بدون سلاح من تفكير أو

شد من إيمان فأرهقتني بآلامها وأربقتني بأحكامها وحيرتني بالصراع الذي كنت أعانيه بين نفسي الكبيرة وجسمي الصغير وبين مسؤوليتي الخطيرة وتفكيري الضعيف ولهذا فان الطفولة لا تعني بالنسبة لي إلا فترة زمنية جامدة غير معطاء، فلأدع محاسبة أيام الطفولة لأبدأ بدراسة ومحاسبة أيام الصبا والشباب...

الصبا؟ أنه شريط يمر أمامي وهو مثقل بالصور ينوء تحت وطأة ثقلها تارة ويتراقص لخفة حملها أخرى، أنه مسرح يحكي قصة النفس التي تاقت إلى التكامل فتلفتت حولها تفتش عن الخيط الذي يصل بها إليه ثم أردت أن أفهم، فلم أكن أرضى من فهم الحياة مجرد ظاهرها وإنما كنت أغور في الأعماق لأصل إلى ما أهدف إليه وأنشده، فهمتُ من الكون أن هناك يداً عظيمة تسيره وقوانين ثابتة تقدره فإذا به على هذا النسق وهذا الجمال... ثم سبرت أغوار النفوس... فكانت الحيرة وكان التردد بل وكانت التعاسة والخيبة في كثير من الأحيان كنتُ أبحث

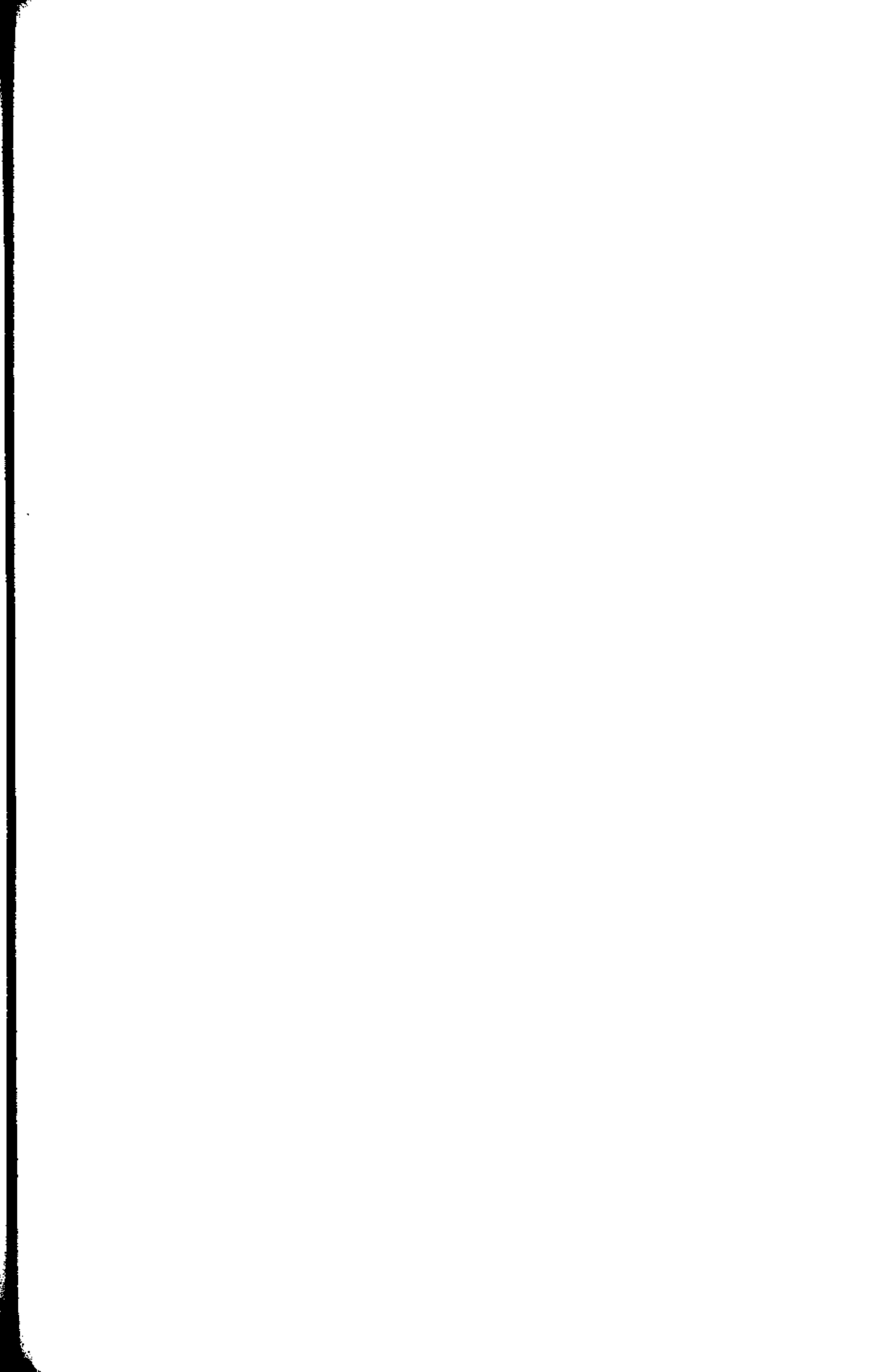
عندهم عن الحب لا الرياء، والصداقة لا الرفقة، والصدق لا الزيف، فكثيرا ما كنتُ أعود كليمة الفؤاد دامية القلب صريعة الدمعة. نعم كثيراً ما كنت أعود كليمة الفؤاد دامية القلب صريعة الدمعة. نعم كثيراً ما كنت أعود هكذا وليس دائماً والحمد لله. ولكنني في كل تجربة كنت استمد منها مزيداً من العلم ومزيداً من المعرفة بتلك الطبائع وتلك الخفايا... ومن ثم بقيت وأنا أطلب المزيد من الفهم والمزيد من المعرفة. فأين وجدتها يا ترى؟ وجدتها في معرفة اسلامي الذي به أدين ووجدتها في قرآني الذي أعرف أنه رسالتي السماوية في الحياة... فهرعت إلى هذا الرواء وأنا على لهفة الظمأ والحرمان، كانت هذه هي بداية فترة الصبا التي أحاول أن استعيد ذكرى أيامها في كتابة هذه السطور... نعم وساعاتها بكل ما زخرت به من سعادة وشقاء وسخط ورضاء لأرى مدى مسايرتي لكل ذلك دون أن انحرف عما رسمه الله لي في الحياة، وما أراني الآن وأنا واقفة على

أبـواب الآخرة إلا مـدفـوعـة إلى إقـرار الحقيقة مهما كانت، حقيقة مـوقفي من الأحداث وواقع تفاعلي معها على أساس الايمـان، لأن اللف والـدوران ومحـاولـة تغطية الحقائق سوف لن يجديني نفعاً وأنا في طريقي إلى المثول أمام الحاكم العادل حيث لا إنكار ولا إصرار، لا مغالطة ولا مـواربـة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إذن فلأكن صريحة في محاسبة نفسي ودراستها ولأكن واقعية في تلك المحاسبة! ولكن ألم أكن أعلم أن الموت خط على ولد آدم مخط القـلادة على جيـد الفتاة؟ ألم أكن سمعت من قبل قول إمامنا عليه السلام: «أيها الناس أنكم طرد الموت» إذن فلست وحـدي من ينبغي أن يتـوخى جـانب الصراحة في محـاسبة النفس ولكنـه كل إنسان!! نعم كل انسان عرف أنه وجد ليتكامل عن طريق العبادة ثم ليموت بعد ذلك فيجني حصاد ما قدمت يداه.

يـا آمـن الأيـام بـادر صـرفـهـا
واعـلـم بـأن الـطالـبـين حـثـاث



الفاقة المالية



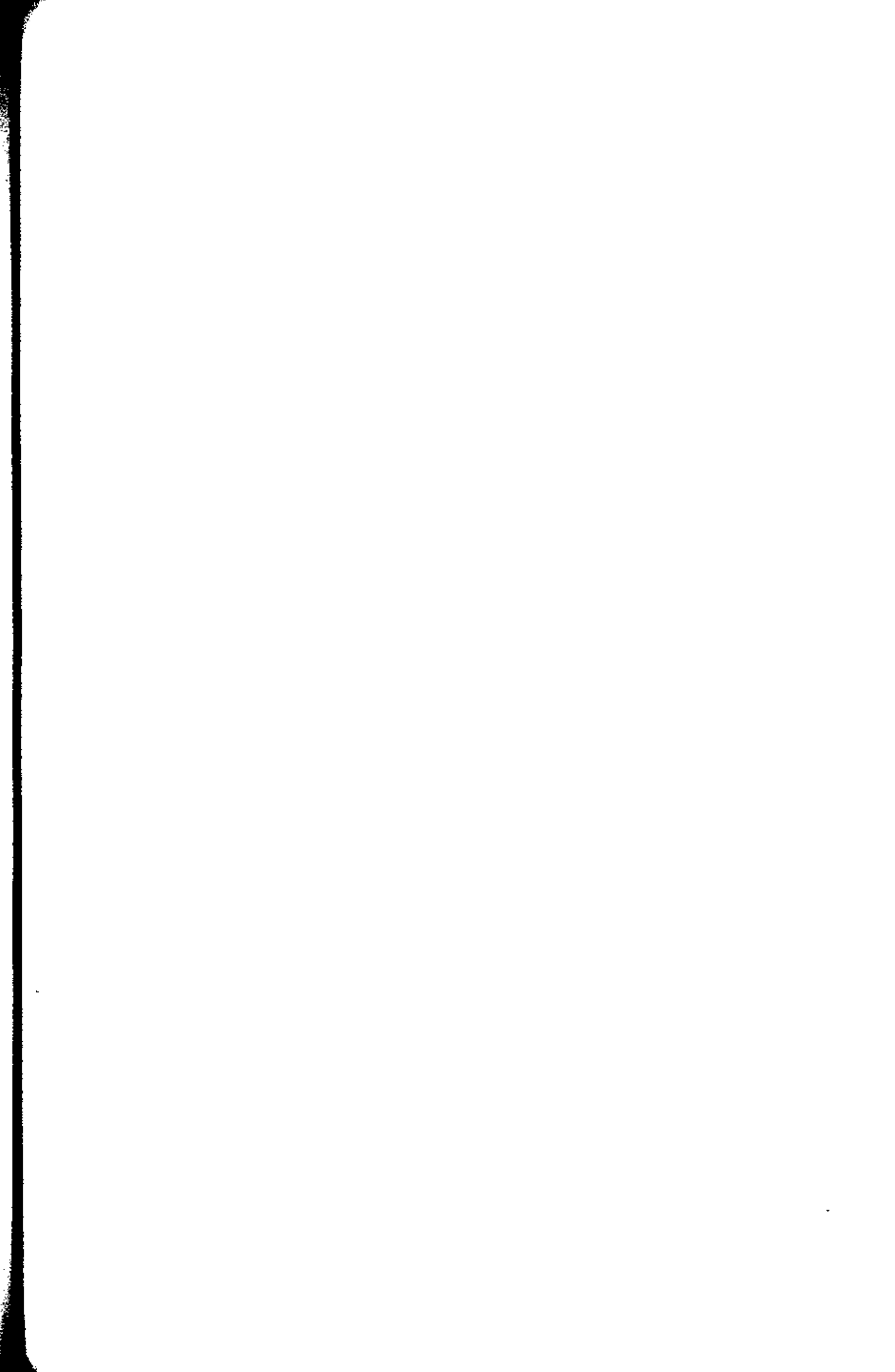
والآن، فللأقرار الحقيقة، لقد مررت في بداية عهد الصبا بضائقة مالية خانقة امتدت خيوطها نحو المـأكل والمشـرب والمسكن والملبس والفقر حالة قاسية يجر معه اشكالاً وأشكالاً من المـآسي والآلام فماذا كـان شعوري حـين ذاك؟ هـل ضعفت أمام الأزمة أم قويت حتى جعلتها تضعف أمامي؟ الواقع أنها كـانت تجربـة أشعرتني بـأهمية الايمـان في حياة الانسان وعلمتني مفهوم كلمة الرسول الأعظم التي تقول: (ليس منا من لم يتغنى بالقرآن) فالانسان وأي انسان مهدد لأن يتعرض لأزمة مالية أو فاقة مادية فأي حال سوف يكون عليه إذا لم يكن لديه غناء روحي واكتفاء ذاتي، وكلاهما لا يُوجدان إلا عن طريق الايمان الذي يرتفع بالفرد المؤمن عن المواد الأرضية ويعلمه كيف يكون سيد نفسه وسيد الآخرين.

هـب الـدنيـا تـسـاق إليـك قـسـراً

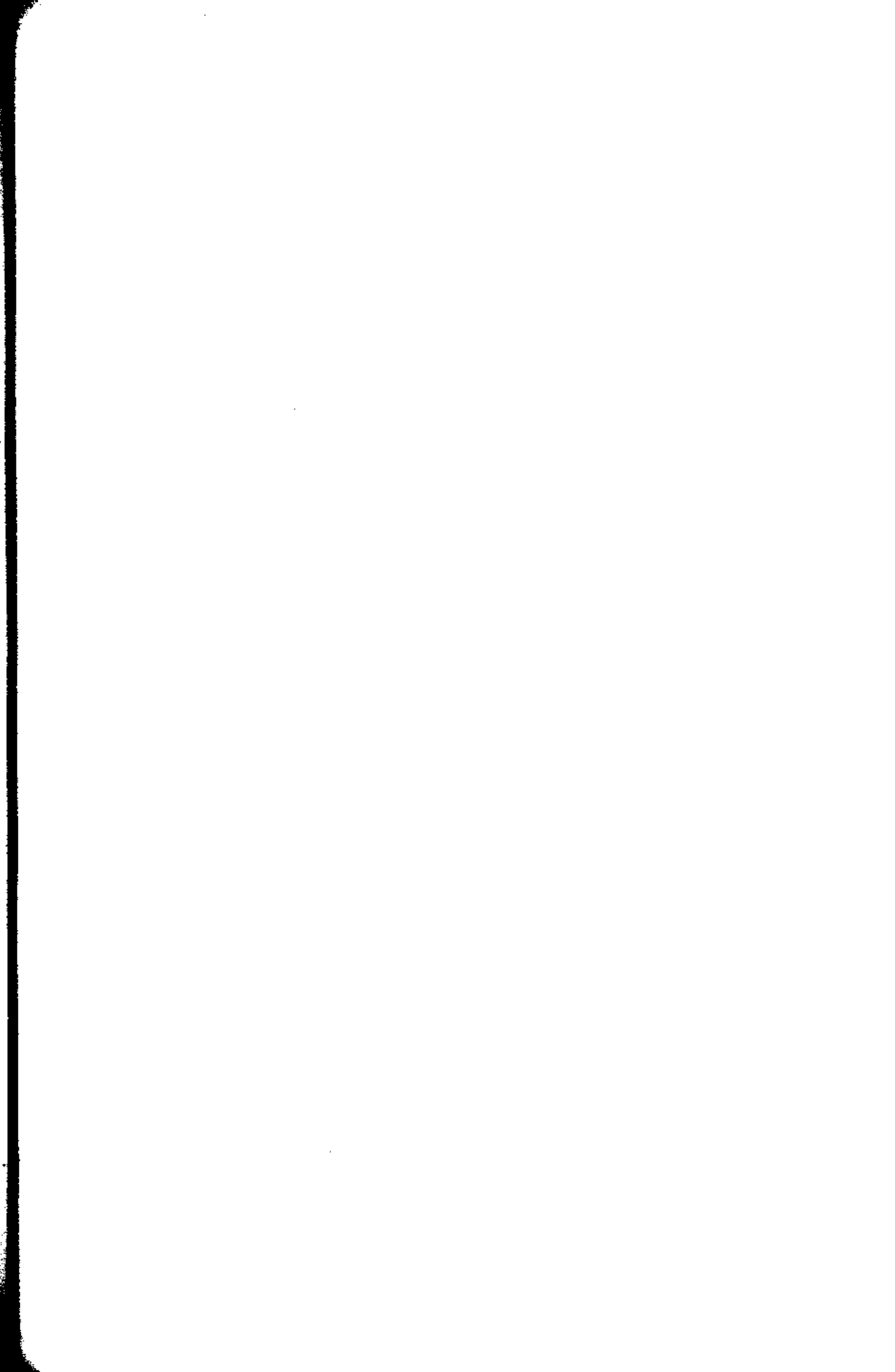
ألـيس مـصـير ذاك إلى الـزوال

إذن فليس عجيباً أن أقول أنني خلال تلك الفترة كنتُ سعيدة! ولم يخطر ببالي أبداً أن الفقر أحد أنواع الخيبة بل على العكس من ذلـك تماماً فقد كنت أحـاول أن افتش عن الطاقات الروحية الكامنة في وجودي لاستثمرها في عمل كل ما هو صالح وكل ما هو خير فما دمت قد افتقدت المواد الزائلة التي أستند إليها في مسيرة الحياة فقد كان عليَّ أن أسند خطواتي على دعائم جوهرية ثابتة منطلقة من المثـل البناءة والمفاهيم الخلاقة، وهذه المثل وهذه المفـاهيم هي وحدهـا الكفيلة ببناء شخصية الانسان وصقل أبعاد وجوده في الحياة، ومن هنا عرفت معنى الفقر ومعنى الغنى، عرفت أن الفقير هو ذلك الذي يتأرجح كيانه الاجتماعي على كفة ميزان المادة فهو يرتفع مع ارتفاع أرقام ما يملك وهو ينزل مع هبوط العدد في رصيده الخاص، ولهذا فهو فقير! فقير إلى الدنانير التي تستند وجوده فقير إلى العمارات التي تشير إليه، فقير إلى الأثاث والرياش الـذي يحببه إلى النـاس ويشجعهم على الالتفـاف حوله، أنه فقير إلى المادة لأنها عنوان عزه وحريص عليها لأنها محور تبادر وجوده، وهو يخشى من زوالها لأن زوالها يعني زواله هو، أو ليس هذا هو الفقير بعينه؟ ولما كنت أعرف من الفقر معناه الحقيقي فقد كان من حقي أن لا أدع للفاقة المالية مجالاً لأن تسمني بسمة الضعف أو الحيـرة أو تلون نظرتي إلى الحياة بمنظار الحسرة والحرمان كنت خلال تلك

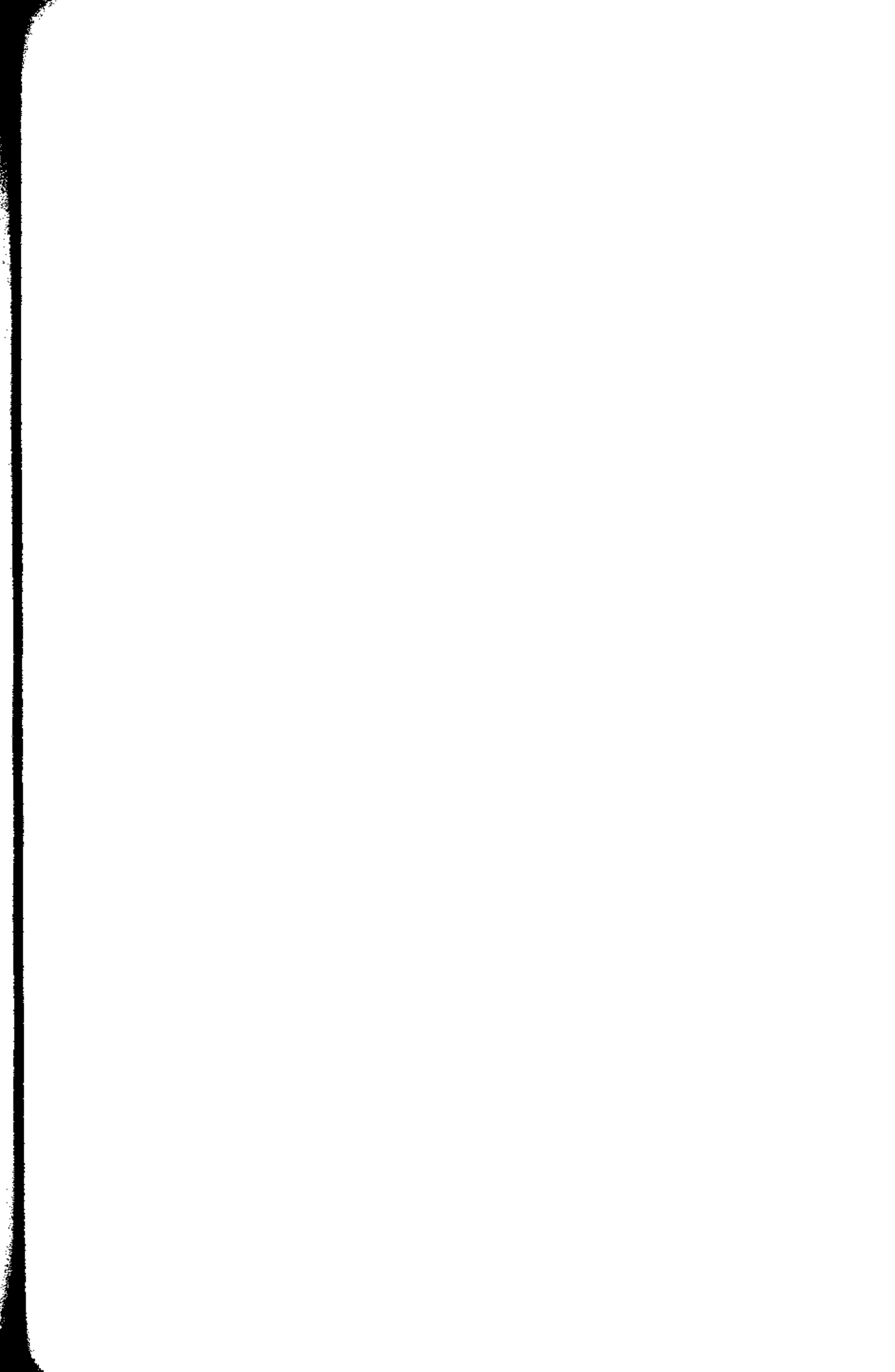
الفترة سعيدة وسعيدة جداً وكان فكري خالياً من كل شائبة بعيداً عن كل نائبة لا يهمني سوى بناء شخصي على أساس من الدين ولا أسعى إلا إلى وراء المعرفة، نعم المعرفة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وقد كنت أجد من قليل ما أناله من آثار المعرفة الكثير من النشوة الروحية والراحة النفسية لأنني كنت أسعى إلى ذلك القليل بجهد كثير وجناح قليل ولهذا فقد كا ن للفوز عندي معنى الانتصار، وهكذا كنت والحمد لله غنية وسعيدة وهذه هي الروعة الربانية في حياة الفرد المؤمن.



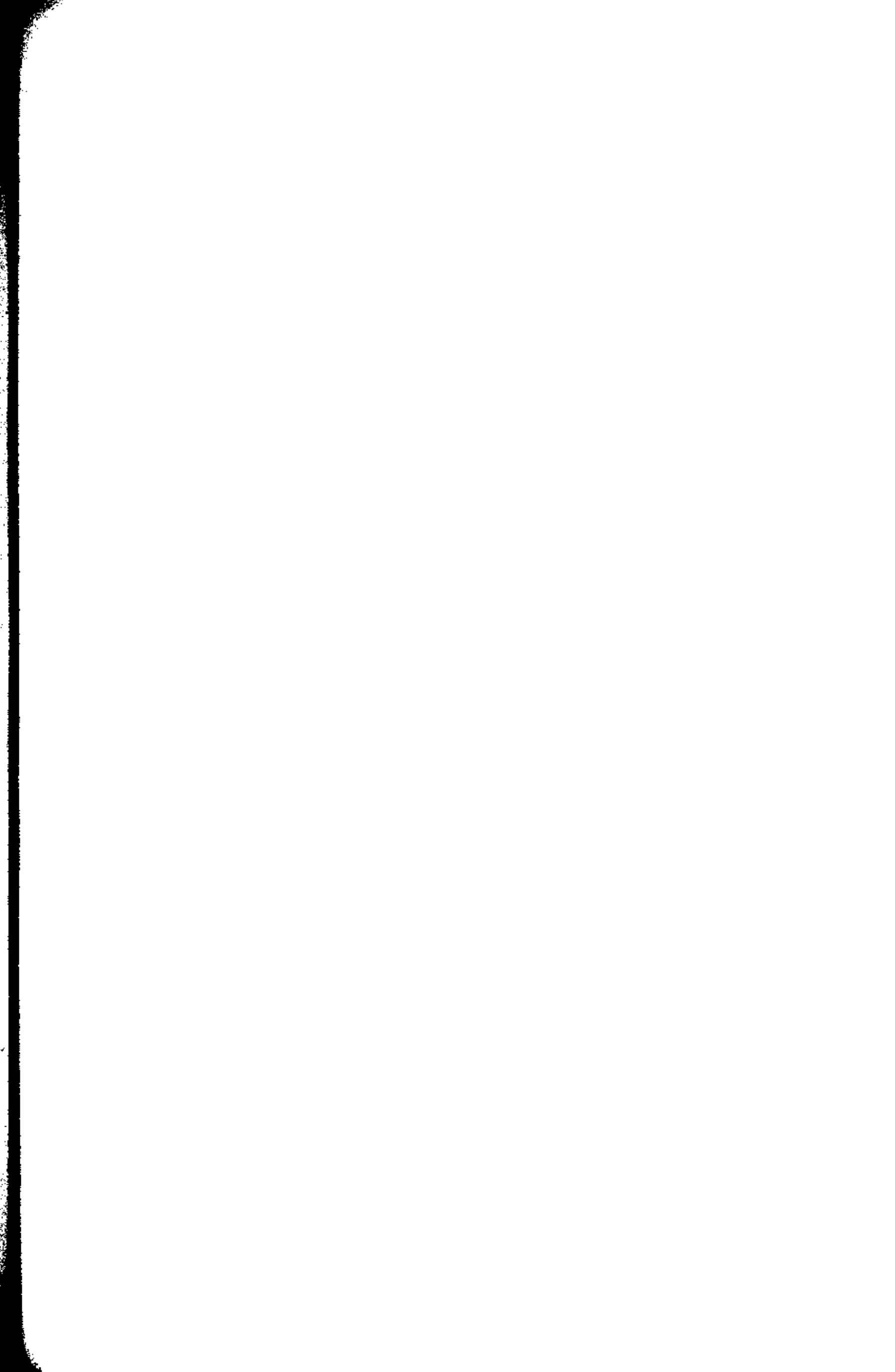
فترة الركود



إنها فترة جمود مؤسفة وإن كانت قصيرة الأمد والحمد لله . . . ولكنني الآن وحينما أجد أن منيتي قد عاجلتني قبل أن أحقق غايتي في مستوى العبادة والعمل في سبيل الله من حقي أن استشعر الندم والحسرة لمرورها فما قيمة حياة الانسان ما لم تكن ساعاتها موصولة بالعمل من أجل الله يا الله . . . ما أقسى الجمود وما أمر أن يعمل الانسان على التسويف والتخفيف؟ ها أنا ذي أحس أن تلك الأيام تعاتبني فتكويني بعتابها أنها تأسى على ساعاتها وهي تخط في صفحة الأعمال بدون عمل (غير ما وجب من الفرائض) إنها خجلى إذ تعرض أمام الحاكم العادل وهي زاهدة في ثواب أو متواضعة في التطلع إلى الرضوان، ولكن ماذا عساي أن أصنع؟ وما فات لا يعود، أنا لا أنكر إن كان علي تعويضها فيما بعد ولكن أتراني عرفت أن ساعات الانسان ودقائقه محسوبة ومكتوبة؟ أتراني أديت لهذه المعرفة حقها؟ هذا ما لا يعلمه إلا الله عز وجل . . .



الانفتاح من جديد



إن من رحمة الله عليَّ أن فترة الجمود تلك لم تكن طويلة فقد حدث ما هزني وبعث فيَّ الحياة من جديد ودفعني إلى التعرف على مسؤوليتي بشكل أقوى مما كنت عليه، وهكذا فان الانسان لا يتبلور ويتكامل إلا بعد المرور بمختلف أشكال التجارب والمحن وفعلاً فأنا أحمد الله إن مررت بمحنة حسستني بأهمية الايمان عندي من جديد وما أحسن قول الشاعر حينما يقول:

لك الحمد أن البلايا عطاء
وأن المصيبات بعض الكرم

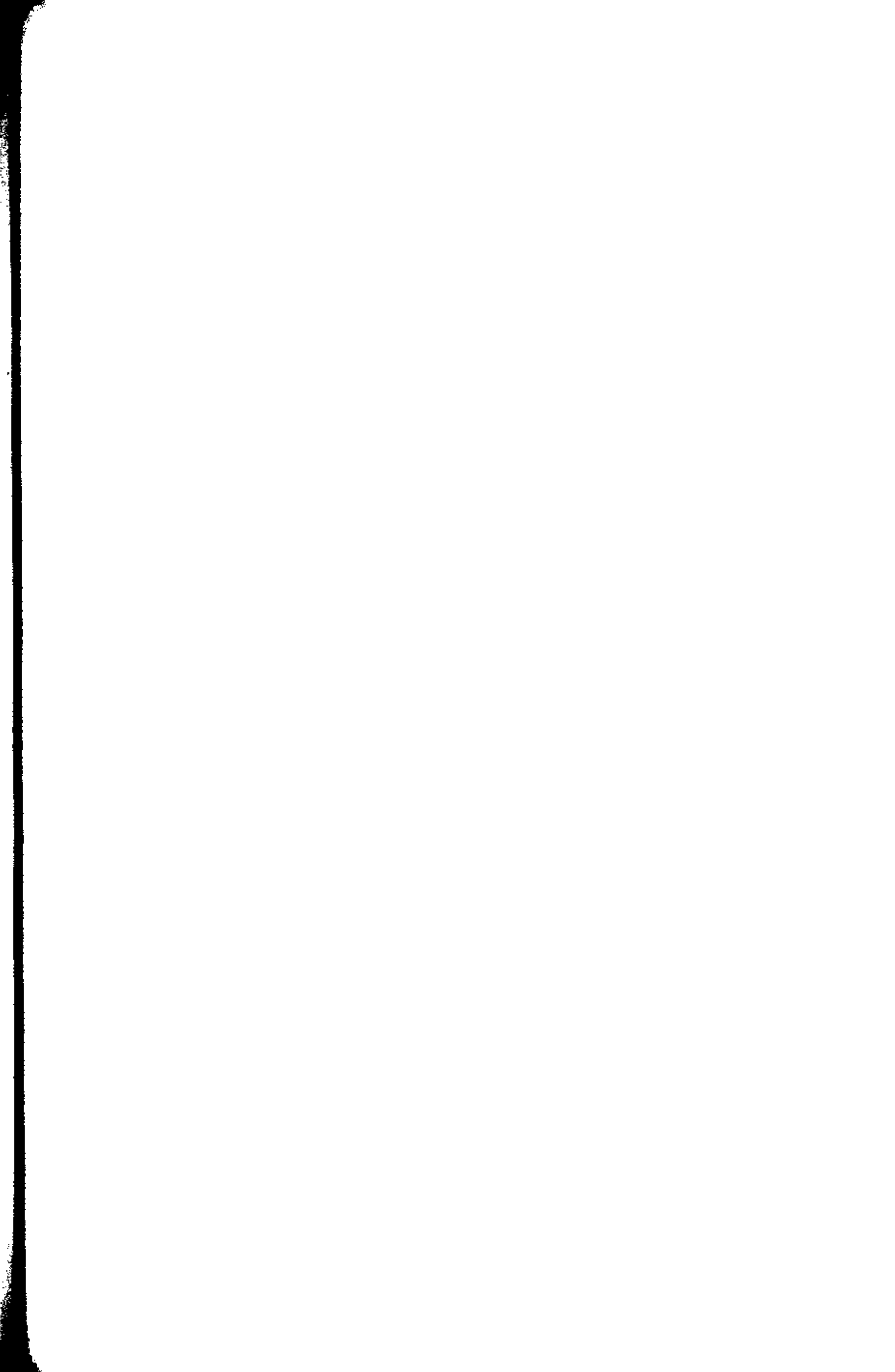
إذن... فنحن لا ينبغي لنا أن ننظر إلى فداحة المحن وقساوتها فقط، ولكن علينا أن نقيس كل ذلك مع الدروس التي تعطيها والفوائد الروحية والمعنوية التي يجنيها الانسان من ذلك لكي نتمكن من استقبالها بثغر باسم وصدر رحب وعزيمة وإصرار. وأنني لأذكر حادثة خلال هذه المحنة، أذكرها وقد كنت أذكرها دائماً لعمق ما أثرت عليَّ في حينها، كان

ذلك خلال فترة ضيق قاسية قد تشابكت خيوطها حتى كاد اليأس يتسرب إليَّ فانتزعتْ نفسي من البيت وخرجت إلى الشارع وكأنني كنت أحاول بذلك التحلل ولو إلى قليل من أسلاك المحنة الشائكة التي كانت تحيط بي ولكنني سرعان ما أحسست أنني كنت غلطانة! فلم تكن المحنة التي أعيشها وليدة البيت لكي تتركني أو أتركها عندما أغادره، ولهذا وقفت حائرة مخذولة لا أعلم إلى أين أتجه وماذا اعمل؟ وإذا بصوت اسمعه من بعيد فيشدني إليه، وإذا بكلماته تجذبني نحوها وكأنني لم أسمعها من قبل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنَجِّي مَنْ نَشَاءَ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ عند ذاك تنبهت من جديد وأفقت من الاغفاءة الفكرية التي كادت أن تجرني إلى اليأس. وتذكرت أن الله عز وجل لا يخذل عباده المخلصين، وأن المحن والبلايا ليست سوى بعض طرق التكامل والنضوج، وهي مثلها للانسان مثل مختبر للتحاليل يظهر حقيقة الانسان ويكشف له ما كان يجهله من نفسه وجوانب الضعف والوهن فيها.

ومضيت بعد ذلك أقطع مسيرة الحياة بين آلام وآمال ووسط أزهار وأشواك، وهل يوجد الزهر إلى جوار الشوك ولولا الألم لما وجد الأمل، ولهذا كنت منسجمة مع تقلب الحوادث وتتابع الأدوار، لا يغرني نعيمها ولا يحزنني أليمها انتظر سراءها عند الضراء وأترقب ضراءها عند السراء وكأنني وإياها كما يقول الشاعر:

تـزيـده الأيـام إن أقـبـلت
شـدة خـوف لـتـصـاريـفـهـا
كـأنها في وقـع اقـبـالهـا
تـسـمـعـه رنـة تخـويـفـهـا

ومرّت السنوات تتتابع وأنا أجد من رحمة الله فوق ما استحق حتى أصبحت أحس نحو نفسي بالصغار أمام ما أجد من عطف الله عليَّ ورحمته بوجودي، فأخذت استصغر عطائي واستكثر ما أجد وكان هذا الشعور هو بداية الألم في حياتي التي نذرتها لله، فقد أصبحت أحس بعذاب ومرارة. وأصبح قصوري أمام الله عز وجل يتراءى أمامي على شكل تقصير تارة وعلى شكل عجز وتهاون أخرى فتبرمت بما أجد حولي بعد أن حسبت نفسي دخيلة عليه وأخذت أحاول أن أبتعد عن مسرح حياتي بعد أن وجدته أكثر مما استحق، وهل هناك أقسى من شعور الانسان بالتقصير أمام الله؟ ولهذا فقد رانت على قلبي غمامة من ألم وحسرة لوثت صفاء روحي وسعادتها في العمل من أجل الله... ولولا أن الله عز وجل رحمني باشراقه من نور كانت تضيء جوانب روحي بضيائها الهادي الوديع لحدث ما لا يحمد عقباه، فالحمد لله الذي لا يغلق على موحديه أبواب رحمته.



الساعات الأخيرة

كنت أريد أن أكتب عن الأيام الأخيرة وارتباطها بالأيام التي قبلها ولكن يبدو أن عليَّ الآن أن أكتب عن الساعات الأخيرة لأنها عاجلتني وفرضت وجودها عليَّ بشكل لا مفر منه وهل هناك مفر من الموت؟ ـ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ـ أم هل هناك مهرب من قضاء الله وقدره ألم نسمع الحديث القدسي الذي يقول: «من لم يرض بقدري وقضائي فليخرج من أرضي وسمائي» إذن فما على الانسان المؤمن إلا أن يستقبل الموت برضا واقتناع ولسان حاله يقول:

«عندي لما تقضيه
ما يرضيك من حسن الرضا»

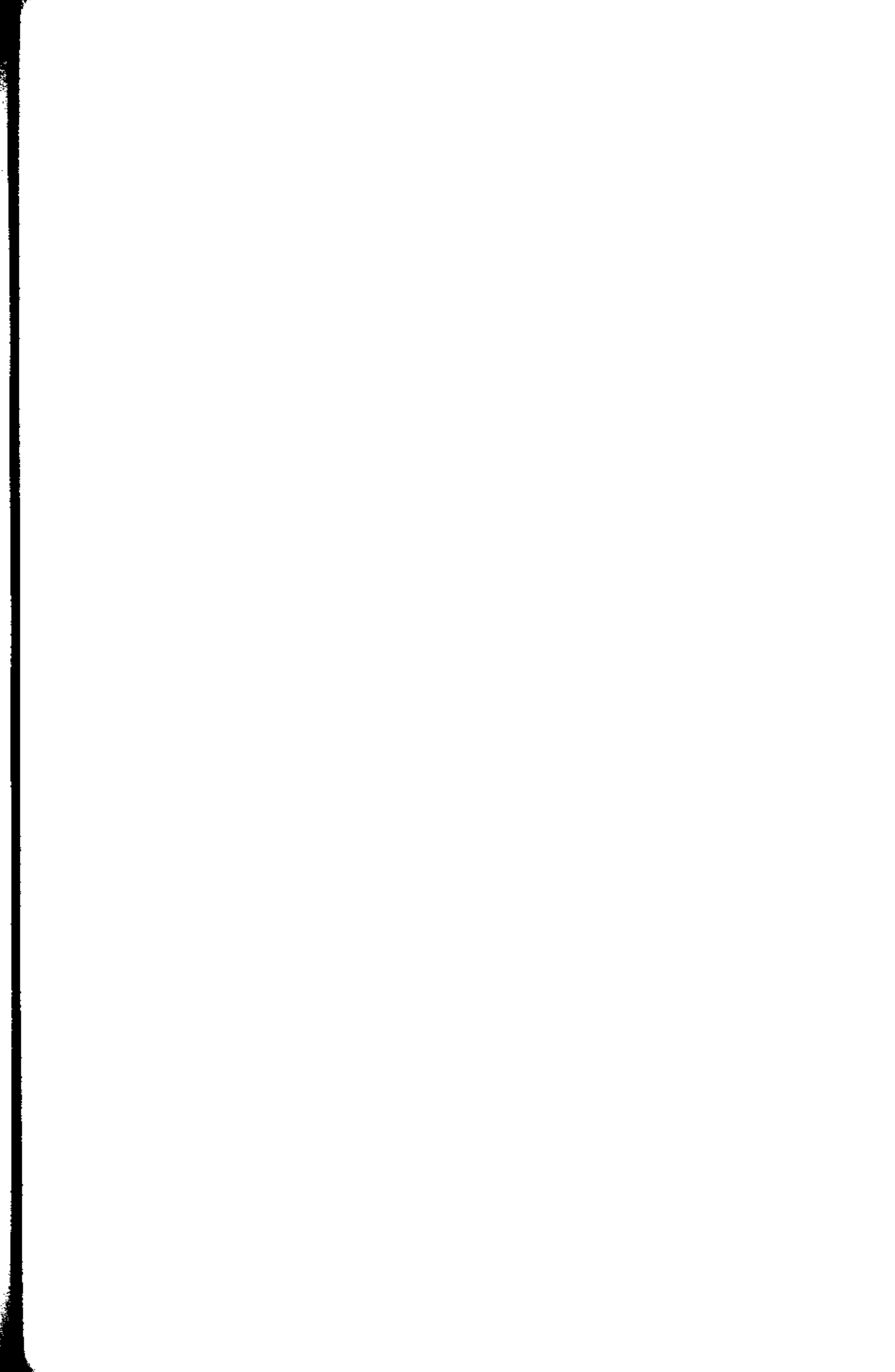
والآن... أتراني آسفة على الدنيا وفراقها؟ نعم، وكلا... أما نعم فلأن الدنيا هي الطريق الذي يمهد إلى رحمة الله ورضوانه وأنها هي أيام التجربة التي منَّ الله بها على عبيده لتكون لهم فترة احتبار فلعلها لو طالت لتمكنت أن أسجل رقماً جديداً وأن أحصل على درجة أعلى... ثم من أجل قلوب والهة سوف تستشعر الحسرة من بعدي. ولكن أليست هذه هي طبيعة الحياة؟

أما كوني غير آسفة على الدنيا فان حالي منها كما يقول الشاعر:

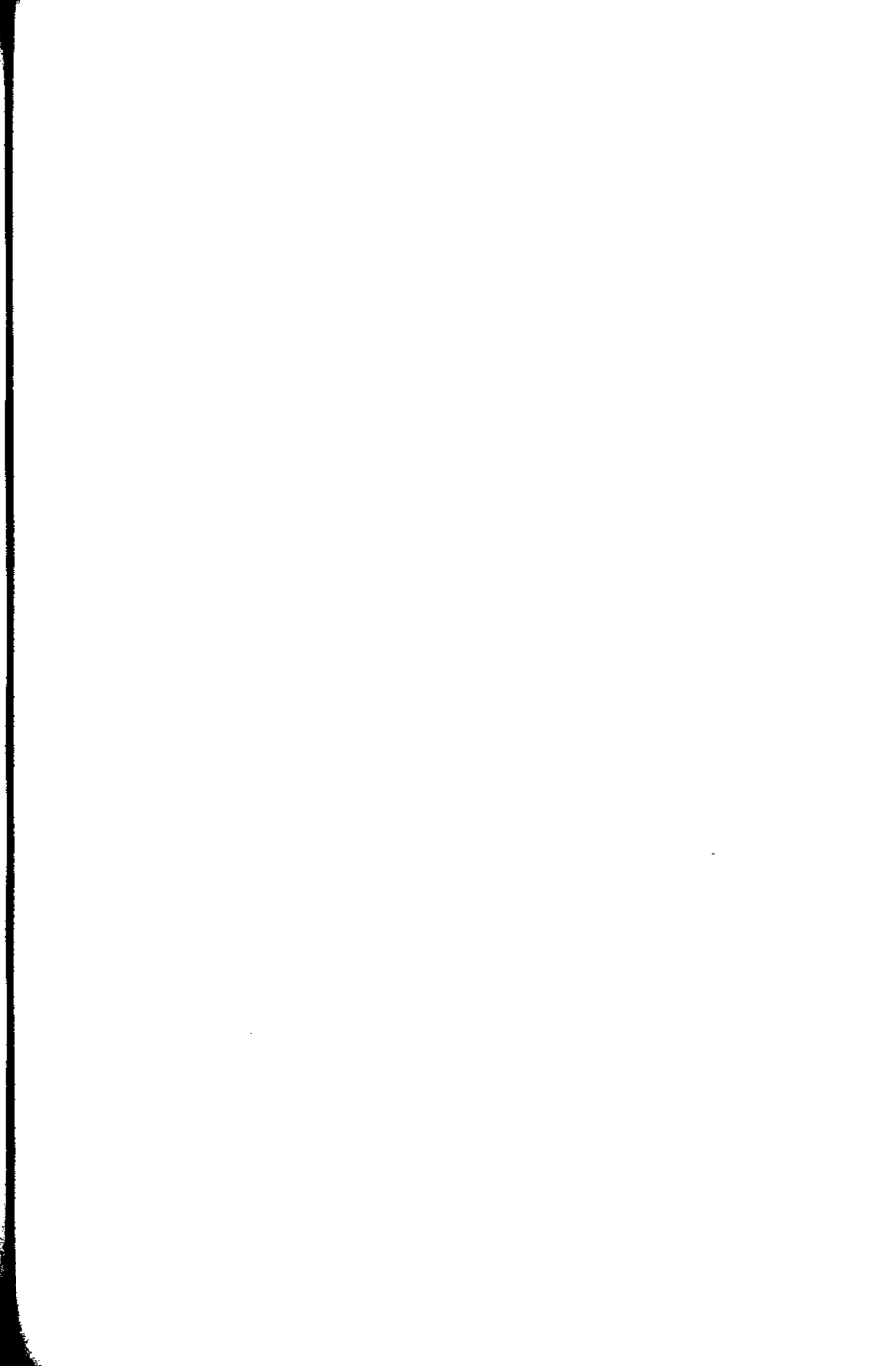
ما لي إلى الدنيا الدنية حاجة
فليخش ساحر كيدها النفاث

طلقتها الفاً لأحسم داءها
وطلاق من عزم الطلاق ثلاث
وثباتها مرهوبة وعداتها
مكذوبة وحبالها انكاث
أني لأعجب للذين تمسكوا
بحبائل الدنيا وهي رثاث
أتراهم لم يعلموا أن التقى
هو زادنا وديارنا الأجداث

آه كم يأس الانسان في ساعاته الأخيرة على هفواته وزلاته وكم يود جاهداً لو كان قد افتدى تلك الأخطاء بكل ما يملك، ما أحلى أن يكون الانسان رقيباً على نفسه وأن يكون لديه ما يمكنه من دراسة كل أمر قبل الاقدام عليه لكي لا يقف في ساعاته الأخيرة موقف النادم المغبون فان النفس امارة بالسوء إلا ما عصم ربي سبحانك يا رب أنني أحبك بقدر ما أخافك فلا تبعدني منك ولا تقطعني عنك ولا تحرمني برد عفوك ورضاك... سبحانك يا رب أنني الآن أشعر بالراحة كما لم أشعر بها من قبل. أنني سعيدة وأنا أحس بانعتاقي من قيود الدنيا وغلالها وانفكاكي من آلامها وأثقالها وابتعادي عن شرورها وآثامها فاسبغ يا إلهي على القلوب التي أحبتني أبراد الصبر وضاعف لهم الأجر ووفقهم يا رب ليكونوا بعدي صدقة جارية وعلماً ينتفع به الناس لكي لا ينقطع أثري عن الدنيا بوجودهم وهبني من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب.



مغامرة



جلست آسية في الموعد المحدد الذي حددته لصديقتها بيداء تنتظر قدومها وهي تتطلع إلى الساعة في قلق ولهفة فهي تستغرب من صديقتها طلب موعد واشتراط الخلوة فيه ولهذا كانت تترقب أن تجد لدى صاحبتها مشكلة غير مريحة، ولم يطل انتظارها فقد وصلت بيداء بعد موعدها بدقائق وجلست آسية تنتظر أن تبدأ بيداء بالتحدث عما لديها من أنباء، وكانت بيداء تبدو هادئة وهي تحاول أن تخفي بعض بوادر القلق والحيرة واستمر بها السكوت إلى فترة ثم قالت:

أتراك تسمحين لي بسؤال يا آسية؟

فردت آسية قائلة:

نعم وأرحب بذلك.

قالت بيداء:

ويكون الجواب صريحاً؟

قالت:

على عادتي معك دائماً يا بيداء...

قالت:

لماذا رفضت يد فؤاد يا آسية؟

فسكتت آسية قليلاً وكأنها فوجئت بسؤال لم تكن تتوقعه من قبل ثم قالت:

والآن هل تسمحين لي أن أسأل؟

قالت بيداء:

نعم بطبيعة الحال.

قالت:

ما الذي يدفعك إلى هذا السؤال يا بيداء ألا تجدين أن الجواب عنه قد يسبب لي بعض الاحراج؟

فأطرقت بيداء برهة ثم رفعت رأسها وهي تقول:

لأنه يهمني يا آسية!

قالت آسية:

وماذا يهمك منه؟ قريب تقدم لخطبتي فرفضته لأسباب خاصة...

فترددت بيداء ثم قالت:

لأنه قد تقدم لخطبتي يا آسية وأنا أُريد أن
أعرف السبب في رفضك إياه؟

قالت آسية:

آه هكذا إذن. ثم سكتت.

فأردفت بيداء قائلة في توسل:

ولهذا تريني مضطرة لأن أسأل أو لستُ
صديقتك يا آسية؟ أو ليس أمري يهمك
يا أُختاه؟

قالت آسية:

نعم ولأنـك صديقتي ولأن أمـرك يهمني
سوف أقول لـك السبب في رفضي إياه
ولكن أنت ماذا تعرفين عنه لحد الآن؟

قالت:

لقد عرفت أنه شاب مثقف جميل الشكل
حسن التصرف ممدوح السيرة يتمتع بمركز
اجتماعي مرموق!

قالت آسية:

نعم أنه كما تذكرين يا بيداء وأُزيدك أيضاً

أن حالته المادية جيدة ولكن هل أن ما ذكرتيه هو كل شيء؟ فعلت وجه بيداء صفرة باهتة وتمتمت تقول: ولكنه غير ملتزم دينياً!!

وقالت:

إذن ومع علمك بهذا ما زلت تجهلين السبب في رفضي إياه؟

قالت:

أنا أعترف أن الدين هو أهم من جميع هذه الصفات ولكن ذلك أمر يمكن إصلاحه على ما أعتقد.

قالت آسية:

وكيف؟

قالت:

ألم يخطر ببالك أنك كنت تستطيعين أن تجعلي منه إنساناً صالحاً يا آسية.

فرددت آسية بهدوء قائلة:

وانت هل يخطر ذلك ببالك يا بيداء؟

قالت:

بصراحة أنني أعتبر الرفض لوناً من الجبن أو الهروب!.

قالت آسية:

ما دمت تتكلمين بصراحة فانا أرجو أن توضحي لي رأيك في الموضوع!.

قالت:

إنني أجد في جر فؤاد وأمثاله إلى الدين مكسباً دينياً ينبغي العمل من أجله.

فابتسمت آسية وقالت:
طبعاً فإن هذا أمر مفروغ منه ولكن عن أي طريق وعلى أي حساب؟

قالت بيداء:

إن هذا طريق قد تهيأ لنا تلقائياً فلماذا لا نستغله يا آسية؟ وبصراحة مرة ثانية ولماذا أرفض فؤاد مع جميع المميزات التي تتواجد فيه وأتركه لزوجة تبتعد به عن الدين أكثر فأكثر بدل أن أتقبله وأحاول جره إلى الايمان؟

قالت آسية :

إنها وجهة نظر لا أريد أن أُملي عليك خلافها فأنا لا أتمكن أن أفرض عليك أمراً يا بيداء ولكنها مغامرة خطرة وليس ما هو أصعب من أن يغامر الانسان بدينه أو بحياته الزوجية .

قالت بيداء :

أرجوك يا آسية لا تحاولي تهويل الأمر إلى هذا المستوى فإن الزواج بشكل عام لا يعدو أن يكون مغامرة وأنا أحس بمقدرتي على خوض هذه التجربة .

قالت آسية :

ولكنك غلطانة بزعمك هذا يا بيداء فشتان بين المغامرة مع شاب مؤمن يتمتع في سلوكه وتصرفاته بحصانة من تعاليم الاسلام والمغامرة مع شاب لا يحصنه ضدها سوى العرف والقانون وكلاهما يخضعان للتبديل والتطوير.

قالت بيداء :

ولكنها مغامرة لو نجحت لكانت في
صالح الدين...

قالت آسية:

ها أنت تقولين (لو نجحت) وهذه (اللو)
دليل على عدم ثقتك بنجاحها والحياة
الزوجية بناء مقدس لا يمكن له أن يرتفع
على أساس مضعضع.

فأطرقت بيداء وكأنها كانت تقاوم الصراع الذي يعتلج
في روحها، ثم رفعت رأسها وهي تقول:

إذن فما هو رأيك يا آسية؟

قالت آسية:

الحقيقة أنني أخشى عليك من عواقب
هذه المغامرة ولا أتمكن أن أعطيك رأياً
أكثر من هذا ولكنها لعبة خطرة يا بيداء
فالزوج مهما كان لا يمكن له أن يخضع
لفكرة زوجته ما دام غير مؤمن بها تلقائياً
بل أنه هو الذي سوف يحاول أن يخضعها
لفكرته ويجرها نحو الايمان بوجهة نظره
وعند ذلك تقف الزوجة على مفترق
طريقين فأما خراب بيت الزوجية وأما

خراب دينها وهو أقسى الأمرين وأهولها كما تعلمين.

قالت آسية هذا ثم سكتت تنتظر تأثير كلماتها على بيداء... فسكتت بيداء برهة ثم قالت بصوت مبحوح:

إذن؟

قالت آسية:

إذن فأنا أجدك في غنى عن زج نفسك في موقف لا تحسدين عليه.

قالت بيداء:

لنفترض أنني أُجبرت على ذلك فماذا أصنع؟

قالت آسية:

عليك أنتِ وحدك تقرير مصيرك يا بيداء وليس لك أن تخضعي لارادة أحد أياً كان.

فأطرقت بيداء وكأنها تفكر وطالت اطراقتها تلك وهي تفتت بين أصابعها ورقة بيضاء صغيرة ثم رفعت رأسها وهي تقول في شبه تحدٍ:

ولكنني سوف أغامر يا آسية وأرجو أن يكون النجاح حليفي.

ولم يسع آسية إلا أن تنظر إليها نظرة طويلة معبرة ثم قالت في شيء من البرود:

أنتِ وما تختارين لنفسك يا بيداء وأتمنى أن لا تندمي على قرارك هذا فيما بعد.

وهنا لملمت بيداء أطراف أبرادها ثم نهضت وهي تقول:

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا آسية.

قالت آسية:

أنني لم أنزعج ولكنني تألمت فقط.

ثم مدت بيداء يدها إلى آسية مصافحة فشيعتها آسية حتى الباب وعادت وهي تشعر أنها فقدت صديقتها إلى الأبد.

* * *

جلست بيداء تنتظر عودة فؤاد والساعة تناهز الحادية عشرة مساء وأحست بالقلق من أجله فهو ما عودها التأخير منذ زواجها الذي مرت عليه ثلاثة أسابيع. وكانت تتابع عقارب الساعة حتى وجدتها تقترب من الحادية عشرة والنصف. وعند ذلك سمعت صوت الباب وهو يفتح ثم

يغلق برفق. فنهضت من مكانها تتطلع نحو الباب لتجد فؤاد وهو يدخل فاشرق وجهها فرحاً.

وقالت:

لقد أبطأت عني يا فؤاد.

فراعها أنها وجدت مسحة من ضيق تتراءى على وجهه حاول أن يخفيها بسرعة وهو يرد قائلاً:

ولماذا لم تنامِ لحد الآن يا بيداء؟

قالت:

كيف أنام وأنت لا تزال خارج البيت يا فؤاد؟

قال وهو يخلع عنه ملابسه ويستبدلها بملابس البيت:

ولكن ذلك سوف يكلفك الكثير يا بيداء!

قالت:

وكيف؟

قال:

لأنني سوف لن أتمكن أن أعود مبكراً إلى البيت في أغلب الليالي ولهذا لا أجد ما يدعوك إلى السهر وحيدة...

فسكتت بيداء وقد هالها ما سمعت ثم حاولت أن تكذب سمعها أو تكذب فهمها فانتظرته حتى جلس ثم قالت:

إن العشاء جاهز يا فؤاد.

فابتسم على شيء من الخجل وقال:

لقد تناولت عشائي في الخارج يا بيداء.

قالت:

آه وكيف؟

قال:

لقد كنت مدعواً عند بعض أصدقائي في النادي ولم أستطع الرفض لأن الدعوة كانت على شرفي.

قالت:

هنيئاً مريئاً ولكن لماذا لم تخبرني من قبل؟

قال:

لم أجد ما يدعو إلى إخبارك وأنا أعلم أنك سوف لن تذهبي معي إلى هناك!!

قالت:

ولكن لكي لا أقلق من أجلك على الأقل . . .

قال :

ولكنك يجب أن تعرفي أنني انسان اجتماعي أعيش في وسط مثقف متحرر ولا أتمكن أن أعتكف في بيتي مع امرأة.

قال هذا وفي نبرته بعض الحدة ثم أردف قائلاً:

والآن تفضلي فتناولي عشاءك أنت يا بيداء!

فجالت الدموع في مآقيها وهي تنظر إليه في حسرة ثم قالت :

لست أشعر بالميل إلى الطعام .

قال :

إذن دعينا ننام!

فاستجمعت فلول قوتها وقالت في نبرة وادعة :

يبدو أنك قد أديت فريضة الصلاة ولهذا تريد أن تنام؟

قال في شيء من البرود:

إن الليل قد انتصف وبذلك ذهب وقت الصلاة!

قالت:

كلا لعله لم ينتصف بعد ثم أن وقتها الاضطراري لا يزال موجوداً.

قال:

كأنك لا تعلمين كم أنا مثقل وتعبان يا بيداء.

قالت:

ولكن التعب لا يكون عذراً شرعياً عن الصلاة يا فؤاد.

فضحك في تهكم ثم قال:

إن الله يقبل مني هذا العذر...

قالت:

ولكن هذا يعد تهاوناً منك في الصلاة ألم تتمسك بها ما دمت تحبني يا فؤاد؟..

وهنا بدت عليه دلائل الغضب فنهض وهو يقول:

أرجوك أن لا تقرني حبك مع الصلاة

والصيام يا بيداء دعيني أحبك كما أريد أنا
لا كما تريدين أنت ثم أنني لا أسمح لك
بمحاسبتي في كل ليلة من أجل الصلاة.

قال هذا ثم توجه نحو السرير وانصرف إلى النوم... أما بيداء فقد تسمرت في مكانها من هول الصدمة إلى فترة وشعرت أن كلمات آسية قد بدأت تتجسد أمامها كواقع محسوس فما كان منها إلا أن لجأت إلى القرآن عساها تحصل من تلاوته على بعض الأمان والاطمئنان ففتحته من حيث اتفق فكانت الآية الأولى من الصفحة هي ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

واستمرت الأيام والأسابيع تتتابع وتتلاحق وبيداء لا تكاد تجد حيلة تكسب بها فؤاد إلى جانبها فهي كلما حدثته عن الدين جابهها بالسخرية تارة وبالنفور تارة أخرى، وهي مهما هيأت له من أسباب الراحة والسعادة في البيت وجدته يتوق إلى الخارج أكثر فأكثر وفي ليلة من الليالي وقد أعياها السهر والانتظار عاد إليها فوجدته منفتح الصدر منبسط الوجه فحسبت أن الفرصة مواتية لها لكي تتحدث معه بما تريد فقالت في نغمة حاولت أن تكون هادئة وناعمة:

هل تعلم كم أتألم يا فؤاد؟

فأبدى فؤاد شيأً من الدهشة وقال:

أنت تتألمين ولماذا؟ ألم أهيىء لك جميع
أسباب الراحة؟

قالت:

نعم إنني أعترف أنك قد هيات لي جميع
أسبب الراحة ولكن المهم هو السعادة يا
فؤاد فلا راحة بدون سعادة.

قال:

وكيف أو لست سعيدة يا بيداء؟

قالت:

كيف أكون سعيدة وأنا أجدك بعيداً عني
يا فؤاد، نعم بعيداً عني في فكرك وقلبك
وجسمك.

قال:

أما فكري فهو بعيد عن فكرك وأنا
أعترف بذلك وأما جسمي فهو يبتعد
عنك البعد الفكري. وهذا أمر طبيعي،
وأما قلبي فهو يحبك يا بيداء ولهذا
اعترض على هذا القسم من كلامك يا
عزيزتي.

قالت:

ولكن الحب يقتضي إرضاء المحبوب وأنت تعلم أنني غير مرتاحة من وضعك يا فؤاد.

قال:

في دهشة غير مرتاحة من وضعي؟ هل أسأت إليك في شيء؟

قالت:

كلا أنت لم تسيء إلي إساءة مباشرة ولكنك تسيء إلى الفكرة التي أؤمن بها والتي عاهدتني على احترامها في البداية وبعبارة أصرح إنك لا تلتزم بالدين بالشكل الذي يشدك إليّ يا فؤاد.

قال:

إنني لا أتمكن أن أغير من وضعي شيئاً يا بيداء فهل من المعقول أن أقاطع أصدقاء العمر أم هل من المعقول أن أعتزل الحياة الاجتماعية وأنطوي مغلقاً خلف هذه الجدران هل من المعقول أن أصلي الظهر

في المسجد وأصلي المغرب في الجامع لأن زوجتي تريد ذلك، إن العبادة ينبغي أن تكون بدافع من إيمان شخصي أما أن أعبد الله لأنك أنت تريدين ذلك فإن هذا ليس سوف نفاق وخداع، إنني رجل مستقيم مخلص في عملي أمين على حقوق الأخرين وفي علاقاتي مع أصدقائي فماذا تريدين أكثر من هذا يا عزيزتي؟

كانت بيداء تستمع وفؤادها يغور إلى الأعماق فردت عليه قائلة في شبه توسل:

وأنا؟ أين يكون مكاني من كل هذا؟

قال:

أنتِ؟ أنت زوجتي الحبيبة التي لا أُقدم أحداً عليك أبداً فتعالي إليّ لتعرفي أية سعادة سوف أُذيقك إياها يا بيداء.

قالت:

ماذا تعني من تعالي؟

قال:

أعني أن تتركي هذه الفكرة المعقدة التي

تحجب عنـك أنوار الحيـاة وتقبـلي عـلي بروحك وقلبك وفكرك جميعاً لكي اعرفك معنى الحياة التي ما زلت تجهلينها ومع كل الأسف أنك الآن على مفترق طريقين با بيداء إما أن تعطيني يدك لآخذك معي إلى دنيا السعادة والهناء وإما أن تبقي سجينة دارك قانعة بما تجدين.

قالت:

وليس هناك شق ثالث يا فؤاد؟.

فسكت لحظة ثم قال:

نعم وهو أن نفترق وإن عز علي ذلـك ولكنـه مع رفضـك للشق الأول أهـون الشرين.

.... فاطرقت بيـداء وهي تود لو تصرخ، لو تبكي، لو تهرب من هذا البيت، ولكن لم يكن في وسعها أن تعمل شيئاً سوى الإطراق.

* * *

وأشرق الصباح أخيراً بعد ليلة مـا طرق النوم فيها عيني بيداء وأنّى لها أن

تنام وهي بين نارين كل منهما كاوية وكل منهما قاسية وشديدة في قساوتها وكادت أن تجزم أمرها وتطلب الانفصال ولكن هذا الدبيب الذي في أحشائها يشدها إلى هذا البيت ويربطها مع هذا الزوج، أنها الآن ليست زوجة فقط ولكنها سوف تصبح أماً عن قريب واعتراها دوار من الحيرة والسهر والتفكير، فألقت برأسها على يدها واستسلمت لنوم هو أشبه بالاغماء... وانتبهت على صوت فؤاد وهو يناديها بصوت حنون قائلاً:

بيداء. بيداء. مالك نائمة هكذا؟

ففتحت عينها لتبصره أمامها ضاحكاً مشرق الوجه وكأنه يجهل السبب فيما هي عليه فنظرت إليه ولم تفه بكلمة... فقال في لهفة:

مالك شاحبة اللون هكذا يا بيداء أتراك مريضة؟

قال هذا وأسندها لكي تجلس ثم جلس إلى جوارها فاستدارت نحوه وهي تقول في ذبول:

هل حقاً أنك لا تعلم بما أُعاني يا فؤاد؟.

فضحك في لطف وقال:

هبيني كنت أعلم فماذا عساي أن أصنع وأنا الذي فتحت لك قلبي على مصراعيه فما ذنبي إذا أغلقت أنت دونك ذلك الباب؟ وبالمناسبة فإن عندي ضيوف هذه الليلة أرجو أن تستعدي لاستقبالهم بالشكل المناسب.

قالت:

ومن هم الضيوف يا فؤاد؟

قال:

أنهم مجموعة من أصدقائي مع زوجاتهم.

قال هذا وسكت ينتظر ردود الفعل عند بيداء ففكرت بيداء برهة ثم قالت:

وهل سوف تكون الجلسة مشتركة بين النساء والرجال؟

قال:

طبعاً طبعاً فأنا لا أتمكن أن أعيد عهد الحريم في بيتي من جديد.

قالت في انكسار:

وأنا؟

قال:

أنت حرة في تصرفك يا عزيزتي فأنا أترك الأمر لحسن اختيارك.

وهنا صممت بيداء أن تقدم لزوجها بعض التنازلات حرصاً على الوئام والتفاهم فغالبت نفسها ثم قالت:

سوف أكون حاضرة أيضاً.

فاستطار فؤاد فرحاً وانحنى عليها يقبلها في لهفة وهو يقول:

وهل حقاً ما تقولين يا بيداء؟ ما أسعدني بك يا حبيبتي ها أنا سوف أصبح أسعد زوج، سوف افتخر بك وبجمالك على أصدقائي وأجعلك الشمس التي تكشف زيف أنوارهم يا بيداء.

وهنا ردت بيداء قائلة:

ولكن أي دخل لجمالي في الموضوع؟ انني وانسجاماً مع رغبتك وافقت أن أحضر مع حجابي يا فؤاد.

فتراجع فؤاد إلى الوراء وبدت عليه علامات النفور وهو يقول:

مع حجابك؟ تحضرين وأنت محجبة؟ كلا أنني لا أريد أن أكون سخرية للجميع، كلا أن هذا لن يكون أبداً يا بيداء، أعدي لنا المائدة واخرجي من البيت فإن ذلك أصلح لكي اعتذر عنك ببعض الأعذار.

فطاش عقل بيداء وهي تستمع إلى كلمات الاهانة هذه ونهضت من مكانها لتقول:

إذن فلأترك البيت منذ الآن يا فؤاد.

قال:

والضيوف؟

قالت:

تتمكن أن تدعوهم إلى النادي.

قال:

وأنت متى تعودين؟

فأجابت بانفعال قائلة:

لعلني لن أعود.

عند ذلك القى فؤاد بأقبسى سهم لديه فقال:

وولدي الذي معك كيف سوف يكون مصيره؟

وكانت هذه الكلمات كفيلة لأن تشد بيداء إلى واقعها المرير وإلى أنها قد زجت نفسها في دوامة ليس من السهل اجتيازها... فتهادت وهي تردد: آه ما كان أغباني وأصدقك يا آسية؟ وسمعها فؤاد فقال في تهكمية ساخرة:

آه أنت تذكرين آسية الفتاة المتعجرفة المعقدة تلك التي ما تقدمت لخطبتها إلا لكي اذل كبريائها وأسحق شموخها الديني وها أنت تذكرينها فماذا أجدتك نصائحها ومثلها يا بيداء؟ ها أنت مهددة بخراب حياتك الزوجية وفشل وضعك العائلي نتيجة آسية العتيقة.

فانتفضت بيداء وقالت:

كلا أنا لا أسمح لك بالنيل من آسية لو كنت قد استجبت لنصائحها ومثلها لكنت في راحة ولكن الذنب ذنبي وعلي أن أتحمل أوزار ما عملت.

كانت آسية جالسة وهي تفكر في بيداء بعد مرور سنتين من زواجها فهي تسمع عنها الكثير مما يؤلم ومما تصدق بعضه ولا تكاد تصدق البعض الآخر فقد سمعت أنها وبعد صراع طويل ومرير بدأت تتحلل من حجابها وتخرج مع زوجها للنوادي والحفلات وسمعت أنها رزقت بولد اسمه فريد وسمعت أيضاً أنها دائمة الوجوم لا تكاد الابتسامة تبدو على شفتيها، سمعت هذا وسمعت غير هذا وهي في كل ذلك مصدقة تارة ومكذبة أخرى، وفي صبيحة ذلك اليوم كانت تفكر بها وتتمنى لو عرفت عنها شيئاً يوضح لها حقيقة ما تسمع فرن في أذنها جرس الباب فهرعت إليه بشكل لا اختياري وإذا بها تجد أمامها بيداء! نعم بيداء بلحمها ودمها لولا شحوب هائل كان يلون وجهها بشكل واضح فرحبت بها وقادتها إلى الغرفة وهي تترقب أنباء سيئة من وراء هذه الزيارة الغير مترقبة وجلست بيداء وهي ساكنة وكأنها لا تعرف كيف تبدأ الحديث فقالت آسية:

لكم كان يهمني أن أراك يا بيداء فإن أخبارك كانت تصلني باهتة وكنتُ احب أن أسمعها منك مباشرة.

وهنا اندفعت بيداء تبكي في مرارة وهي تقول:

وهل لدي أخبار سوى العار والدمار يا آسية؟ أو هل أنا سوى ضحية من ضحايا الطيش والغرور؟ وماذا يهمك من أخباري بعد أن تهاويت إلى هذا الدرك أنا لم أعد جديرة بصداقتك يا آسية إنني إنسانة بائسة يائسة فليرحمني الله . . .

فتأثرت آسية لحال بيداء وقالت في حنان:

ولكنك أُختي على كل حال من الأحوال وعلي أن أنصرك ظالمة أو مظلومة، حدثيني بما لديك وكوني معي صريحة كما كنت من قبل.

قالت:

نعم سوف أحدثك بكل شيء، أنت تعلمين أنني قد خالفت مشورتك واندفعت وراء وهم كاذب. وحاولت أن أقاوم وأكابر فجاهدت أن أجرَّه إليَّ ففشلت، بذلتُ المستحيل لكي أرضيه بوضعي ففشلت. بدأ يسحق روحياتي بقساوة. وأخذ يعمل على اذلالي بضراوة . . . فتارة يخدعني برقته وتارة

يخيفني في شدته، فكرت أن أنفصل عنه فعجزت لأنه كان لدي جنين منه يشدني إلى بيته وأخيراً أتعبتني المقاومة وأرهقني الصراع، فاستسلمت له متخاذلة وانقدت إلى ما يطلب مجبورة مقهورة، فتمادى في مطالبه الجاحفة واستغل ضعفي لكي يجرني إلى الحضيض، نعم إلى الحضيض. وسرت وراءه كما يسير المحكوم إلى ساحة الاعدام ومع ذلك ومع كل هذا فها أنا ذي كما ترين!!.

ولم يسع آسية أن تدخل معها في لوم أو تأنيب وهي على هذا الوضع اليائس المنهار فتماسكت وهي تقول:

ومع هذا فماذا بك الآن؟

قالت:

لقد طلقني قبل أسبوع بعد أن مات ابني واتهمني أنني أنا التي تسببت بموته؟.

قالت:

أنتِ تسببتِ بموته وكيف؟

قالت:

لأنني صمت شهر رمضان!.

قالت آسية:

وهل أن صومك أدى إلى موت ابنك جوعاً يا بيداء؟

قالت:

كلا فهو لم يكن يقتصر على حليبي يا آسية أنه أصيب بعارض وقد أدى ذلك إلى موته...

وأشفقت آسية على هذه الانسانة المسكينة المطعونة في كرامتها ودينها المصابة بوليدها وصغيرها أشفقت عليها حتى انهمرت من عينيها الدموع. واردفت بيداء قائلة:

وهكذا ترين أنني فقدت كل شيء وخسرت كل أحد...

فنهضت آسية اليها لتمسح على رأسها وتقبلها في عطف قائلة:

كلا أنك لم تخسري كل شيء فإن الدين ما زال يدعوك لكي تعودي إليه عن طريق التوبة وأنا ما زلتُ أفتح لك قلبي ليحتضنك من جديد والمستقبل أمامك

واسع طويل ولعل هذه التجربة سوف تبني لك مستقبلاً صالحاً قائماً على أسس ثابتة مكينة فلا تدعِ اليأس يأخذ طريقه نحوك يا بيداء فأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

* * *

أختي الغالية وفاء:

يا منار فكري وعماد روحي لا عدمتك ألف سلام وألف تحية يا عزيزتي وصادق إخائي ودعائي.

ها أنا ذي أكتب إليك يا أختاه بعد أن راحت أنامل الليل تمسح برفق خيوط الألم التي حاكتها متاعب النهار، وبدأ كل شيء هادئاً حالماً وعاد الصمت يعزف برفق لحن السعادة الخفي الذي انبثق من الأعماق ينساب انسياباً هادئاً فيشيع في النفس رضى ما كانت تجد إليه سبيلاً، ويبعث في الروح فيضاً غامراً من النشوة ما عهدته يوماً... وأعجب من ليل كيف استحال ظلامه الداكن إلى اشراقة من نور أرى على ضوئه معالم طريق جديد، وأعجب

للكلام كيف استحالت قسوته إلى رقة
فباتت تمسح عن القلب بعض جراحه،
إنه الايمان يا اختاه، وانه الاطمئنان إلى
رحمة الله يا وفاء. . .

وينبعث من الأعماق نداء هو كالنسيم في
رقته والماء في عذوبته والسماء في صفائها
والزهور في روعتها. ولكنه نافذ واضح
ملك الجوارح كلها فانقادت إليه انقياد
الأسير إلى سجانه وتطلعت نحوه تطلع
الطفل إلى صدر أمه فألقت عند ساحته
رحلها وأرست عند شاطئه شفتيها،
وأنصت للنداء وأنا أسمع في تموجات لحنه
قصة المولد الجديد. . . أتراك عرفت يا
وفاء طبيعة هذا النداء وحدود هذا الميلاد
إنه نداء الايمان وإنه رجع الآية المباركة
التي تقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي
لِلإِيمَانِ، أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

ولهذا، فقد عرفت بانني بدأت أحيا من
جديد بعد أن ولدت من جديد وبعد أن
كان القلب يسبح في دياجير حالكة من
العذاب نسجته لي الأيام فأحكمت

نسيجه وكانت الروح ترسف في قيود قاهرة تشدها إلى الواقع المرير سلاسل قاسية، وكان الفكر ميداناً لصراع مرير قاتل يتخبط فيه خبط عشواء فلا يكاد يرى شيئاً فيتيه ببيداء بعيدة الأطراف ويلفه الضياع... وامتد الظلام عبر سني حياتي يصبغها باللون القاتم فيحيل كل شيء إلى ظلام، فكنت لا أرى إلا من خلال منظار أسود قاتم كئيب... وازداد تلاطم الأمواج وعصف الرياح وأوشكت سفينة حياتي أن تتهاوى إلى القاع حطاماً. ولكن عين الله الرحيمة الساهرة كانت ترى القارب الضعيف وهو يصارع الأمواج وتقلبه يد القدر القاسية... فمن خلال الدموع وتضارب الأمواج وصخب الريح امتدت إلى الغريق أنامل رقيقة ليد حانية هي أناملك يا وفاءْ أرسلتها إلى عين عناية الله لتمسح عن الفؤاد المرهق أتعابه وعن النفس المعذبة أشجانها وعن الروح القلقة حيرتها، وقادت الفريق برفق وحنان إلى شاطىء السعادة والحياة... وتقهقرت فلول الكلام أمام

إشاعات النور واشرق الفجر يؤذن بمولد يوم جديد لحياة جديدة ورفعت يدي إلى أعلى أهمس بكلمات لا يدرك معناها إلا من انطلقت إليه تلك المناجاة وكأنني كنت أزف إلى خالقي نبأ المولد الجديد وأعاهده على المضي قدماً في طريق مصدره منه ومنتهاه إليه.. ثم عدت لكي أسجل لك نبأ المولد الجديد أيضاً فقد ولدت بفضل من الله وبهدي منك يا وفاء بعد أن عرفت منك معنى السعادة والشقاء في الحياة.

أدامك الله أختاً هادية واسلمي لي دائماً وأبداً.

رجاء

عزيزتي رجاء لا عدمتك

علم الله كم كنت أشعر بالسعادة وأنا أتابع سطورك وهي تبرز أمام عيني داخل إطار جديد ووسط هالة يبعث نورها الأمل ويحكي شعاعها عن المولد

الجديد... نعم سعدت فيها كما يسعد اللاعب وهو يربح الجولة الأولى التي تتبعها جولات... ولكن أية لعبة هذه؟ أنها لعبة الحياة عندما تحاول أن تتلاعب بالعواطف والألوان التي تصبغ بها الحوادث. ولهذا فأنني عندما أربح الجولة إنما أتقدم خطوة لانتشال واحدة كادت أن تصبح إحدى ضحايا الحياة بواقعها المرير... رائعة هي سطورك التي أملتها عليك روح الايمان يا أختاه ولكن كان بودي لو استبدلت بجملة (انقياد الأسير إلى سجانه) بجملة أخرى تكون أكثر اشراقاً وأنطق بالسعادة والرضا بهذا الانقياد... وأخيراً فإلى الأمام وإلى مزيد الشعور بنعمة الايمان. اجعلى آمالك مركزة في كلمة صالحة وسطور هادية، احصري اهتمامك في العمل من أجل الله وفي سبيل الله حبي لله واكرهي لله، واسخطي من أجل الله، وافرحي فيما يرضي الله فما خاب من اتجه إليه وتوكل عليه. ثم دعيني اسمع عنك ما يفرحني

ويسعدني يا رجاء واستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

وفاء

أختي الغالية وفاء

سلام الله عليك يا هداي ورحمته وبركاته وسلامي وإخائي ووادي وبعد...

لا أدري أية حيرة هذه التي تتملكني فلا أكاد أتبين من أمري شيئاً؟ لا أريد أن أقول أنني عدلت عما وصلت إليه من سعادة الروح وهناء الفكر. ولا أقول أنني كنت في نزوة من السعادة المؤمنة فلا زلت أشعر بها ولا زلت أحيا بها حياتي الوليدة بفجرها الوليد ولكنني لا زلت أتألم ولا زلت لا أعرف مصدر هذا الألم. قد تسألين لماذا؟ ولكنني لا أملك إلا جواباً واحداً وهو لست أدري!! أفتراني ما زلت أعيش حياة ما قبل الايمان؟ ساعديني على اجتياز هذه المرحلة الحرجة يا وفاء. يا هداي كثيرون هم الذين مروا في حياتي وحاولوا أن يغيروا نظرتي للحياة ولكن

فكري ما استجاب لهم يوماً ونفسي ما ارتضت لهم قولاً... أما أنت فيكفيك يا غاليتي أن أقول أنك أنت الوحيدة التي محوت تلك النظرة القاتمة ومزقت ظلالها الداكنة... ولكن أما آن الأوان لأن تقوضي صرح الألم الذي قام على أنقاض راحتي وأمني... ساعديني يا وفاء، حدثيني إن استطعت فلكم أجد في حديثك الأمن الذي أفتقده في حياتي، لأنه حديث الإيمان، وأحاديثه الخلاقة المعطاء. نعم حدثيني وأنيري في نفسي مشاعر الهدى أكثر فربما تستطيع أن تمسح عن هذه الروح بعض عذابها وأخيراً أرجو أن لا أكون قد أتعبتك بآلامي يا أعز أخت واسلمي لي دائماً.

رجاء

رجاء يا عزيزتي الغالية لا عدمتك...

سلام الله عليك ورحمته وبركاته وصدق سلامي ودعائي وبعد...

إن الألم يا أختاه ما هو إلا عاطفة موهومة

سيما إذا كان لا يرتكز على قاعدة واضحة أو ينتسب إلى ناحية معينة... إن في وسع أي شخص أن يمحو سطور الألم من قاموس حياته إذا نظر إلى مصدره بعين الواقع... والحقيقة... إن الألم غير الواعي والمدروس لا ينتج إلا تتابع الألم ولا يجر على صاحبه غير الخط المتصل من الآلام، إن آلام الحياة يا عزيزتي قاسية متحفزة تفتش أبداً عن صدر تعشش فيه وتنشب في حناياه أنيابها الحادة، فدافعي عن نفسك أمام هذا الوافد الثقيل وحصني صدرك عن أن يكون مرتعاً لهذا المتطفل البغيض... عالجي أحداث الحياة ببساطة ساعديني على استنقاذ روحك العزيزة من الأعاصير التي تعصف بها فإن من الحيف أن تستلمي لحكم هذه الأعاصير فتبتعد بك عن رحاب الله وتشغلك عن العبادة الخالصة المعطاء، ومن الحيف أيضاً أن تصلي إلى نبع الهداية ثم تعيدك عنه ريح عاصفة قبل الورود.

وأخيراً وليس آخراً أستودعك الله متمنية لك مزيداً من الصمود أمام الأهواء فما

أنت إلا خلال فترة انتقال وفي حاجة إلى مـزيد من الثبـات والاعداد وأتمنى لـك الموفقية دائماً وأبداً يـا أُختاه وأستـودعك الله.

وفاء

أُختاه يا شقيقة الروح لا عدمتك...

كيف أنت يا عزيزتي؟ أرجو أن تكـوني بخير وسلامة وعافية في الدين والدنيا.

ليتني أنسى كلمـة الألم يا وفـاء، وليتني أنسى حروفها بأسرها، ليتني أغفو عـلى حلم جميل فأصحو عازمة على تحقيقه جادة في المضي فيـه راسمة البسمـة الصادقـة المنبثقة من الأعماق لا المرسومة قسراً على الشفاه. أفتعلمين أي حلم هو هذا الذي أتمناه يا وفاء؟ إنه السعادة في ظلال الايمان وإنه رفض الألم المتبقى من حياة الضيعة والحيرة، كم أتمنى أيتها العزيزة أن تختفي تلك الكلمة من قاموس حياتي فلا أعود أجد معناها الذي كنتُ أفرضه قسراً على نفسي لكي أنطلق في حياتي بلا قيد اسمه

الألم وبلا سراب يصوره الألم، وبلا عذاب يرسمه الألم، لقد بدأت يدك الحانية ـ وبأمر من الله تعالى ـ تكسر القيد وبدأ قلبك يمنح من فيض رحمته ما يمزق ظلال العذاب، وبدأت أنتِ بكل شيء يتمثل فيك ترسمين الطريق فتمهديه بالنور وتعبديه بالهدى وتفرشين جوانبه زهوراً من الأمل يكاد عبيرها ينفذ إلى الأعماق فيمسح عنها كل ظل داكن، إنه الأمل برضاء الله ورضوانه وهل هناك ما هو أروع من هذا الأمل؟ ولكن أتراها فترة انتقال حقاً يا أختاه؟ ولكن من أين وإلى أين؟ إنها ليست من ضلال إلى هدى ومن شك إلى يقين فقط، بل إنها من الشقاء إلى السعادة ومن الظلام إلى النور ومن اليأس إلى الأمل ومن الألم إلى المنطق اللانهائي إلى الله إلى الدين الذي أبذل له نفسي رخيصة دون ثمن.

وها أنا ذي أرفع يدي إلى الله طالبة منه العزيمة والثبات وأنا في حاجة إلى مزيد من الدعاء واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء لا عدمتك

إسمحي لي أن أقول لكِ مع مزيد من العتاب، أين كلماتك المشرقة بشعاع ينطلق من ومضات الهدى؟ أين تلك المعاني المتلألأة في كتاباتك وهي ناطقة عن البشارة بميلاد جديد؟ أين روح التفاؤل التي بدأت أجدها تنطلق من بين سطورك لتحدثني عن خطوات نجاحك في مغالبة الآلام، دعيني أقول لك وبصراحة بأنني شعرت بالخيبة، وليس أقسى على الانسان من أن يرى أملاً يذوي بين يديه بعد أن علق عليه الكثير، وكان هذا أمري معك يا رجاء. أنتِ ما زلتِ تتحدثين عن الألم ولكن أي ألم هو هذا الذي يبقيه نور الايمان إذا أشرق على جنبات القلوب؟ إن عليك أن تتحدثي عن السعادة التي تطرق بابك رغم أنك في تجاهل لتلك الطرقات، فما أسعد الروح يا اختاه وهي تنفض عنها آلامها لترتفع إلى الملأ الأعلى نقية طاهرة وما أسعد الروح وهي تشرف على عالم خالد خلود الأزل كله رفعة

وسمواً وجلالاً. مـا أسعد الـروح وهي تبني على انقاض آلامها قلعة للايمان لا تدك أسوارها مهما عزل الزمان.

أختاه، ها أنا أنظر إليك اليوم لا كما كنتُ أنظر سابقاً، كنتُ أحبك لقلبك أما اليوم فأنا أحبك لروحك، روحك التي أحس بها ترتفع عن الدنيا لتكتمل بنور القدس، روحـك التي عانت آلام الـدنيـا لتتعلق برجاء عظيم جليل هو [illegible]ة كل نفس وأمل كل روح ذلك هو رضاء الله تعالى وتلك هي الجنة، ارفعي يديك إلى الله عز وجل كل حين واسـأليه مـزيداً من الايمان ومزيداً من التقوى والهدى، إسأليه الرحمة والعون فأنـه مجيب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فله الحمد وله الشكر، أكثري من قراءة القرآن الكريم فهو أعظم راحة للنفس وأعظم دواء للروح وأكبـر مطهر من الآثام أعبدي الله بقلب خاشع فأنا نعوذ بالله من قلب لا يخشع وعين لا تدمع، أذكـريه في الليـل ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْـلاً طَوِيـلاً﴾ فإلى

الأمام يا عزيزتي وحاولي أن تتخلصي من شوائب الألم في حياتك لتنطلقي سعيدة محبورة في رحاب الله، وها أنا أنتظر منك ما يفرحني ويسعدني من أجلك ويرفع عني آثـار الخيبـة من جـديـد واسلمي لي واستودعك الله.

وفاء

غـاليتي وفاء ألف سـلام وألف تحيـة ومـزيـد الـوداد والاعتذار،

وبعد،

لا أدري ماذا أكتب؟ وإنما الانسان الذي كان يتمنى الموت كل لحظة أصبح يرغب في الحياة، لا لأجل الحياة ذاتها وإنما لأجل غاية مثلى أصبح يسعى لتحقيقهـا ويهفو لبلوغ الغاية القصوى فيها ألا وهي عبادة الله... فمن هذا المنطلق بت لا أكترث بـالحيـاة مهـما تجنت وبـالمصـاعب مهـما تفاقمت، وهل الحياة بآلامها وصعابها إلا ذرة تسبح في هذا الكون اللانهائي؟ شعور بـالرضى يغمـرني أينما حللت، الـرضى

بكل شيء بالواقع الأليم والمستقبل الغامض، رضىً تطمئن إليه نفسي فأجد عنده السلوى والعزاء، علمتُ أن عجلة الحياة دائرة حزنتُ أم سعدت وعرفت أن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء وهي ما اكترثت يوماً لدمعة محزون وما التفتت لابتسامة سعيد، فلم نطالبها بأكثر مما تملك وبأكثر ما باستطاعتها أن تهب، ولهذا عدت إلى الأمل أحكي له قصة القلب السعيد فلم تعد آمالي من رمال بعد أن بدأت أبني من جديد ولكن بركائز من الايمان ودعائم من اليقين... سوف لن أسمح للألم مهما كان أن يقعد بي في صومعة الأحزان فأنا أريد أن انطلق صاعدة إلى عالم الطهر والايمان، نعم أنني أريد الحياة الدنيا لأجل أن ابني خلالها دعائم السعادة في الحياة الثانية، وأخيراً وليس آخراً أتمنى أن يتقبلن الايمان في رحابه العامرة وأرجو أن لا تنسيني من الدعاء يا وفاء واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء يا أختي الغالية

لـكِ مني أصدق الاخاء والوفاء وأجمل التحيات والدعوات والأن... دعيني لكي أقول الحمد الله، نعم، الحمد لله فإن هذا ما كنت أتمناه. أن يكون الانسان الذي طالما تمنى الموت أصبح يرغب بالحياة هذا ما كنتُ أتمناه مهما كانت الأسباب التي تدفعه إلى ذلك ما دامت صالحة ومثمرة، وهذا ما كنت أهفو إليه أن أجد روحك يغمرها شعور الرضى بكل ما حولك من أسباب الحياة، صحيح أن الحياة قد تقسو أحياناً ولكن هذه هي طبيعتها فلنسلم بالأمر الواقع ونحاول أن نكيف أنفسنا بشكل نتمكن معه من الصمود أمام قساوتها مهما كانت مرة... ستكون سطورك هذه شاهدة لك يوم القيامة في أنك استجبت لنداء الايمان.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ وما أسعدني بهذا القلب السعيد الذي انطلق نحو رحاب الله بعزم شديد ووعي جديد تاركاً خلفه

حياة المادة ودنياه اللعوب. فتقبلي فائق دعائي وصادق إخائي وأستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

وفاء

أختي الغالية وفاء لا عدمتك

في حياة مصدر هداية ومشكاة نور يا اختي سأكون قوية.. ساكون أقوى من الألم وأقوى من الحيرة... سأبيد الألم وأسلوه من دون شوق، سأفارقه دون رجعة بعد أن اشتد ساعدي بسلاح الايمان سأهدم صرح الألم الشامخ ذاك الذي أقمته على أنقاض راحتي وسعادتي، لقد صحوت من بعد غفلة، صحوت لكي أنطلق في مسيرة النور نحو العفو الإلهي، نعم نحوك يا إلهي، فما أروع رحمتك حين يتحسسها العباد وما أهون الصعاب في سبيلك يا رب وما أروع العذاب من أجلك ما أيسر العسير في طريقك وما أحلى المر في الوصول إليك، ها انت يا إلهي دمعة لا تذرف إلا من أجلك وبعدت يا مناي

غاية لا تؤول إليك، إلهي أن تظافرت في حياتي طرق الشقاء فإن لي في طريقي إليك سعادة لا تدرك وإن أطبقت علي سماء الدنيا فإن لي في ذكرك أفقاً أرحب وأوسع إلهي ما أروع أن أسعى اليك فأحجب عنك فتنطلق إليك روحي من قيود أسرها وتهرب إليك نفسي من ثقل حديدها إلهي ما عدت أرغب إلا في رضاك ولا أطمع إلا في عفوك ولا أسعى الا إلى فنائك.. إلهي. ما الدنيا إلا ساعة شوق إلى لقائك وما الحياة إلا ممر درب إلى فنائك، وما العمر إلا لحظات كفاح من أجلك وفي سبيلك، فاجعل حياتي يا رب كلمة رضا واجعل أعمالي يا إلهي ساعة جهاد واجعل روحي يا سيدي خفقة أمل ورجاء ترنو إلى عفوك وتشتاق إلى رفدك وتحن إلى رضاك.

إلهي ما باتت الصعاب تقربني إلا اليك وما برح العذاب يشدني إلى إلى الأمل بك، وما طفقت الدموع تنطلق إلا في سبيلك لعلك رب ترضى؟ فما أحوجني إلى رضاك وأخيراً وليس آخراً استودعك

الله يا أختي ولك مني مزيد الشكر ومن
الله الثواب والأجر واسلمي لي.

رجاء

عزيزتي رجاء سلامي ودعائي وصادق ودي وإخائي

بروحي أنت ما أغلاك عندي وما أروع
بلورة روحك الحبيبة وما أروعك يا غاليتي
وأنت في حديثك عن الرجاء في الله تبارك
وتعالى، هذا الرجاء الذي يمكن الانسان
أن يقف باسماً وسط الدموع ويجعله
يضحك بين الآهات، أنه رجاء برضاء
الله وثوابه أن هذا الرجاء إذا نوَّر جنبات
قلب الانسان جعل وجهه يشرق بشعاع
الأمل وهو في معترك الوحدة والوحشة،
وإن هذا الرجاء هو الذي يساعد الانسان
المؤمن أن يفتح صدره للآلام برحابة وأن
يمهد قلبه لمرامي السهام برضا واقتناع
وليس عن طريق اليأس والاستسلام، وان
هذا الرجاء هو الذي يحيل مرارة الحياة
لدى المؤمن إلى حلاوة وعلقمها إلى بلسم
وشدتها إلى لين ودعة وقساوتها إلى رحمة

وحنان، وان هذا الرجاء هو الصفة التي يتصف بها المؤمن كما وصفه الامام (ع) عندما قال: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى. فما أصعب الحياة عند من لم يتطلع إلى مصدر هذا الرجاء وما أوعر مسالكها بالنسبة لمن لم يمهد له هذا الرجاء منعطفاتها (سبحانك ما أوحش الطرق على من لم تكن دليله) فالايمان يا اختاه جنة وارفة الظلال يلجأ إليها الانسان هرباً من سموم الحياة وقيظها. الايمان هو ذلك المنبع العذب الذي يمدنا بالنور والسعادة والنعيم والايمان هو ذلك المعين الذي لا ينضب أبداً والذي يبقى للانسان زاداً في الدنيا وذخراً في الآخرة، سيري في طريقك يا اخيتي واطرقي بيدك الضعيفة باب الرحمة الالهية. واستودعك الله واسلمي لي.

وفاء

أختي الغالية وفاء لا عدمتك

سلام الله عليك ورحمته وبركاته... كيف

أنت يا أعز أخت أرجو أن تكوني بخير. . .
منذ مدة لم أكتب اليك يا عزيزتي وما كنت في ذلك قالية ولا ساهية ولكن الكلمات كانت تعوضني عن السطور وما زلت والحمد لله رافلة في سعاد الايمان ولكنني أشعر بالحاجة إلى مزيد من الاطمئنان. فأنا أخشى أن لا يقبلني الله عز وجل في عبيده؟ نعم أنني أخشى أن يطردني عن رحابه؟ لشد ما يقلقني هذا يا أختاه أفتراك مجيبة عنه ولو بكلمات. . .
هذا واسلمي لي دائماً وأبداً أختاً رحيمة هادية.

رجاء

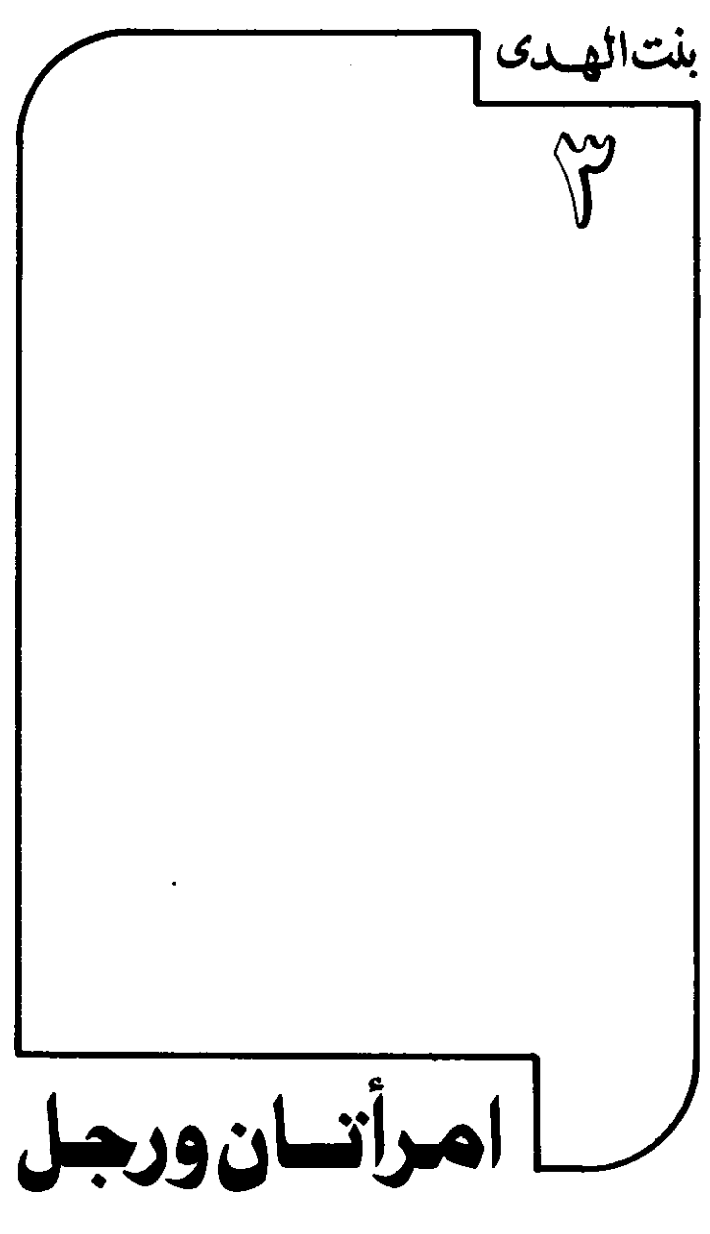
غاليتي رجاء يا أختي المصطفاة

حرسك الله بعينه التي لا تنام، وبعد

متى كان الله عز وجل يطرد عن بابه من طرق تلك الباب بيد الثقة والرجاء؟ ومتى كان الله عز وجل يصرف عن رحابه قلوباً ساقها الشوق إليه وقادتها العبودية المطلقة إلى التطلع نحو فيض حنانه والتماس

غفرانه؟ نعم كيف يكون ذلك والحديث الشريف يقول ـ من تقدم نحو الله خطوة تقدم الله نحوه عشر خطوات والآية المباركة تقول: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحسنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ حاشا لله أن يتجاهل النغمات التي صاغها الايمان لترتفع إليه نقية خالصة متبلورة... هذا وإليك مني أصدق الاخاء والدعاء واستودعك الله الذي لا يخون الودائع واسلمي.

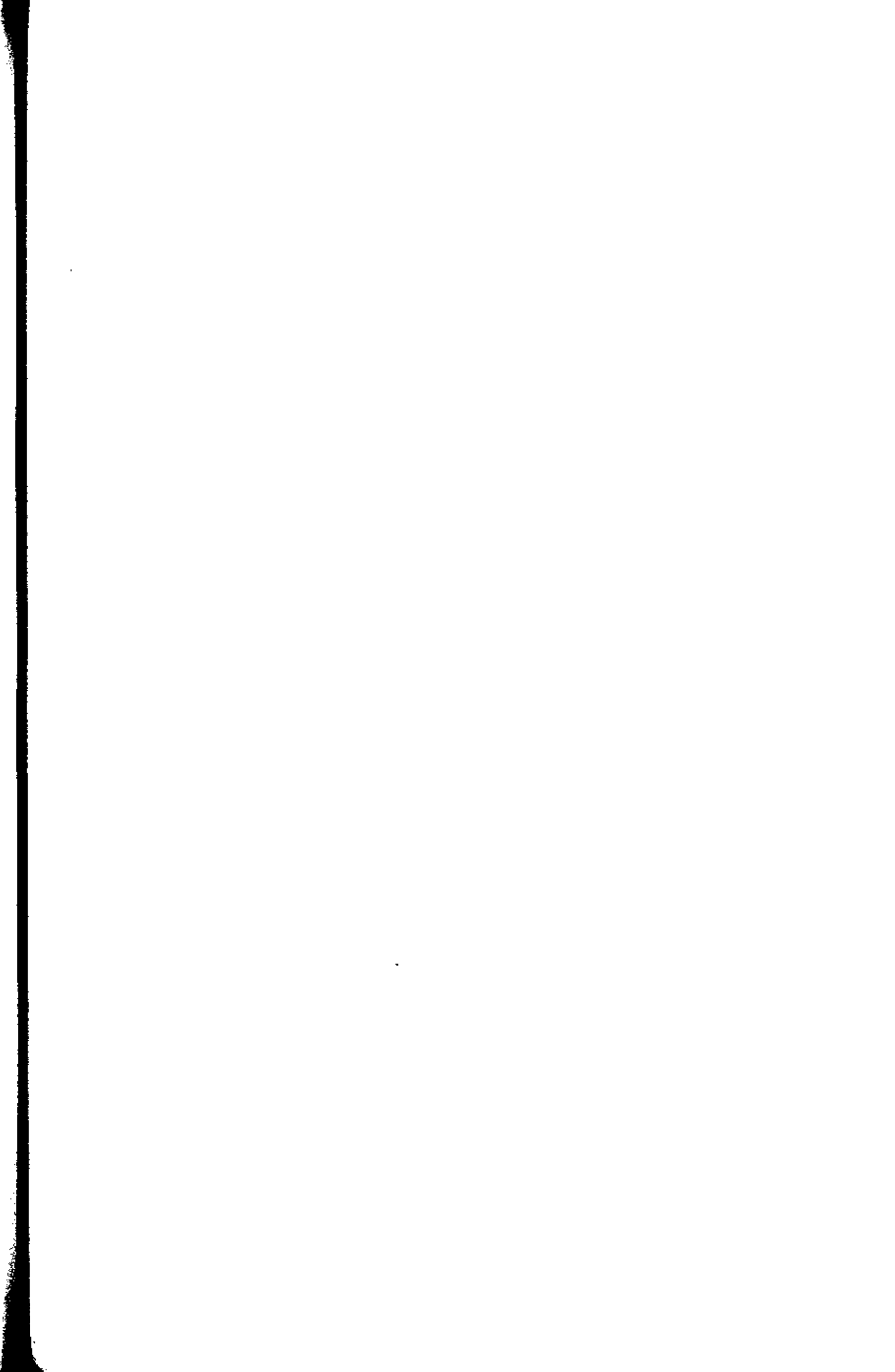
وفاء

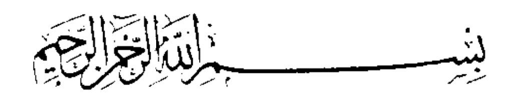


بنت الهدى

٣

امرأتان ورجل





الآن وبعد أن انتهى كل شيء حيث تربعت حسنات على عرش السعادة زاعمة لنفسها أنها قد رسمت خطوط المستقبل بشكل منسجم الزوايا والأبعاد.

الآن وقد انفض الجمع بعد أن حقق لحسنات أمنية العمر وبعد أن صفق لها طويلاً وهي تطوق أصبعها بخاتم خطوبتها لفارس أحلامها الجميل.

الآن وقد أخلدت حسنات إلى فكرها تنسج منه خيوطاً ذهبية لحياة زوجية سعيدة منتظرة.

الآن وقد عاد كل إلى بيته وهو يمجد العروس تارة ويمجد خطيبها تارة أخرى.

الآن وقد حدث هذا وحدث ما هو أقسى من هذا بالنسبة إليَّ أعود أنا إلى غرفتي هذه يحطمني السأم ويعذبني الملل، نعم أعود أنا وحيدة غريبة وهل هناك أقسى من غربة الروح؟ ومن أجدر مني بالغربة وان كنت بين أهلي

وأصدقائي، انهم يتمردون عليَّ بدعوى أنني متمردة وهم يبتعدون عني لحجة أنني منحرفة ولكن اليسوا هم المنحرفون؟ أفلا يسمى انحرافاً هذا التعقيد الذي اختاروه لأنفسهم في الحياة؟ أليس انحرافاً هذه الأفكار الرجعية العتيقة التي جعلوا منها المحور الذي تدور حولها تحركاتهم في الحياة؟ نعم أنهم هم المنحرفون حتى حسنات هذه التي تحسب أنها قد اتخذت لنفسها طريقاً صالحاً وتريد أن تجعل من نفسها قديسة حتى حسنات هذه أليست منحرفة وشاذة حينما وافقت على الزواج من انسان لم تره ولم تتعرف عليه من قبل؟ انسان بعيد لم يكلف نفسه حتى مشقة السفر لحضور العقد وإنما اكتفى أن يوكل أباه بدلاً عنه لماذا؟ لأنه متدين لأنه يماثلها في الشذوذ وإلا وإذا لم يكن شاذاً فلماذا يترك فتيات أوزبا الجميلات ليفتش في الزوايا عن زوجة مثل حسنات وهو لا يعوزه شيء عن التمتع كما يريد بأحلى الحسناوات وأغلاهن فهو شاب جميل. نعم جميل. ومتمكن مادياً فأي شذوذ وتعقيد دفعه أن ينصرف عن حسناوات انكلتره ليفتش عن فتاة مثل حسنات؟ صحيح أن حسنات جميلة أيضاً وعلى مستوى عال من الثقافة ولكنني أكرهها وما كنت أتصور أنها تحظى بعريس مثل هذا، ولكنه معقد على كل حال وسوف لا ولن تسعد معه حسنات...؟

إلى هنا انتهى حديث رحاب مع نفسها فحاولت أن تشغل نفسها بشيء فأخذت قصة لنجيب محفوظ اسمها (لا

شيء يهم) وبدأت تقرأ وهي تحاول أن تصدق مع الكاتب أن لا شيء يهم. فلا الكرامة مهمة ولا الضمير مهم ولا ما بعد الموت مهم ولهذا فقد سهرت مع هذه القصة التي كتبت لها ولمثيلاتها إلى ساعة متأخرة من الليل.

* * *

استيقظت رحاب في ساعة متأخرة من الصبح فنهضت من فراشها متثاقلة فسمعت أصوات أمها واخواتها تصلها من الغرفة المجاورة فخرجت اليهم وهي تتكلف الابتسام فطالعها وجه حسنات وهي في غلالة بيضاء وقد شاعت على وجهها اشراقة من الرضا والسعادة الهبت النار في قلبها وأججت مشاعر الحسد والغيرة ولكنها تماسكت وحيتهم بشكل طبيعي ثم استدارت نحو حسنات قائلة:

وأنت كيف أنتِ يا عروسة؟

فردت حسنات قائلة: بخير والحمد لله يا رحاب وأرجو أن نراكِ عروسة أيضاً في أقرب وقت...

وكأن هذه الكلمات قد استفزت رحاب وفجرت لديها بركان الغيرة والحسد فردت قائلة في سخرية:

لعل هناك رجل من قارة أفريقيا يرسل ليخطبني كما أرسل ليخطبك رجل من قارة أوربا وكأن الرجال قد انعدموا من هنا.

ويبدو أن حسنات لم تشأ أن تفتح مع أختها حديث الجدل فردت قائلة باقتضاب: أن الله أعرف بالصالح يا اختاه...

وهنا ضحكت رحاب بتهكم ثم قالت: أنني أعرف كيف ابني مستقبلي بيدي يا حسنات فأنا لست مثلك ارتبط مع رجل لا أعرف عنه كل شيء...

وهنا رأت حسنات أن عليها أن تجيب دفاعاً عن الفكرة التي تؤمن بها فقالت: كيف تقولين أنني لا أعرف عنه شيئاً وأنا أعرف عنه كل شيء ويكفي أن يكون انساناً متديناً.

قالت رحاب: وهل أن الدين هو كل شيء يا حسنات أنك ما زلتِ صغيرة وأخشى أن تتعرفي على الواقع بعد فوات الأوان...

قالت حسنات: أي واقع تقصدين يا رحاب؟

قالت: مثلاً أن العروس في مثل هذه الأيام ينبغي لها أن لا تفترق عن خطيبها ساعة لكي تتمكن أن تحول بينه وبين الاتصال بغيرها، وليس مثلك أنت حيث تجلسين هنا بين جدران أربع ورجلك الذي وهبت له وجودك يتقلب بين أحضان الغانيات...

قالت حسنات: يؤسفني أن أقول بأنك غلطانة يا أختاه فأنا ما كنت أهب وجودي لرجل يتقلب بين أحضان

الغانيات، إن مصطفى رجل مؤمن مستقيم لا يقلب حتى عينيه في وجوه الغانيات، وهذا هو ما دفعني إلى قبوله بكل سعادة ورضاء، فما دمت أعلم أن لديه رادع من نفسه ودينه أكون واثقة منه في قربه وبعده لأن هذه هي الحصانة الوحيدة التي تلازمه في مكة كان أو في باريس.

وحاولت رحاب أن تجيب ولكن الأم أرادت أن تقطع عليهما طريق الجدل والنقاش فتدخلت بينهما قائلة: كفى كفى فان لديكما الكثير من الأعمال، ولدينا ضيوف ظهر اليوم.

* * *

مرت الأيام ناعمة وسعيدة بالنسبة لحسنات لولا مضايقات رحاب، وبطيئة وثقيلة بالنسبة لرحاب، فقد كان مما يغيظها جداً أن تجد حسنات سعيدة وأن تسمع التهاني والتبريكات تنهال عليها دونها، وبعد أسبوع حيث كانت رحاب عائدة من وظيفتها إلى البيت وجدت ساعي البريد يحاول أن يطرق بابهم وعندما وجدها داخلة سلمها رسالة باسم أختها حسنات، وكانت الرسالة تحمل طابع المملكة المتحدة الشيء الذي جعلها تعرف أنها من مصطفى فاستلمت الرسالة بيد ترتجف وبشكل لا اختياري أخفتها في حقيبتها ودخلت دون أن تشير إليها، ثم تعجلت في الذهاب إلى غرفتها بعد الغذاء، وهناك وبدافع شرير من الغيرة

والحسد فتحت الرسالة، فطالعها خط جميل منمق يحكي عن شخصية الكاتب، ثم بدأت تقرأ الرسالة فكانت:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات، يا من اصطفيتك لنفسي على بعد الطريق والمسافات، ها أنا أكتب اليك لأول مرة وإن كنت قد عشت معك الأيام الماضية بجميع أدوارها، عشت الأمل فيك، وعشت الانتظار لك، وعشت الشوق واللهفة بعد أن طالت فترة تطلعي نحوك يا حسنات، والآن وقد حقق الله أملي، حيث وجدت فيك تلك الأمنية الغالية، وذلك الكنز الثمين، وجدتني أكتب اليك عسى أن تعوض الكتابة عن بعض مراتب الحرمان من اللقاء، ثم لكي أحدثك عن نفسي، التي أصبحت نفسك منذ الآن، فأنا انسان أحببتك بعمق قبل أن أراك، لأنني عرفت بأنك تحبين ما أحب، وتؤمنين بما أؤمن، وأنا انسان أخلصت لك بصدق، منذ اللحظة التي تمّ فيها ارتباطنا المقدس، لأن هذا الارتباط لم يكن ليتم لولا

إخلاصك لدينك، واقتناعك بي من أجل ذلك، وأنا انسان أجد في الحياة الزوجية شركة روحية وفكرية متجردة عن المادية وزيفها ولهذا اخترتك أنت دون سواك، لكي نبني معاً حياة زوجية مثالية، مفروشة بزهور الايمان، منارة بأشعة القرآن، مدعومة بتعاليم الاسلام، كلها حب، وكلها وداد، وكلها اخلاص ووفاء، فأنا لله أولاً ولك ثانياً بكل وجودي ما دمتِ أنت لله أولاً ولي ثانياً بكل وجودك يا حسنات، فليبارك الله وحدتنا الروحية، وليرع حبنا بعين رعايته، وليسدد خطواتنا للسير على دربه.

وأخيراً، فقد كان بودي لو أطيل معك أكثر فأكثر، لأن حديثي معك طويل وطويل، ولكنني انتظر منك الجواب لأعرف منه ذوقك بقصر الرسالة وطولها، فتقبلي تحياتي وحبي واسلمي لايمانك ولي إلى الأبد.

مصطفى

ملاحظة:

أرجو أن تتقبلي صورتي التي تجدينها مع هذه الرسالة مع طلب صورة منك في أسرع وقت.

أتمت رحاب قراءة الرسالة وهي تشعر المرير من الألم، وكأن عذوبة كلماتها كانت بالنسبة لها لذعات من نار، ودفعها حقدها أن تتخذ وبشكل نهائي قرارها بعدم تسليم الرسالة إلى حسنات، وانقضى يومها ذاك وهي بين الألم والحيرة، ألمها لوجود الرسالة، وحيرتها لاختيار الطريقة التي تتخلص بها منها، فهي لا تفتأ تعيد القراءة بين حين وحين، وكلما أعادتها تضاعف لديها إحساس الألم، وتمنت لو كانت هذه الرسالة موجهة اليها دون حسنات، وفي الليل، وعندما تقدمت ساعاته وعيناها لم تجد للنوم سبيلاً، جلست على سريرها لتعيد قراءة الرسالة للمرة العاشرة من جديد... وحدثت نفسها تقول: الخط جميل، والصورة أجمل، والكلمات عذبة، تحكي عن روح أعذب بكثير، لشد ما كانت تفرح بها حسنات لو وصلتها، لا شك أنها كانت تبدو سعيدة بعد استلامها، وسعادتها لا تريحني أبداً... وإلى هنا قررت رحاب تمزيق الرسالة لكي لا يمكن لها أن تصل إلى يد حسنات، وقبل أن تبدأ بالتمزيق خطرت لها فكرة، فرددت مع نفسها قائلة: كلا أنني لن أمزقها ولكنني سوف أحرقها فان مما يلذ لي أن أتابع النار وهي تلتهم كلماتها الرقيقة

(الدينية) قالت هذا ثم ذهبت إلى خزانتها تفتش عن شمعة، فوجدت عدداً من الشموع الملونة الصغار مطوقة بشريط ذهبي كتب عليه: عيد ميلاد سعيد مع تمنياتي لك بالسعادة والايمان. . . فضحكت في عصبية، واستخرجت شمعة منها وهي تقول لطيف أن أحرق رسالة مصطفى إليها بالشموع التي أهدتها هي إليَّ، نعم ان هذه الشمعة الصغيرة النحيلة واحدة من مجموعة الشموع التي أهدتها الي بمناسبة عيد ميلادي الثامن عشر، وقد بقيت حتى الآن رهينة هذه الخزانة تنتظر أن تكون أداة حرقاً لرسالة مصطفى وبالتالي أداة حرق لراحتها وسعادتها، وكانت رحاب خلال ذلك توقد الشمعة وتحاول أن تثبتها على حافة المنضدة ثم أخذت الرسالة بيدها لتدنيها من النار، وهناك خطرت لها فكرة، فما جدوى أن تحرق هذه الرسالة لأنه سوف يرسل لها رسالة ثانية وثالثة وسوف لن يصدف لها أن تجد ساعي البريد أمام الباب في كل مرة، إذن فان احراق هذه الرسالة وحده لا يكفي، ولا يجدي شيئاً، وفكرت لحظات، ثم لاحت لها فكرة سرعان ما اقتنعت بصوابها، فهي سوف تكتب إلى مصطفى بدلاً عن حسنات، وسوف تحاول بكتابتها أن تحطم في نفسه هذه الثقة بحسنات، ثم أن عليها أيضاً أن تعطيه عنواناً آخر غير عنوان هذا البيت، وهذا ليس بالصعب عليها فهي تتمكن أن تعطي عنوان دائرتها ولكن باسم صديقتها هناك، وفعلاً فقد صممت أن تنفذ هذه الفكرة، إذن فإن عليها أن تحتفظ

بالرسالة، فلعلها سوف تحتاج إلى مراجعتها فيما تكتب، فجلست لكي تكتب إلى مصطفى قائلة:

عزيزي مصطفى،

استلمت رسالتك مع مزيد الشكر، فاعجبني فيها أسلوبك المهذب وكلماتك الرقيقة، وحسناً صنعت باختصار الرسالة لأنني لا أحب الاطالة بالكتابة...

أما ما ذكرت عن أن الكتابة قد تعوض عن اللقاء، فهو أمر وهمي، قد يوحيه الانسان الخيالي إلى نفسه من أجل اقناعها، وإلا فأي جدوى للرسائل؟ وماذا عساها تغني؟ ما دمت لا أعرف أين أنت؟ وكيف أنت؟ وبأي شكل تعيش؟ أو مع من تعيش؟ وأنت في تلك الأرض الزاخرة بجميع ملاذ الحياة ومتعها، فماذا سوف يتبقى منك لي يا ترى؟ ثم ألا تجد معي أن حاجتنا لأن نعيش الدين هكذا وبالشكل الذي ذكرته في رسالتك قد انتهت، فلم تعد هناك متناقضات طبقية أو فئات ظالمة مستغلة، كما أنه لم تعد

هناك أيضاً مجموعة ضعيفة مستغلة، لكن يدعونا ذلك لنفتش بين جوانب هذا الظلم عن منفذ، ونبحث خلال هذه الظلمة عن كوة من نور، ثم لا نتمكن أن نجد المنفذ لصلابة البناء الغاشم ولا نهتدي إلى النور لحلكة الظلام القاتم فلا يسعنا حيال ذلك إلا أن نوجد لنا ـ مختارين ـ قوة عليا، هي أعلى من الظلم، وأقوى من الظلام، ثم نبدأ نوحي لأنفسنا الأمل بهذه القوة، وبانتظار حلها لمشاكلنا ورفعها لآلامنا ومحننا. . . ان هذا هو السبب الذي طرح على صعيد العالم فكرة الايمان بالله، وفكرة الدين نتيجة لذلك، ولهذا أفلا تجد معي أننا لم نعد في حاجة لشيء مما ذكرت بعد أن عرفت البشرية كيف تحقق لها العدالة المتوخاة؟

هذا وأنني استمحيك عذراً إذا كنت قد جابهتك بما لا يعجبك من الأفكار، ولكنني انسانة صريحة وأحب أن أتعامل

مع الآخرين على أساس الصراحة، ولك
مني أخيراً تحياتي وتمنياتي.

حسنات.

ملاحظة: أرجو إرسال الجواب وكل رسالة أخرى على
العنوان الآتي:

مديرية الري ـ قسم الاحصاء
الآنسة ميادة ناجي

بادرت رحاب إلى ابراد الرسالة على العنوان الذي ذكره مصطفى في رسالته، وقد استشعرت بشيء قليل من تأنيب الضمير لأن رسالتها كانت كفيلة بهدم سعادة أختها، ولكنها استعادت طاقات الحقد الموجودة لديها وابعدت عنها التفكير بتأنيب الضمير، وبقيت تنتظر النتائج.

* * *

وصلت الرسالة إلى مصطفى، فاستلمها على لهفة الشوق والحنين، وأسرع إلى قراءتها بفرحة وسعادة، ولكنه سرعان ما أحس بالصدمة والخيبة، ثم بالذهول والحيرة، وحاول أن يكذب عينيه، فأعاد القراءة من جديد، ولكن اعادة القراءة لم تزده إلا يقيناً بما يرى، انها حسنات، الفتاة الطيبة المؤمنة

الطاهرة التي اختارتها له أخته زينب ومدحتها له بشكل جعله يقدم على خطوبتها حتى دون أن يراها، نعم أنها حسنات، تلك التي عقد على حياته معها الآمال الكبار، والأماني العذاب، فإذا بها تكتب إليه لتقول وبصراحة، بأنها لا تؤمن حتى بوجود الله!! فما أقسى هذا وأدهاه؟ ولكن كيف حدث هذا يا ترى؟ وكيف انخدعت بها زينب على هذا الشكل، وهي صديقتها المفضلة، ثم كيف له أن يتصرف حيال هذا الموقف المرير؟ وحاول مصطفى أن يفكر بموقفه بعد أن تخلص قليلاً من هول الصدمة، فكان أول ما خطر له أن يرسل إلى زينب رسالة تأنيب ومعها توكيل بالطلاق، ولكنه عاد فخطر له أن تعجله بالطلاق يعني تهرباً من مسؤوليته تجاهها، وهي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعله الآن قادر على محاولة هدايتها، وله بعد ذلك وعلى فرض نجاحه أو فشله أن يتصرف تجاهها كما يشاء، وكان كلما فكر أكثر ترجحت عنده هذه الخطوة، فكتب إليها الجواب، وحرص أن يكون جواباً للشبهة لا أكثر ولا أقل فكان هكذا:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا حسنات ورحمة الله وبركاته.

يؤسفني أن أكون قد أبطأت عنك في الكتابة ولكنني كنت خلال هذه الفترة أحاول أن أتخلص من آثار الصدمة التي صُدمتها بك، بعد أن استلمت رسالتك الصريحة (على حد تعبيرك) وحينما عجزت عن التخلص من الصدمة عدت إلى واجبي الديني تجاهك، وقد وقفت أمام ما كتبتِ عن عدم الحاجة إلى الدين وقفة الحزين، أفتراك جادة فيما كتبت؟ أم أنك كنتِ تهزلين ولا أدري أي وضع مؤسف أملى عليك هذه الأفكار؟ وبما أنك وكما أرى ضحية من ضحايا الخداع والتضليل فأنني أكتب اليك كما يكتب الأخ لأخته، مستشعراً بالمسؤولية الدينية والاجتماعية تجاهك، أما ما ذكرتيه في

خصوص ارتفاع حاجتنا عن الايمان بالله، وبالتالي عن الدين، فاعلمي أن الايمان بالله ـ الذي هو الطريق إلى الدين ـ ليس كما تتوهمين وليد فترة ظلم أو استغلال لأنه وجد قبل أن يوجد الظلم، وقبل أن يوجد الاختلاف والتباين في الطبقات، أنه ليس وليد تناقض طبقي كما خيل لك وإلا فأي تناقض طبقي يمكن أن يتصوره الانسان في بداية الخليقة، حيث كان الغذاء واحد، والكساء واحد، وحدود المعرفة واحدة، والايمان بالله وجد منذ بدء الخليقة، ومنذ عرف الانسان معنى الوجود، ولعلك هنا تتساءلين، كيف يمكن لي أن أدعي هذا وأؤكد عليه؟ ولكن ألا ترين أن لكل شيء آثاراً وسماتاً، وآثار الشيء ترسم وجودها على صفحات التاريخ، والتاريخ يحمل الينا ذلك بوضوح، وهاك بعض الأمثلة على ذلك... ففي مصر مثلاً، كان المصريون من أعرق الأمم التي آمنت بالروح وبالبعث والثواب، والعقاب، ولكن على مستوى فهمهم البدائي لكل ذلك،

ورمزوا للروح رموزاً عـديدة تـارة (كا) وتارة زهرة وتارة رمزوا إليه بصورة طائر له زي وجه آدمي، وصور هذه الرموز وآثارها ما زالت واضحة بين الآثار، وفي صفحات التاريخ، ثم عبادتهم البـدائية لفتاح، وما كانوا عليه في تلك الفترة من محاولة التقرب إلى المعاني الروحية كما جاء في احدى صلوات فتاح = الفؤاد واللسان للمعبودات ومنه يبدأ الفهم والمقال، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذي وجود إلا وهو من وحي فتاح = ثم وبعد ذلك، وحين تولى اخناتون الملك، وقد كان معروفاً بالتأمل والتفكير، بـدأ يصحح (وعلى مدى امكانيـاته وطـاقاتـه الفكرية) من طبيعة العبادة كـما جاء في صلواته التي يحفظهـا التاريـخ قولـه = ما أكثر خلائقك التي نجهلها، أنت الألـه الأحد الذي لا إله غيره، خلقت الأرض بمشيئتـك، وتفـردت فعمـرت الكـون بالانسان والحيوان والكبار والصغار = هذا في مصـر، أما في الهنـد، فقـد اختلف

المؤرخون المختصون بتدوين تاريخ الهند، اختلفوا في تحديد العصر الذي تمّ فيه التدين لديهم، والايمان بفكرة وجود إله معبود، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد، كما قال (ماكس موللر) الذي يعد حجة في اللغات الأوروبية، قال: أياً كان العصر الذي تمّ فيه جمع الأناشيد المسطورة في ـ الريفيدا ـ فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذي لا هو بذكر ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الانسانية ـ وأيضاً يترجم (موللر) نشيد نسّاك الهند الذي تغنى به الهنود قبل الميلاد المسيحي بحوالي خمسة قرون يترجمه فنجد فيه ما يلي = لم يكن ثمة نهار ولا ليل ولم يكن إلا (الأحد) يتنفس حيث لا أنفاس ولا شيء سواه = وكذلك في الصين فقد عبدت لديهم الشمس والقمر والكواكب والرياح وأكبر آله عبدوها هي إله السماء وكان اله السماء بالنسبة لهم هو الأله الذي يصرف

الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل انسان مجرى حياته، وفي فارس كما جاء على لسان زرادشت وهو يسأل هرمز المعبود: (يا هرمز الرحيم صانع العالم المشهود يا أيها القدس الأقدس أي شيء هو أقوى القوى جميعاً في الملك والملكوت؟ فيقول هرمز ـ هو اسمي الذي يتجلى في أرواح عليني فهو أقوى القوى في عالم الملكوت ـ كما أنهم كانوا يؤمنون بوجود قنطرة تسمى قنطرة (شنفادا) تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها، فيلقاها هناك (رشنوه) ملك العدل و (ميترا) رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم، وفي بابل حيث توجد الحضارة البابلية التي هي أقدم الحضارات تاريخياً، فان آثار ايمانهم بوجود خالق ما زالت ثابتة عن طريق الآثار، ومما يذكر منها (ايا) اله الماء العذب و (أنو) اله السماء و (مردوخ) رب الجنود وسيد الحرب، وفي اليونان حيث الحضارة

الاغريقية القديمة كان (اكسينوفون) المولود قبل الميلاد بنحو ستة قرون، أول من نقل إلى الاغريق فكرة الاله الواحد المنزه عن الأشباه، فكان ينعي على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء... ثم أننا نتمكن أن نستخلص من التاريخ أن الانسان قد آمن بفكرة الاله الواحد قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون...

هذه يا حسنات نبذ صغيرة، ولمحات قصيرة، تدل وبوضوح على أسبقية فكرة الايمان بالله لكل ما ذكرت من أسباب، وأنني حينما أذكرها لك لا أريد أن أقول أنها وبجميع أدوارها فكر صحيحة متبلورة، فهي خاضعة كما ترين لمستوى الانحطاط الفكري لكل جيل تمر فيه، وهي مشوبة كما ترين أيضاً بطبيعة الأفكار المعاشة في ذلك العصر، ولهذا نجدها في أغلب حالاتها مغايرة للايمان بالوحدانية المطلقة وإن كانت تدل بوضوح على وجود الايمان بالله، ولكن بشكل يلائم النضوج الفكري المعاش حين ذلك، أرجو أن لا أكون قد أطلت عليك ولعلك لو قرأت

كتاب الله للعقاد لازدت معرفة بما ذكرت، ويقيناً بما كتبت، والله من وراء القصد، وأتمنى لك كل خير. . .

مصطفى

انتهت رحاب من قراءة الرسالة، وباتت ليلتها تلك مؤرقة تفكر فيما كتب مصطفى، وتحاول أن تطابق بينه وبين ما تعرف لتجد أي المعرفتين أقوى، وأيهما تستند إلى قواعد أصلب، وركائز أعمق، ولم تتمكن أن تتوصل إلى شيء عن طريق الفكر، فتوجهت نحو طريق العناد، نعم العناد الذي سيطر عليها دائماً وأبداً، فنشطت منذ الصباح إلى الكتابة وقبل أن ترى أختها حسنات، خشية أن تستشعر شيئاً من العواطف التي تقعد بها عن الكتابة، سيما أنها كانت تجد حسنات في الفترة الأخيرة طويلة الصمت، قليلة الضحك، قد لونت صفاء وجهها مسحة من شحوب، وكانت تعلم أن ذلك من أجل مصطفى ولسبب عدم تسلمها رسالة منه، وكانت هي يلذ لها أحياناً، ويؤلمها في فترات قليلة عندما كان تأنيب الضمير يلح عليها بشدة، ولهذا فقد كتبت الجواب قبل أن تبرح الغرفة وسارعت إلى أبراده نفس اليوم، وقد كتبت إليه تقول:

عزيزي مصطفى،

يعز عليّ أن أجدك متألماً لصراحتي وقد

كنت أنتظر منك كلاماً رقيقاً ناعـماً على غرار كلماتك في الرسالة الأولى، ولكنك اندفعت وراء إثبات أفكارك تاركاً جانباً إثبات عواطفك، ولعلك وجدتني غير أهل لها فأهملتها، وعلى أي حال فإن جوابك عن قـدم الايمان بـالله لطيف، والأدلـة التاريخية واضحة، ولكنني لا أزال أقول أن الإيمـان بالله ليس إلا وسيلة الضعفاء عند شعورهم بالعجز أمام الأقوياء، ان هذا الضعيف حينما يجد أنه عاجزاً عن صيانة نفسه ودفع الخطر عنها، يبدأ يفتش عن قوة وهمية، تحميه وتذود عنه الخطر، ومن هـنـا نشـأت فكـرة الايمـان بـالله، وبالتالي فكرة الدين، هذا ما أعتقده يا مصطفى وحينما كنـا لسنا بضعفـاء، أو حينما كنا نتمكن أن نـدفع عن أنفسنـا الخطر بمختلف أساليب الوقاية والحمايـة التي هي متوفرة الآن، لمـا كنا هكـذا، فلماذا نعود لنرتبط مع مجهول من أجل أن نستمد منه الطاقة التي لم تعد تعوزنا في هذه العصور، نعم لماذا يا ترى؟ ليتك

تجيبني إن استطعت، هذا ولك من تحياتي
وأنا في انتظار الجواب.

حسنات

* * *

بقيت رحاب تنتظر الجواب في لهفة تختلف عن لهفتها السابقة، فهي الآن تريد أن تسمع الجواب عن سؤالها بعد أن استوعبت الجواب الأول وصدقت فيه، وكانت قد بدأت تنهش افتضاح أمرها الشيء الذي لم تلتفت إليه من قبل، فماذا لو عادت أخته من سفرها؟ وماذا لو كتب لها معاتباً لاختيارها، وماذا لو استنكرت أخته ذلك وبحثت الموضوع مع حسنات وهي صديقتها المفضلة، وماذا لو عرف كل شيء؟ وكانت كلما وصلت في تصوراتها إلى هنا شعرت بالاختناق، فحاولت أن تبعد عنها هذه التصورات لكي تبقى سائرة في خطواتها إلى آخر الطريق، ولم تطل بها فترة الانتظار، فقد استلمت الجواب وتعجلت قراءته في هذه المرة من أجل أن تسمع الجواب عما سألت وقد وجدت فيه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات

ألف سلام وألف تحية

سرني جوابك لما فيه من انسجام (نسبي) مع ما كتبت، أرجو أن تكون هذه بداية الانسجام الفكري الكامل، ولكنني عجبت لأمرك وأنت تتصورين أن الايمان بالله نتيجة الضعف لدى الانسان، ولو صح ما تقولين لكان من المفروض أن نجد الأنبياء والدعاة إلى الله هم أضعف البشر في كل دور من الأدوار، مع أننا نجد أن الأنبياء الذين دعوا إلى الله، وإلى الايمان بالله، كانوا من القوة بمكان، فهذا نبي الله نوح مثلاً، استمر يدعو قومه للايمان بالله تسعمائة وخمسين سنة دون أن يتعب أو يمل، ثم كيف أنه بنى السفينة بنفسه، وتحمل خلال البناء شتى أساليب التقريع، والتفنيد، والتهديد، والوعيد، دون أن يتردد أو يتراجع، ثم وبعد ذلك حينما طغى الماء على أمر قد قدر ركب

السفينة هو وأهل بيته آمناً مطمئناً لم يرهبه الموج الطامي، ولم يزعزع عواطفه الابن العاصي، أو ليس في هذا دليل على قوة الارادة وثبات الشخصية يا حسنات؟ ثم هذا نبي الله إبراهيم، وموقفه الصامد أمام الأعداء، ورفضه كل مهادنة ومساومة حتى هددوه بالحرق وهو واقف حيث وضع الله أقدامه لا يريم، ثم يأتي به يشهد النار التي توقد لاحراقه، وهم يراجعونه بين حين وحين عساه يضعف أو ينهار دون أن تهن له قوة أو ينهار له بناء، ثم يرمى به من علٍ إلى النار دون أن تسمع منه كلمة تظلم أو ترحم فتكون النار عليه برداً وسلاماً، فهل هناك دليل على القوة والصلابة أكثر من هذا؟ أو هل هناك من يتمكن أن ينسب إلى هذا الانسان الضعيف والخمول يا ترى؟ ونبي الله موسى عليه السلام، يدخل على فرعون وهو الطاغية الجبار، وليس معه سوى أخيه، وكلمة الحق، فيدعوه إلى الايمان بالله غير عابىء بكل ما تنتظره من أهوال وأهوال، أو ليس في هذا دليل على

القوة والصرامة؟ ونبي الله عيسى، وصموده في الدعوة إلى الله، ونبينا محمد (ص) وما لاقاه في سبيل الدعوة إلى الايمان بالله دون أن يتطرق إليه الضعف أو الوهن، حتى أنه حينما أجمعت قريش على محاربته وطلبت منه أن يترك الدعوة للايمان بالله قال = والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته = وتاريخ الرسول (ص) يشرح من بطولاته كل شيء وإذا شئت، أو أنني أطلب منك أن تقرأي سيرة الرسول (ص) فلعلك تجهلين عنه الشيء الكثير لكي تتمكني أن تعرفي بعد ذلك كيف أن الأنبياء كانوا من أقوى الناس جاشاً، وأكثرهم صلابة، وأشجعهم روحاً، ثم ليتك تقرأين كتاب قصة الايمان فإن فيه متعة وفائدة... هذا واعلمي أنني على استعداد للجواب عن أي سؤال.

مصطفى

بينما كانت رحاب تعيش أيام انتظار للجواب، واعداد

للرسالة، وتأنيب ضمير خفي، تستنكره وتنكر على نفسها الانقياد اليه، كانت حسنات تطوي ضلوعها على ألم دفين تستنكره وتنكر على نفسها الانقياد إليه أيضاً، وطالما حدثتها نفسها بالخيبة، وطالما أوحت إليها تصوراتها أقسى الايحاءات، فبماذا كانت تتمكن أن تؤول هذا الموقف المنكمش من خطيبها وزوجها الموعود، ألم يكن من أدنى مستلزمات اللياقة أن يرسل اليها رسالة ولو صغيرة؟ ألم يكن من التهذيب في شيء أن يرسل اليها صورته بعد أن علم أنها لا تملك له صورة؟ وكانت هذه التصورات تلح عليها عنيفة بها تارة ورفيقة أخرى وهي بين كل ذلك لا تريد أن تصدق ما تلمسه من واقع فتحاول أن تنتحل لموقفه هذا شتى الأعذار، وتبرره بمختلف التبريرات، لعله مشغول، أو لعله يخجل من الكتابة، أو لعله يكتب فلا تصل رسائله، وكان هذا العذر الأخير هو أحب الأعذار إليها فان مما يسعدها أن تتصوره يكتب إليها كما يكتب غيره، ويهتم بأمرها ويفكر بها كما تهتم بأمره، وتفكر فيه، وهي في كل ذلك تنتظر عودة أخته من السفر بعد انتهاء السنة الدراسية لعلها تعرف منها شيئاً عن أخيها، وكانت تحاول أن تصرف نفسها عن التفكير بكثرة المطالعة والكتابة، وفي مرة، وكانت تجلس في غرفتها تقرأ، دخلت عليها رحاب، فاستغربت قدومها ولم تعودها ذلك من قبل، ولهذا فقد رحبت بها واستقبلتها بحفاوة، فجلست رحاب على طرف السرير، وكان الارتباك يظهر عليها

بوضوح، وكأنها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل، فابتدرتها حسنات قائلة: أراك لم تذهبي إلى وظيفتك اليوم يا رحاب أرجو أن لا تكوني مريضة؟ فهزت رحاب رأسها في حيرة ثم قالت: الواقع أنني كنت أشعر بصداع شديد ولهذا فقد اتصلت بصديقتي هناك وطلبت منها تقديم إجازة بدلاً عني، ولكنني الآن أشعر بالسأم فهل عندك كتاب أقرأ فيه؟.

فاستغربت حسنات من أختها هذا الطلب، وأختها تعلم أنها لا تملك الكتب التي تعجبها هي ولكنها لم تشأ أن تصدمها في الجواب فقالت: أمامك كتبي فتشي بينها عما يعجبك يا رحاب...

فنهضت رحاب وأخذت تفتش بين الكتب وحسنات تتطلع اليها لتعرف أي كتاب سوف تختاره، وفوجئت عندما وجدتها تخار كتاب قصة الايمان، وكتاب موكب النور في سيرة الرسول، وكأن رحاب لم تعرف كيف تتصرف أمام أختها وبماذا تفسر لها رغبتها في مطالعة هذه الكتب، ولهذا فقد أسرعت بالذهاب إلى غرفتها قبل أن تسأل وتجيب، أما حسنات فقد شعرت بالفرحة، فما أحلى أن تعود رحاب أختها إلى حضيرة الايمان لقد أسعدها أن تجد أختها الضائعة السادرة في التيه وقد بدأت تفتش عن معالم الطريق، أسعدها ذلك وأشغلها عن مشاعر الألم لديها إلى فترة. فقد أخذت تتصور رحاب وقد آمنت والتزمت بتعاليم الاسلام ثم يتقدم

إليها خاطب مؤمن صالح مثل مصطفى... وهنا وقف بها التفكير عند هذا.. مصطفى وكيف هو مصطفى يا ترى؟ وعادت أفكارها القائمة تلح عليها من جديد فعادت إلى الكتاب الذي بين يديها تستجمع أفكارها بين سطوره من جديد أيضاً.

* * *

اندمجت رحاب مع مطالعة الكتابين، ولكنها لم تغفل عن الكتابة إلى مصطفى فقد أصبحت تشعر بالحاجة إلى المزيد فكتبت إليه تقول:

عزيزي مصطفى

لعلني أبطأت عليك في رسالتي، ولكن مطالعة الكتابين الذين طلبت مني مطالعتهما قد شغلني إلى حين.. والآن دعني أقول لك بأنك تتحدث بأسلوب لطيف، ومقنع (إلى حد ما) وقد قرأت سيرة الرسول التي أرشدتني اليها، وعشت معها أياماً حلوة، وعرفت منها ما لم أكن أعرف عن محمد بن عبد الله، كما أنني بدأت أقرأ قصة الايمان، وقد وجدتها تجيبني عن أكثر من سؤال، كما يراودني ويلح علي، فقد كنت مثلاً ولا أزال لا

أفهم كيف يمكن لي أن أعبد رباً لم أره، ولم تدركه الحواس الخمس التي هي مصدر كل ادراك! أو ليس في هذه العبادة شيء من التقليد القائم على الوهم؟ يؤسفني أن أزعك بهذه التساؤلات، ولكنني أصبحت أشعر بالحاجة لردك عليها، وهذه الحاجة أخذت تسلمني إلى الكثير من القلق، فلعل في رسائلك أو في قصة الايمان ما يهبني الاستقرار، هذا وأرجو لك كل خير وأطلب منك العذر.

حسنات

* * *

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى وكان ينتظرها ليحدد موقفه منها على مدى ما تحمله أو تشير إليه من تجاوب، فلو وجدها سلبية بالمرة لسقط عنه الواجب الشرعي تجاهها لعدم احتمال الفائدة، ولو وجدها تحمل بعض مراتب التجاوب فسوف يستمر واجبه الشرعي تجاهها كانسانة ضالة، وليس كزوجة، فهو لم يعد يفكر بها كزوجة وشريكة حياة مع ما هي عليه من وضع منحرف ضال، ولكنه عندما وجدها قد اقتنعت بما كتب، وقرأت ما اقترح، وها هي تسأله من جديد، وجد أن عليه أن يكتب فكتب إليها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا حسنات ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله الذي جعلني أكتب اليك بروح تفاؤلية جديدة، فقد استبشرت بما كتبتِ، وقد رحبت بالسؤال الذي وجهتيه إلي، فهو دليل على رغبتك بالمعرفة، ولكن جوابي لك في هذه المرة قصير، بل أنه ليس بجواب ولكنه سؤال، ولهذا أرجو أن تجيبي عن هذه النقاط:

١ ـ بماذا يختلف الانسان عن الحيوان في الادراك ما دام يتساوى معه في أفعال الحواس؟.

٢ ـ هل تؤمنين بالوجود والعدم؟

٣ ـ هل اتفق لك أن قلت عن شيء أنه محال أو مستحيل؟

هذه أسئلة قصيرة أرجو أن تجيبي عنها مشكورة هذا ولك مني أصدق الأماني.

مصطفى

استلمت رحاب رسالة مصطفى وهي على لهفة الشوق لمعرفة ما تحمل اليها من جواب، فوقفت أمام أسئلته حائرة وعز عليها أن لا يتاح لها فهم ما يريد من هذه الأسئلة، ولهذا فقد لاحظت وجود حسنات في غرفتها فذهبت إليها وهي أكثر ارتباكاً من المرة السابقة لأنها كانت كلما ازدادت وعياً بوجود الله ازدادت إحساساً بتأنيب الضمير والجناية بالنسبة لحسنات، ولكنها لم تجد طريقاً إلى معرفة أجوبة ما يريده من السؤال إلا بالاستعانة بحسنات؛ ولهذا فقد ذهبت إليها متجاهلة عوامل الارتباك الموجودة لديها، فرحبت بها حسنات، وكانت خلال الفترة الأخيرة قد بدأت تنفتح لرحاب وتتقرب نحوها بعد أن رأتها تهتم بمطالعة الكتب الدينية، فجلست رحاب وهي في هذه المرة لا تعرف إسماً لكتاب معين، ولهذا فقد كان عليها أن تطلب من حسنات إرشادها إلى الكتاب المطلوب، ولم تعرف كيف تبدأ فجسلت ساكتة، فابتدرتها حسنات قائلة: أرجو أن تكوني قد أكملت مطالعة الكتابين يا رحاب؟ فردت رحاب فاقتضاب: نعم. قالت حسنات: وهل أعجبك ما قرأت يا أختاه؟ فردت رحاب وبنفس الأسلوب المقتضب: نعم. وهنا أحست حسنات أن رحاب تعاني ارتباكاً تريد أن تغطيه بالسكوت، وأحست أن لديها حاجة، ولا شك أن حاجتها كتاب فليس لديها مما تحتاجه رحاب سوى الكتب، ودفعتها العاطفة الأخوية والمسؤولية الدينية إلى مداراة مشاعر رحاب وعدم

محاسبتها على تقليص الجواب، ولهذا فقد أردفت تقول بنغمة رقيقة مفعمة بالعواطف: إن جميع كتبي أمامك وأنت مختارة أن تقرأي فيها متى رغبت حتى لو لم أكن موجودة، والآن ألا تريدين كتاباً يا رحاب؟ قالت رحاب بصوت متذبذب: نعم أنني أريد ولكنني لا أدري ماذا أريد! فلم تظهر حسنات أي استغراب ولكنها أجابت بنفس الأسلوب الهادىء الرقيق: كتب تاريخ؟ كتب علوم؟ كتب أخلاق؟ كتب عن الايمان بالله؟ قولي أي نوع من هذه الكتب تريدين؟ قالت رحاب: أريد عن الايمان بالله. فحبذت حسنات اختيارها ثم أعطتها كتاب الايمان والعقل، وكتاب الآخرة والعقل، من تأليف محمد جواد مغنية، وأعطتها أيضاً كتاب العلم يدعو الى الايمان... فأخذت رحاب الكتب وذهبت إلى غرفتها واستلقت على سريرها تستعيد كلمات حسنات الرقيقة، وانعطافها نحوها خلال الفترة الأخيرة، ومساعدتها لها في تنظيم غرفتها وخياطة فستانها ووضع جميع كتبها تحت تصرفها، ولم يسعها بعد ذلك إلا أن تقول: يا لي من مجرمة؟ ثم حدثت نفسها قائلة: لماذا لا أترك هذه اللعبة الخطرة؟ لماذا لا أنسحب عن حياة هذه الفتاة المسكينة؟ ولكن كلا فلا تسعني العودة قبل أن أبلغ نهاية الشوط، لأنني أحس بحاجتي لأن أسمع من مصطفى ما يوضح لي هذه الصور الغامضة، ولو حدث واعترفت بالحقيقة فسوف لن أحمل منه ومن الجميع

بعد ذلك سوى المزيد من التحقير والتنكيل... كلا لم يعد يمكنني التراجع...

وبعد أيام كتبت إلى مصطفى تقول:

عزيزي مصطفى

لقد أردت أن أعرف ما تريده من الأسئلة قبل الجواب، ولهذا فقد حاولت وحاولت وذهبت أفتش عن كتب تبحث في وجود الله عسى أن ترشدني إلى الهدف الذي يستتر وراء كل سؤال، فأنا لا أريد أن أكون معك كتلميذة صغيرة تملي عليها الأفكار على شكل مفاجأة، وكلفني ذلك أن أقرأ أكثر من ثلاثة كتب عدى قصة الايمان التي كنت قد انتهيت منها قبل وصول الأسئلة، ولا أكتمك أنني عندما بدأت أقرأ كانت همتي متوجهة لنقطة واحدة: هي فهم ما تريد قبل أن تقوله أنت ولكن طبيعة الفكرة في الكتب وتناولها لأكثر ما كان يعشعش في ذهني من تساؤلات جعلني اندمج مع القراءة لغاية التفهم والاطلاع، ولكنني (مع الأسف) لم أعرف كيف استخلص من

مجموعها الأجوبة المتوخاة، ولهذا أجدني مضطرة لأن أسمع جوابها منك بعد أن أعطيك جوابي عنها وهو:

أولاً: أما بالنسبة للفرق بين الانسان والحيوان ما دام يحمل نفس ادراكات الحواس الخمس فهو العقل. إذ أن الانسان قادر على التفكير المجرد على العكس من الحيوان.

ثانياً: أما عن الوجود والعدم فهو أمر لا خلاف فيه فإن كل عقل يدرك بأن هناك وجود وهناك عدم.

ثالثاً: وأما عن المحال والمستحيل فهو أمر واضح وكثير الوضوح في أغلب الحالات إذ يستحيل علينا مثلاً أن ندخل الجمل في سم الخياط.

هذه أجوبة ما سئلت فما هو جوابك بعدها يا ترى؟

أتمنى لك كل خير واستميحك العذر.

حسنات

* * *

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى فأخذها بين يديه ثم خطر له أن يمزق الرسالة قبل أن يقرأ ما فيها. أفحقاً أن هذه هي شريكة حياته التي طالما نسج لها أحلامه ذهبية فضية؟ أية محنة مريرة دفعته إليها زينب؟ كيف يمكن له أن يعيش مع انسانة تشكك بأقدس المثل والمفاهيم؟ ولكنه عاد فتراجع عن قراره قائلاً: كلا أن عليّ أن أمضي في طريقي حتى النهاية، سيما وقد بدأت أجني ثمار موقفي... ثم فتح الرسالة وقرأها بامعان وهو يفتش بين كلماتها عن طبيعة الانسان التي كتبتها فوجد خلالها لمحات تبشر بالخير، فحمد الله وردد قائلاً: أرجو أن لا يكون الشوط طويلاً. ثم كتب يجيبها قائلاً:

عزيزتي حسنات

ألف سلام وألف تحية

وصلتني رسالتك وأسعدني أن تكوني قد قرأتِ مهما كانت غايتك في القراءة فالمهم هي الفائدة التي حصلت عليها نتيجة ما وجدتيه بين صفحات الكتب، ومن هذا ترين كم هي كبيرة وثمينة هذه الكنوز التي كانت ولا تزال قريبة منك دون أن تستشعري أنت ذلك القرب، وبودي لو أعلم من أين حصلت على هذه الكتب؟

أما عن الأسئلة الثلاث فأنت حينما اعترفتِ أن الحواس الخمس هي ليست كل شيء في طريق الادراك وإلا لتساوى الانسان والحيوان في مدى ذلك الادراك، من هذا نعلم أن الحواس ما هي إلا وسيلة من وسائل تسهيل الادراك الذي يجرده العقل فيتوصل منه إلى الحقيقة ولهذا نجد أن هناك حقائق لا جدل في وجودها ولا نقاش، مع عدم ادراكها بالحواس، ومثال ذلك هو ما تؤمنين به من الوجود والعدم، فمتى رأيت العدم بعينيك يا ترى؟ أم متى تذوقتيه بلسانك أو لمستيه بيدك أو شممت له رائحة؟ أو سمعت له صوتاً؟ هل حدث هذا لك أو لسواك؟ أو هل من الممكن أن يحدث؟ انه محال، لأن المعدوم لا يحس ولا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يتذوق، ومع هذا فانت وأنا وكل ذو عقل يؤمن بالوجود والعدم فكيف يحدث هذا؟ والمستحيل عندما نقول أن رؤية العدم مستحيلة كيف عرفنا هذه الاستحالة وعن أي طريق؟ أترانا عرفناها عن طريق الحواس؟ هل رأيناها أو لمسناها

أو شممناها أو تذوقناها؟ طبعاً لم يحدث شيء من هذا ومع ذلك فنحن نؤمن أن هناك شيء محال ونتمكن أن نحدد ذلك الشيء كما أعطيتِ أنت لذلك مثلاً وهو إدخال الجمل في سم الخياط... فكيف حدث هذا وهل للحواس الخمس دخل في ذلك؟ بطبيعة الحال يكون الجواب- كلا إذ لا تتمكن الحواس الخمس أن تحس بغير الموجود ومع هذا فنحن نؤمن بوجود المحال نتيجة للتجريد الفكري الذي يتميز به الانسان عن الحيوان... وهناك حقيقة أخرى لم نتوصل إليها عن طريق الحواس أيضاً، فالماء سائل، هذا شيء لا جدال فيه... والحقيقة التي لم نتوصل إليها عن طريق الحواس هي أن الماء يحتوي على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين هذه هي الحقيقة التي أثبتها العلم بالاستدلال المنطقي فقط دون أن تتحسسها الحواس... ثم اسمعي معي البرفسور أ. ي. مانديـر وهو يقـول في كتابه: (أن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة بيد أن الحقائق

التي توصلنا إلى معرفتها لا تختص في الحقائق المحسوسة فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ولكننا عثرنا عليها على كل حال ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة) والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين وإنما الفرق هو في التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة. والحقيقة دائماً هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط) ثم يقول البروفسور مانذير أيضاً: (إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟ هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل وكلاهما طريق فكري نبتدي به بواسطة حقائق، معلومة حتى ننتهي بنظرية أن الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً هذا بالاضافة إلى قانون الجاذبية الذي لعلك تعرفين أنه لا ولن يشاهد بالحواس كما جاء في خطاب أرسله نيوتن مكتشف

قانون الجاذبية إلى بنتلي فيقول: (أنه لأمر غير مفهوم بأن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما).

فعن هـذا الـطريق يـا حسنـات طـريق التجريد الفكري والدليل العقلي والنقلي نؤمن بوجود الخالق وبالتالي بوجود دين يجب أن ندين فيه.

لعلني قد أطلت عليك فيما كتبت ولكنني أتوخى صالحك في ذلك وأنا على استعداد للمزيد لو أردت.

مصطفى

* * *

ضاعفت حسنات من إظهار عواطفها واهتمامها بأختها وأخذت تتقرب إليها وتتحبب وكلها أمل بعودة أختها إلى الايمان، ولكنها كانت تلاحظ أن رحاب لا تتمكن أن تكون معها طبيعية أبداً، وطالما حاولت أن تحنو عليها وتفتح لها قلبها مخمنة أن هذه الردود السلبية هي نتيجة رواسب ماضيها ولكنها كانت تجد أن رحاب تزداد حيرة وقلقاً كلما زادتها هي

حباً وحدباً، أما رحاب فقد أخذت تتفاعل مع مشاعر الندم وتأنيب الضمير، وقد تغلب جانب الندم لديها على جانب الخوف من افتضاح أمرها ولولا خشيتها أن تخسر مصطفى فتخسر معه تعاليمه التي أصبحت في حاجة ماسة إليها، لولا هذا لكتبت اليه تعترف أمامه بالحقيقة، ثم لاعترفت بجريمتها أمام حسنات طالبة منها العفو والغفران، ولكنها كانت لا تستشعر الضعف عن الانقطاع عما يكتب إليها مصطفى، والضعف عن مواجهة أختها بالاعتراف ولهذا فقد قررت الاستمرار بمراسلة مصطفى فكتبت إليه قائلة:

عزيزي مصطفى

هل تعلم كم أنا شاكرة لك وخجلة منك؟ لأنني قد استفدت منك بقدر ما أسئت اليك! ولولا أنني أضمن أنك رجل نبيل لما كنت أغفر لنفسي اساءتي إليك أبداً.. رائع ما كتبت ومقنع ما وضحت ولكنني ما زلت أريد أن أسأل إن سمحت لي بالجواب، فنحن ما دمنا قد صدقنا بوجود ما لا شك في وجوده دون أن ندركه بالحواس الخمس وإنما نتوصل إليه عن طريق الحقائق المستنبطة من الأدلة والبراهين؟ فما هي طريقة الاستدلال على

وجود الخالق؟ هذا وأنني لن أنسى فضلك
عليّ ما حييت.

حسنات

إلى هنا أنهت رحاب رسالتها ولكن خطرت لها فكرة، أن مصطفى كان قد طلب من حسنات صورة في رسالته الأولى ولم يعد إلى طلبه ثانية بعد أن زهد بها نتيجة استلامه للرسائل المزورة التي وصلت منها إليه، ولكن أليس أن عليها أن تعمل شيئاً من أجل أختها المسكينة البريئة؟ أنها تتمكن أن لا ترسل الصورة ولكنها في ذلك سوف تسيء إساءة جديدة إلى حسنات، أنه سوف يشك بجمالها كما جعلته يشك بدينها، فهي إذن جريمة جديدة وحسنات جميلة وجميلة جداً، أنها جميلة كملاك فماذا عساها أن تصنع دون أن تجعله يشك بجمالها؟ لو كانت قد أرسلت إليه صورة في البداية لأرسلت صورتها هي بدلاً عن حسنات تمشياً مع موقفها العدائي ذاك ولكنها الآن تختلف عما كانت عليه، صحيح أنها جميلة أيضاً ولكنها لا تريد أن تتردى بخيانة جديدة، كلا ان هذا ما لا يكون من جديد، ولهذا فان عليها ان تحصل على صورة حسنات وترسلها له، وهي ليس لديها صورة واضحة لها ولهذا فان عليها أن تطلب منها صورة...

وعند الظهر حيث كانت حسنات في غرفتها ذهبت إليها

رحاب وحاولت أن تبدو طبيعية وتمكنت من ذلك بعض الشيء فرحبت بها حسنات وأظهرت لها فرحتها بها فقالت رحاب: أن لي إليك حاجة يا حسنات!

فاستبشرت حسنات أن تطلب رحاب منها حاجة وقالت بلهفة واندفاع: أن أي حاجة لك مقضية يا أختاه قولي ماذا تريدين؟

قالت رحاب وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل: أريد صورة منك يا حسنات، صورة من أجمل صورك يا عزيزتي.

فاستغربت حسنات هذا الطلب ولكنها لم تشأ أن تخدش مشاعر أختها فقالت سوف أعطيك البوم الصور واختاري منها ما تشائين، قالت هذا ثم تناولت البوم الصور من فوق المكتبة وقدمته إلى رحاب، فتناولته رحاب بيد ترتجف وأخذت تصفحه وهي لا تكاد تعي ما فيه لشديد اضطرابها، ثم اختارت صورة كانت أوضح الصور وأبرزها ثم أعادت الألبوم إلى حسنات مع الشكر وذهبت إلى غرفتها وكأنها تهرب من خطر عظيم، ووضعت الصورة داخل الرسالة ولم تكتب خلفها إهداءاً لكي لا تلوث صفاء الصورة بكلماتها الدخيلة، ثم أبردت الرسالة عصر ذلك اليوم.

* * *

أما حسنات فقد كانت الأسابيع والأشهر التي تمر

تضاعف من آلامها وتزيد من احساسها بالضيعة، ولكنها في كل ذلك هادئة المظهر، وقورة المشاعر، تملي على نفسها الثقة بالمستقبل والاطمئنان إلى حسن اختيارها وكان مما يفرحها أن تجد رحاب منكبة على مطالعة الكتب الدينية، وقد لاحظتها في يوم وهي تصلي في غرفتها فدخلت عليها وقبلتها فرحة ثم قالت: هل تعلمين كم أنا فرحة بك ولك يا رحاب؟ ها أنا أجدك أختاً حبيبة لي من جديد فهل تجدينني كذلك يا أختاه؟ أنني أحبك جداً جداً يا رحاب، يا الله ما أروعك وأحلاك في هذه الأبراد؟ لكأنك حورية، أنك جميلة وجميلة جداً، ولم تتمكن رحاب أن تجيب فقد شعرت أن روحها تفور مع كل كلمة فاهت بها حسنات، ولهذا فقد تهاوت إلى الأرض بعد خروج حسنات واندفعت تبكي في حشرجة مكتومة وهي تقول: الويل ما كان أقساني على هذا الملاك الطيب الوديع.

* * *

مرت الأيام بطيئة وثقيلة بالنسبة إلى رحاب وحسنات ثم استلمت رحاب جواب من مصطفى فقرأت فيه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات

سلام الله عليك ورحمة الله وبركاته

أرجو أن تكوني بخير وعافية وأن يرشدك الله لما فيه صلاح دينك ودنياك وبعد،

لطيف منك أن تطلبي الدليل بعد الدليل فان هذا يبشر بالخير والحمد لله، واليك بعض الأدلة على وجود الخالق كما طلبت:

أولاً: لقد اكتشف العلم = القانون الثاني للحرارة الديناميكية = وهذا القانون الذي يسمى حالياً = بقانون الطاقة المتاحة = يثبت لنا وجوب الايمان بخلق الكون وعدم كونه أزلياً فهو يقول أن الحرارة .الموجودة في الكون تنتقل من (وجود حراري) إلى (عدم حراري) أي أنها تنتقل من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساوى الجسمان في الحرارة ونحن نلاحظ أن مصادر الطاقة والحرارة من الكون تنبعث منها الحرارة باستمرار في أرجاء هذا الكون الرحيب، ولكن على الرغم من ذلك لم تتساو حتى الآن الحرارة في كل جسم هذا الكون الكبير وهذا دليل علمي على أن مصادر الطاقة في الكون حادثة وليست أزلية لأنها

لـو كانت أزليـة وكانت عمليـة الانتقال تجـري منذ مـلايين السنـين ومنذ الأزل لوصلت إلى حالة التساوي قبل الآن . . . ونتيجـة لهذا الاكتشـاف يقـول الاستـاذ (أدوارد لوثر كيسل) وهو عالم أميركي من علماء الحيـوان يقـول = وهكـذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية فأثبتت تلقائياً وجود الاله لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته ولا بـد أن يحتاج إلى المحـرك الأول الخالق الالـه = ويقول (السـير جيمس) في هذا المضمار أيضاً = تؤمن العلوم الحديثة بأن عمليـة تغير الحـرارة سوف تستمـر حتى تنتهي طاقاتهاكلياً ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيهـا. ان هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ومن ثم لا بد لها من بداية ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها خلقاً في وقت ما حيث لا يمكن أن يكون هـذا الكون أزلياً = ثم أن هنـاك أدلة علميـة

كثيرة يا حسنات تدعونا للايمان بوجود خالق للكون وتجعلنا نتعرف على الخالق من خلال معرفة الكون وما فيه، والمجال هنا لا يتسع لسردها وإنما ذكرت لك واحداً منها وهاك مثالاً ثانياً وأرجو أن لا أطيل عليك به وهو الشواهد الطبيعية التي اكتشفها العلم والتي تثبت أن الكون لم يكن موجوداً من الأزل وأن له عمراً محدوداً فان علم الفلك يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وان مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض، وهذا يعني أن هذه الأجزاء التي تتباعد عن بعضها كانت في وقت ما كتلة واحدة مجتمعة مع بعضها ثم بدأت الحرارة والحركة ونتيجة هذا الكشف العلمي هو الايمان أن للكون عمراً محدوداً وأنه في حركة مستمرة تنتهي به إلى الدمار يوماً ما... ونعود لنقول أن كل ما له نهاية لا بد أن يكون له بداية وإلا وعلى فرض أزلية الكون لكانت النهاية قبل أن تكون بما لا يتصور.

والآن، أرجو أن لا أكون قد أتعبتك
وبالمناسبة أطلب منك قراءة كتاب الله
يتجلى في عصر العلم وكتاب رحلتي من
الشك إلى الايمان. وإلى المزيد من
خطوات التكامل.

مصطفى

* * *

تسلمت رحاب رسالة مصطفى وذهبت بعد قراءتها إلى غرفة حسنات حيث أخذت من بين كتبها الكتب الثلاث مع أنها لم تكن موجودة وانهمكت في مطالعتها بجد واستيعاب وقدمت إجازة مرضية لمدة أسبوع تفرغت خلالها لسبر الكتب الثلاث وأحست بعد الفراغ منها أنها أصبحت تؤمن بالله إيماناً مركزاً لا شك فيه ولا مراء ولكنها كانت لا تزال بحاجة إلى مزيد من المعرفة وكانت هناك أسئلة كثيرة ما زالت تعشعش في فكرها فجلست تكتب إلى مصطفى لتقول:

عزيزي مصطفى

كيف تقول أنك قد أتعبتني فيما كتبت مع
أنك بدأت تكشف عن عيني غشاوة طالما
حالت بيني وبين معرفة الطريق،

وأسلمتني إلى التيه والضلال، وها أنا ذي أطلب منك المزيد بعد أن قرأت الكتب التي ذكرتها وشعرت بالكثير من الراحة النفسية، فهل تراك على استعداد لأن تكتب إلي من جديد وأن تذكر لي مزيداً من الحقائق التي ذكرتها سابقاً؟ ثم أرجو أن تعلم بأنني بدأت أولد من جديد وأن حاجتي إلى مزيد من المعرفة حاجة الطفل الرضيع إلى الحليب، ولعل في هذا ما يدفعك أو يشجعك على تحمل ما أكلفك به من جهد لم أكن لأستحقه منك ولكنني أرجوك أن لا تخذلني وأنا في أمس الحاجة إليك ـ أقصد إلى علمك ودرايتك ـ

حسنات

* * *

وصلت رسالة رحاب إلى مصطفى فقرأها بامعان ثم بادر إلى الكتابة لها لأنه كان على أبواب الامتحان فكتب يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات

السلام عليك ورحمة الله وبركاته

أكتب اليك متمنياً لك السعادة الكاملة في الدارين وقد ارتحت لرسالتك الأخيرة لما كانت تعبر به عن اجتيازك لمرحلة العبور ورحلتك الموفقة من الشك إلى اليقين، فهنيئاً لك هذا الميلاد الجديد الذي أرجو أن يكون ميلاداً سعيداً وكل عام وأنتِ ومن معك بخير، ولا تحسبي أنني متبرم بشيء مما تريدين بل على العكس من ذلك تماماً. فإن مما يسعدني أن يكون الله عز وجل قد اختارني لأقف إلى جوارك في محنتك بدينك وإيمانك فأكون سبباً لكشف الحقائق أمامك، هذه الحقائق التي طمست معالمها الأفكار الهدامة فكنتِ أنت ضحية من ضحاياها وها أنت وقد استجبت لصوت الحق الذي يناديك ليأخذ بيدك من الظلمات إلى النور ولهذا فأنا راض ومقتنع بضرورة الكتابة اليك أكثر فأكثر وإن كنت أجد في الكتب التي ذكرتها لك رصيداً يغنيك عن كل سؤال، أما وأنك ما زلت تريدين المزيد فهاك منه بعضاً وهذا البعض له ارتباط

بأجسامنا، فهل سبق لك أن وقفتِ حائرة أمام النظام المعقد لأسلاك الهاتف، وكيف أن مكالمة تنتقل عبر الأسلاك من مصر إلى لندن أو من العراق إلى واشنطن؟ لا شك أنه أمر معقد جداً يبعث لمتأمله الحيرة ويدفعه إلى الاعجاب بالمصممين البارعين لهذا النظام، ولكن لماذا لا يقف الانسان قليلاً أمام نظام أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً، ألا وهو نظامنا العصبي! ان ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر، لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً، تقوم بمهمتها في توجيه القلب والتحكم في حركات الأعضاء، وحينما كان لا بد لكل نظام من مركز فان مركز هذا النظام للمواصلات هو مخ الانسان وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر جسم الانسان وهي ما يسمى بالأنسجة العصبية... وفيها في هذه الأنسجة يوجد نظام استقبال، ونظام إرسال، وبواسطتها نسمع، ونتذوق، ونرى، ونقوم بشتى

أعمالنا. . . هذا المخ هل تأملتِ كم يضم بين جوانبه من أسماء، وأرقام، وتصورات لأحداث طويلة، وقصيرة، وصور لوجوه لا تعد ولا تحصى، يعرف بعضها ويجهل البعض الآخر؟ فكيف وأين تختفي كل هذه الأسماء والأرقام والأحداث والصور وحجم المخ كما تعلمين صغير؟ أفتراها الطبيعة الغير ذات الشعور هي التي نظمت للمخ هذا النظام وجعلته مركزاً لانطلاق الأفكار والأعمال في جسم الانسان؟ هل تعقلين هذا يا حسنات؟ أو هل هناك عاقل يؤمن به حقاً دون رغبة منه في عناد أو مراء؟ ثم هل تعلمين أن هناك الكثير من الآلات والمكائن هي في الواقع تقليد لما خلقه الله عز وجل فعدسة الكامير مثلاً، هي كالشبكة الخارجية للعين، والحجاب الحاجز هو يقوم مقام قزحية العين، والفلم الذي يتأثر بالضوء في جهاز الكاميرا ما هو إلا تقليد شاشة العين، التي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشكال وهي معكوسة ولكن ليس هناك من يجرؤ على القول أن

الكاميرا صنعت نفسها بنفسها، وإن وجد يجرأ من يقول أن العين خلقت بدون خالق وان الصدفة وحدها هي التي نظمتها على هذا الشكل!! ثم هل تعلمين أن جامعة من جامعات موسكو قد ابتكرت آلة لقياس الذبذبات تحت الصوتية ومهمتها التقاط أخبار الفيضان والزلزال قبل حدوثها بساعات، وقد استوحى العلماء فكرة هذه الآلة من سمكة قنديل البحر التي تسمى (هلامي) إذ أنها تستشعر بحدوث الفيضان والزلزال قبل حدوثها بساعات، فقلد المهندسون أعضاءها التي هي من الحساسية بشكل يجعلها تتحسس حتى الذبذبات تحت الصوتية؟ هذه أمثلة قصيرة ولك أن تراجعي كتاب مع الله في السماء وكتاب الطب محراب الايمان، وكتاب طبائع الأحياء لتتعرفي على شيء مما خلق الله عز وجل ولك مني أصدق التمنيات والتحيات.

مصطفى

وصلت رسالة مصطفى إلى رحاب أسرع مما كانت تنتظر لأنه تعجل جوابها قبل بداية الامتحان، فاستعارت من حسنات الكتب التي ذكرها فزادها ما قرأت إيماناً واطمئناناً ولكنها كانت لا تزال تحس أن هناك سؤالاً يلح عليها بين حين وحين، فصممت أن تلقيه عليه كآخر سؤال فقد صممت أن تكشف له بعد ذلك الحقيقة وأن يكون اعترافها قبل نهاية السنة الدراسية وقبل عودته إلى الوطن، ولهذا فقد بادرت إلى الكتابة فكتبت إليه تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي مصطفى

ألف سلام وألف تحية راجية من الله عز
وجل أن يحرسك بعينه التي لا تنام
ويجعلك منار هدى وهداية...

لا شك أنك مشغول بالاستعداد للامتحان
ولهذا فأنا استميحك العذر إذا ألححت
عليك بالأسئلة ولكنها قضية حياتية بالنسبة
إليّ وأنت الذي بعثت الحياة في وجودي
فمن حقي أن أستمد منك مقوماتها...
وسؤالي اليوم هو أننا ما دمنا قد سلمنا

وآمنا أن الله تبارك وتعالى هو خالق هذا
الكون فمن خلق الله يا ترى؟

حسنات

أبردت رحاب رسالتها إلى مصطفى وعادت إلى البيت فلم تجد حسنات فسألت عنها أمها فقالت أنها في غرفتها لم تبرحها منذ الظهر فخمنت رحاب أن حسنات غير مرتاحة نفسياً فعزّ عليها ذلك وذهبت تحوم حول غرفتها وهي مترددة بين الدخول وعدمه حتى صممت ان تدخل عليها مهما كلف الأمر فطرقت الباب بهدوء وأحست أنه مغلق من الداخل فنادت بهدوء أيضاً: حسنات، حسنات. ففتحت حسنات الباب وهي تتصنع الابتسام. ولكن رحاب لاحظت آثار الدموع في عينيها فشعرت بطعنة دامية في فؤادها وهي تعرف أنها هي السبب في ذلك، وكادت أن تنهار فتعترف لها بالحقيقة، ولكنها جبنت فأوحت إلى نفسها أن حاجتها لمصطفى لم تنته بعد وأنها سوف تعترف بعد اقتناعها الكامل، ولهذا فقد دخلت وجلست إلى جوارها، ثم أخذت بيدها برفق وحنو بالعين وقالت: ما لي أراك حزينة يا حسنات ومن حقك أن تكوني أسعد الناس...

فسكتت حسنات ولم تجب ولكنها ارتاحت لحنو اختها وانعطافها نحوها وقد بدا ذلك عليها أيضاً إذ وضعت رأسها

على كتف رحاب وكأنها تريد أن تستند إليه ليحمل عنها ثقل الألم. . .

فعادت رحاب تقول وهي تبذل طاقة كبيرة في كبح جماح قلقها، قالت: لا تحسبي أن هناك ما يستحق أن يقلقك يا حسنات فان الخير كل الخير هو الذي ينتظرك يا أختاه. . .

وهنا تنهدت حسنات ورفعت وجهها نحو أختها لتقول: كيف تقولين هذا يا رحاب؟ ألا ترين أنني ومنذ سبعة أشهر مرتبطة شرعاً وعرفاً مع رجل لم أسمع منه كلمة، ولم أعرف عنه خبراً؟ الشيء الذي جعلني أتأكد أنه لم يكن راغباً بي وأنني فرضت عليه فرضاً، ولم يبق على عودته إلا أسابيع فماذا سوف يحدث بعد أن يعود يا ترى؟ أنني لا أريد أن أشكوه ولكنني أتألم وأفكر بمستقبل حياتي مع زوج حملت عليه تحميلاً. . .

كانت حسنات تتكلم وكل كلمة منها بمثابة شفرات حادة تقطع نياط قلب رحاب، ولكنها تماسكت ورأت أن عليها أن تعمل شيئاً من أجل هذه الأخت المسكينة فقالت بنغمة حاولت أن تكون مشرقة: كلا، كلا يا حسنات أنك غلطانة في طبيعة تفكيرك عن الموقف فان هذا الرجل الذي ارتبطت به شرعاً وعرفاً هو من أحسن الناس وأنبلهم وأليقهم بك يا عزيزتي. . .

قالت حسنات: أنني لا أنكر ذلك ولكن يبدو أنه لم يكن مقتنعاً باختياره لي...

قالت رحاب: أنه مقتنع تمام الاقتناع وليس لعدم اقتناعه أي دخل فيما تجدين كوني واثقة من هذا يا أختاه...

فتطلعت حسنات نحو أختها وسألتها بتعجب: من أين لك هذه الثقة يا رحاب؟

فاحتارت رحاب بماذا تجيب ولكنها أجابت قائلة بإصرار: أنني أعرف وتأكدي مما أقول...

قالت: ومن أين عرفت؟

وكادت رحاب أن تنهار فماذا عساها أن تقول؟ من أين عرفت؟ نعم من أين؟ يا لدناءة الطريق الذي عرفت منه ذلك، ولكنها تماسكت وقالت: يكفيك أن تعلمي بأنني متأكدة مما أقول وسوف أشرح لك ما أعرف بعد أيام قليلة أو أسابيع المهم أن تستعيدي ثقتك بزوجك المنتظر وتعودي إلى اشراقتك الباسمة للحياة، أرجوك يا حسنات... قالت هذا ونهضت لتطبع على جبين أختها قبلة أودعتها الكثير من الحب والحنان، ثم قالت: أتعاهديني أن تعودي طبيعية يا حسنات عودي إلى عهدك بالرضا والسعادة وسوف ترين بأنني صادقة فيما أقول...

فابتسمت حسنات وقالت بوداعة: لقد وثقت بكلامك يا

أختي وإن كنت لا أعـرف كيف أفسره ولكنني قـد بدأت أطمئن من جديد...

فأخذت رحاب بيدها وأنهضتها قائلة: إذن هيا بنا إلى أمنا فهي تنتظر...

* * *

كانت رحاب خلال الأيام التي أعقبت هذا الموقف لا تكاد تفارق حسنات إلا خلال ساعات دوامها، فهي دائماً معهـا تلاطفهـا وتتحـدث معهـا عن المستقبـل وتحـاول أن تساعدها بالخياطة والتطريز وهي بين ذلك كله تقرأ من كتبها ما تشاء فتزداد إيماناً واطمئناناً ولكنها كـانت تنتظر جـواب مصطفى حتى وصلها الجواب وكان ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات

حرسك الله ورعاك وسدد في طريق الحق خطاك...

يؤسفني أن أكون قد تأخرت عنك في الجواب ولكنها مشاغلي واستعدادي للامتحان النهائي... فـإليك الآن جـواب ما أردت يا حسنات وسوف أورده لك باختصار وأطلب منك مطالعة أصول العقيدة لتجدي فيه التفصيل. والآن فنحن لو وجدنا ماءاً قد وصل إلى درجة الغليان نتمكن أن نتساءل

عن السبب الذي أوصله إلى درجة الغليان فيأتينا الجواب أن السبب هو قربه إلى النار فنقول لماذا كان القرب من النار يوجب الحرارة؟ فيقال لأن النار حارة، وعند ذلك فهل يصح لنا أن نتساءل لماذا كانت النار حارة؟ بطبيعة الحال أن هذا السؤال غير معقول لأننا متى رأينا ناراً ليست بحارة لنتساءل متى أصبحت حارة؟ ثم ألسنا (جميعاً) مؤمنين وماديين متفقين على أن لهذا الكون سبباً وخالقاً ينتهي لديه التعليل والتفسير لأن لكل شيء نهاية ولا يمكن أن يستمر التفسير والتعليل إلى غير نهاية، وإنما نختلف في نوعية هذا السبب الأول فالماديون يزعمون أنه الطبيعة أو المادة أو الدهر كما يقول القرآن الكريم والمؤمنون يعتقدون بأنه الله العليم القدير، فنحن إذن بين افتراضين وحيدين وكل منهما يعترف بوجود سبب أعلى ليس له بدوره سبب فالمسألة إذن أن نعين نوعية هذا السبب الأعلى فهل يا ترى بالامكان أن يكون هذا السبب الأعلى للكون بكل ما فيه من حكمة واتقان وجمال وتدبير وضبط وإبداع وتمشياً مع مصلحة الانسان وحاجة الحياة، أقول هل يمكن أن يكون السبب الأعلى لكل ذلك قوة عمياء لا تعي ولا تدرك ولا تفهم ما هي الحياة ولا تعرف من سننها ما يعرفه حتى طالب الاعدادية كما يفترض الماديون من المهم المزعوم الذي يسمونه الطبيعة تارة والمادة أخرى والدهر ثالثة. ان الجواب كلا لأن النظام بحاجة إلى منظم والحكمة دليل على الحكيم

والعلم والجمال لا يعطيه إلا العالم الجميل فتبارك الله أحسن الخالقين.

مصطفى

عندما انتهت رحاب من قراءة رسالة مصطفى ذهبت إلى حسنات تطلب منها الكتاب وقد حسبت أنها لن تكتب إلى مصطفى بعد الآن وبدأت تقرأ وقد زادتها القراءة هدى واطمئناناً وصممت أن تكتب إلى مصطفى لتصارحه بالحقيقة إذ أنها لم تعد بحاجة إلى سؤال وجواب، ولكن خاطر خطر لها أسلمها إلى الحيرة من جديد، أنها ما دامت قد آمنت بالله فان عليها أن تؤمن بالقرآن ولكن كيف تعرف أو تطمئن إلى أن هذا القرآن هو من الله خالق الكون والحياة؟ إذن فهي ما زالت مشدودة إلى مصطفى... وصممت أن تكتب سيما وان حسنات قد تحسن وضعها النفسي بعد حديثها معها وأخذت تملي على نفسها التصديق بكلام أختها وإن كانت لا تعرف كيف تفسره... ولهذا فقد كتبت إليه من جديد قائلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي مصطفى... يا من نورت فؤادي
بنور الايمان وأخذت بيدي إلى طريق الحق
والرشاد... لقد أصبحت أشعر بتطفلي

عليك ولعلك لا تعلم لماذا ولكنك سوف تعلم عما قريب، وها أنني ما زلت مضطرة إليك فتعطف عليّ بالجواب. . . وسؤالي اليوم هو كيف يمكن أن أطمئن إلى أن القرآن هو كتاب الله عز وجل؟ أرجوك أن لا تنقم علي وسوف يكون هذا آخر سؤال أوجهه اليك ولعلك بعد هذا تغفر لي ما سببته لك من ازعاج. أرجو من الله أن يديمك لدينك إبناً باراً ولمن تحب ويحبك هدياً ومناراً.

حسنات

* * *

لم يطل انتظار رحاب للجواب فقد استلمته في أقرب وقت وكانت قد بدأت قبل ذلك بقراءة القرآن الكريم مع أختها حسنات وفي ذلك اليوم وقبل أن تخلو إلى نفسها لتقرأ الرسالة بادرتها حسنات تخبرها بفرحة أنها استلمت رسالة من زينب أخت مصطفى وأنها سوف تعود بعد نهاية الامتحانات. . . فتظاهرت رحاب بمشاركتها الفرحة ثم أردفت تقول: حتى مصطفى فأنه سوف يعود قريباً إن شاء

الله . . . قالت هذا وذهبت إلى غرفتها تقرأ الرسالة فكانت كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي حسنات

السلام عليك ورحمة الله وبركاته

دعيني أولاً أؤكد لك بأنني غير برم برسائلك وذلك لأنها مكنتني من أداء بعض الواجب بالنسبة لديني ثم أعود لأسألك من جديد، ترى لو وجدت طفلة صغيرة تعيش في محيط لا يفتح لها أبواب المجتمع وهي ما زالت لا تعرف القراءة والكتابة ولم تتطلع على أي مجلة أو صورة للأزياء ثم ومع كل هذا تجدينها تبرز للمجتمع فستاناً قد صمم على أحدث موضة، واعتمد ابتكارات مصممي الأزياء في باريس، تبرزه للمجتمع على أنه من خيطتها هي! فهل تراك سوف تصدقي منها هذه الدعوى؟ بطبيعة الحال أن الجواب سوف يكون نفياً، لأنها صغيرة، ولم يسبق لها أن مارست أي شكل من أشكال الخياطة ثم لأنها لا تعرف القراءة والكتابة

ولم تطلع على المجلات ونشرات دور الأزياء، ولم يحدث أن سافرت إلى باريس مثلاً، وهي كذلك وبحكم محيطها المنغلق لم تنفتح حتى للمجتمع الذي حولها فكيف تمكنت مع كل هذا أن تصمم هذا الفستان الذي يحمل معه ابتكارات جديدة وخطوط موديلات كلاسيكية قديمة؟ ولهذا فلا شك أن هذا الفستان قد وصلها من سواها وإن هناك مصمم يعرف تاريخ تصميم الأزياء في الماضي، ويشخص أصلح ابتكارات الموضة في الحاضر، وهو مع هذا دقيق في عمله بارع في صناعته... وإلى هنا اعتقد أن انكار خياطة الطفلة للثوب والاعتقاد بأن هناك غيرها من أبدع خياطته هو أمر مفروغ منه، وبعد هذا نأتي إلى رسالة السماء التي قدمها للبشرية رجل صادق أمين قد تربى في صحراء الجزيرة العربية تربية قاحلة من العلوم والفنون والآداب حتى أنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ولم يغادرها إلا مرتين. مرة وهو صبي صغير ومرة في تجارة مع ركب من المتاجرين العرب أمثاله

ولم يعرف عنه من قبل دراسة لما مضى أو حديثاً عما يأتي، ثم وفجأة يقدم للبشرية رسالة معجزة أعجزت العرب ببيانها وتحدتهم ببلاغتها حتى قال عنها قائلهم وهو من أشد المعارضين لها قال حينما استمع إليها = والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الأنس، ولا من كلام الجن، وان له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمعذق وأنه ليعلو وما يعلى عليه، وانه ليحطم ما تحته = وحققت اعجازها من نواح كثيرة أيضاً منها اخبارها بحوادث الرسالات السابقة على شكل تذكرها كتب تلك الرسالات مع أن حامل الرسالة لم يكن من الممكن له أن يقرأ كتاباً واحداً منها لجهله حتى القراءة العربية فكيف باللغات الأخرى كما أشارت إلى ذلك الآية المباركة التي تقول: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما

كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ ثم أن الحوادث الماضية لا يمكن لها أن تكون مستنسخة حتى لو فرضنا تمكن حامل الرسالة من الاستنساخ لأن القرآن يذكر هذه الحوادث بشكلها الصحيح بعد تنزيهها مما لصق بها زوراً وتشذيبها عما لحقها من تحريف وتضليل، اذن فالقرآن يتعرض إلى الحوداث الماضية بشكل ايجابي ولا يكتفي بالذكر السلبي فقط... هذا بالاضافة إلى أن هذه الرسالة قد تنبأت بوقوع أحداث لم يكن يحتمل وقوعها ثم حدث، كما أخبرت به، ومثال ذلك الآية المباركة التي نزلت بعد أن غلبت الروم على أيدي الفرس فسبب ذلك حزناً عند المسلمين، لأن الفرس كانوا يمثلون الجانب الوثني، والروم كانوا يمثلون الجانب الكتابي، فنزلت الآية المباركة تقول: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وبضع سنين في الاصطلاح العربي هي لا تتجاوز العشر

سنين وقد وقع فعلاً ما أخبرت به الآية المباركة بعد تسع سنين تقريباً، أو ليس في هذا ما يبعث في نفسك الاطمئنان إلى أن هذه الرسالة هي رسالة السماء وأنها ليست من إنشاء محمد بن عبد الله؟ ثم وبعد هذا دعيني أذكر لك بعض جوانب الاعجاز العلمي للقرآن: فقد جاء في الآية المباركة: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وقد اكتشف أخيراً وبعد تقدم الفكر العلمي للبشرية أن للرياح دوراً في تلقيح الأشجار الشيء الذي جعل المستشرق الانجليزي (اجنيدي) أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد يقول: (إن أصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يتوصل العلم في أوربا إلى ذلك بعدة قرون) كما أن العلم قد أثبت أخيراً ان الأرض تتناقص يوماً بعد يوم وتنكمش على نفسها بعد أن انفصلت عن الشمس وأخذت تبرد وأن مما يساعد على انكماشها وهو تشقق قشرتها وخروج الحمم والبراكين منها كما أن الضغط الجوي والجاذبية الأرضية وضغط

الانكماش المستمر يساعد على تضاؤل حجمها أيضاً، هذا ما أثبته العلم، أما رسالة السماء فقد أخبرت بذلك قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً بما جاء في الآية المباركة التي تقول: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ ومثال ثالث هو الآية المباركة التي تقول: ﴿إذا الشمس كورت﴾ ثم وبعد قرون عديدة يبرز علينا العلم باكتشافه الجديد وهو أن الشمس تحترق كالشمعة وسيأتي يوم تذوى فيه وتقل حرارتها نتيجة تبدد شعاعها وسلسلة التفاعلات التفجرية في باطنها فتموت كما تموت بقية الشموس والنجوم...

أرجو أن لا أكون قد أطلت عليك ولأجل مزيد من الاطمئنان إقرأي كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن بني وأتمنى لك كل خير وصلاح.

مصطفى

* * *

أعادت رحاب قراءة الرسالة مرات ومرات ثم ألقت برأسها على المنضدة التي أمامها واندفعت تبكي بحرقة وألم ومع كل دمعة كانت ترسم لها صورة مرعبة عن جريمتها وعن موقفها المحرج الذي زجت نفسها به فقد بدأت تحس بالواقع كما لم تكن تحس من قبل، فهي الآن ليست تلك الرحاب التي أقدمت على الخطوة الأولى، أنها إنسانة ثانية لا تمثل تلك إلا بالمظهر الخارجي، وحتى هذا فقد تغير عما كانت عليه فقد أخذت تلتزم بارتداء الملابس المحتشمة وتركت المكياج، ولهذا فهي الآن تتعذب وبضراوة، واندفعت تبكي والرسالة إلى جانب رأسها على المنضدة وعلا نشيجها دون أن تحس حتى بلغ مسمع حسنات في غرفتها المجاورة فهالها أن تبكي رحاب هكذا وخشيت أن تكون قد أصيبت بنكسة تحيد بها عن الطريق الذي بدأت تسير فيه فبادرت إليها وفتحت الباب دون استئذان إذ أن الكلفة كانت قد ارتفعت بينهما أخيراً وانحنت عليها تقبلها بحنان وهي تقول: رحاب، رحاب ماذا بك يا أختاه؟ رحاب أجيبيني لماذا كل هذا البكاء؟ هل حدث لك مكروه قولي؟ ولم تكن رحاب لتجيب فقد زاد وجود حسنات وحنانها من حرقة بكائها واستمرت حسنات تحاول أن ترفع رأسها وهي تقول: أرجوك يا رحاب ارحميني أنا على الأقل ألست أختك يا رحاب أنا لا أتمكن أن أراك تبكين أن دمعة واحدة من عينيك تحرق فؤادي فكيف بهذا البكاء؟ رحاب رحاب وكانت حسنات تندفع مع كلماتها

العذاب جاهلة أنها تزيد من عـذاب أختها المسكينـة... وتمكنت أخيراً من رفع رأسهـا عن المنضدة وإسناده إلى صـدرها وأخـذت تمسح دمـوعها بـرفق وتناغيهـا بـأعـذب الكلمات وتهدىء عليها بحنان، ثم لاحت لنظرها الرسالة، وكانت كالعادة تحمل عنوان صديقة رحاب ولكنها خمنت أن لهذه الرسالة مساساً في وضع رحاب النفسي. فقالت لعل هذه الرسالة قد حملت إليك أمراً تكرهينه يا رحاب؟ ولكنني لا أظن أن صاحب هذا الخط الجميل يكتب الى الآخرين ما يؤذي، يبدو أن صديقتك مذواقة في اختيار الصديقات.

وهنا اندفعت رحاب تقول في كلمات يقطعها النحيب: أنني مجرمة، أنني ظالمة، أنني لا أستحق حبك يا حسنات...

فحسبت حسنات أنها تريد أن تشير إلى ماضيها فقالت: دعيك من هذا يا أختاه فأنت الآن في طريقك إلى الكمال ولم يبق لك سوى خطوة واحدة تكونين بعدها خيراً مني يا رحاب لأن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له فاندفعت رحاب تبكي من جديد ثم رفعت عينها نحو اختها بنظرة استرحام وقالت: وهل حقاً أن الله سوف يغفر لي يا حسنات؟

قالت حسنات: نعم يا رحاب وقد قال نبينا (ص) لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم، وقال (ص) أيضاً: التائب حبيب الله، إذن فأن الله عز وجل لا يغفر لك فقط بل أنه يحبك أيضاً، ويفرح بتوبتك كما جاء

عن الامام الصادق (ع) أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها، والآية المباركة تقول أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فكيف تشكين برضاء الله تعالى عنك لو التزمت بجميع ما يأمر يا رحاب؟

وكانت رحاب قد هدأت نسبياً وهي تستمع إلى كلام حسنات الهادىء الرصين وهي لا تفتأ تتطلع اليها كما يتطلع الغريق إلى منقذه وكأنها اندمجت مع كلام حسنات فغفلت عن وضعها الخاص وحراجته فقالت ورأسها ما زال على صدر حسنات: وما هي الخطوة التي تعنيها يا حسنات؟.

قالت حسنات، وهي تمسح على رأس أختها وجبينها: إنها الحجاب يا رحاب، ألم تقرأي معي في سورة النور آيات الحجاب ولا شك أنك تؤمنين بالقرآن الكريم كرسالة من السماء أتت لتنظم حياتنا وتهبنا السعادة في الدارين...

وكانت كلمات حسنات الأخيرة كفيلة بتحسيس رحاب بواقعها المؤلم من جديد! نعم أنها الآن تؤمن أن القرآن رسالة السماء ولكن كيف تحقق لها هذا الايمان وعن أي طريق؟ فهي لا تشك أن حسنات لو علمت لما تمكنت من النظر إليها بعد الآن، ولكن حسنات كانت مستمرة بحديثها عن الحجاب ومصالحه الاجتماعية وحفاظه لكيان المرأة...

وشعرت رحاب أنها في حاجة إلى أن تعرف المزيد عن الحجاب، فهي تريد أن تتحجب ولكنها لا تعرف كيف

ولماذا؟ ولهذا فقد اعتدلت في جلستها وأخذت تستمع إلى حسنات بكل هدوء ثم قالت: إذن فان الحجاب ليس عادة دخيلة على الاسلام من الفرس؟

فقالت حسنات: كلا يا رحاب فان آية الحجاب نزلت قبل أن يفتح المسلمون فارس وقبل أن يحدث بينهم أي تماس وتعارف، ثم أن الحجاب الذي فرضه الإسلام يختلف عن الحجاب الذي كان متبعاً عند الفرس من قبل فهو بتعبير أصح ستر وليس حجاباً بالمعنى الذي يحجب المرأة عن الحياة كما كان يحجبها الفرس القدماء ويمكنك أن تطمئني إلى صحة كلامي بمراجعة سورة النور وآيات الحجاب وتقفي عند الآية المباركة التي تقول: ﴿قل للمؤمنين يغضو من أبصارهم﴾ إلى أن تقول: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ فلماذا هذا الأمر بالغض من البصر إذا كان في الستر الذي فرضه الاسلام عزلاً للمرأة عن الحياة؟ ان الغض من بصر الرجل يعني امكان وجود المرأة إلى جواره والغض من بصر المرأة يعني امكان وجود الرجل إلى جوارها، ولكن ولأجل الحيلولة دون إثارة مشاعر اطلاقها يعني الفوضى الجنسية والاجتماعية وحبسها يعني الكبت والحرمان اللذين يجران إلى العديد من الأمراض النفسية والعصبية لأجل صيانة هذه الغرائز من الاثارة المستمرة مع ما عرفناه من إمكان أن يعيش كل من المرأة والرجل إلى جوار بعضهما في المجتمع، أمر الاسلام بالستر كتنظيم وقائي للمرأة والرجل سواء بسواء، ألا ترين

أن أكثر الويلات والمشاكـل الاجتماعيـة نشأت من نتيجـة الاختلاط المطلق بين الجنسين.

وهنا سكتت حسنات تنتظر من أختها الجواب وكانت رحاب تستمع إليها بكل هدوء، فلما سكتت بادرتها قائلة: لقد كنت أسمع أن الحجاب في الاسلام هو صورة عن أفكار الرهبنة والتقشف وترك الملاذ، وبما أن المرأة هي من أهم متع الحياة بالنسبة للرجل فرض عليها الحجاب تمشياً مع باقي الفـروض القاسيـة التي يضعها أو يفـرضها عـلى نفسه في الحياة. . .

قالت حسنات: يؤسفني أن تكـوني قد سمعت أشيـاء شوهت أمامك مفهوم الحجاب مثل هذه الناحية التي ذكرتيها مع أن الاسلام لم يـدع في يوم من الأيام إلى أفكار الرهبنة وترك ملاذ الحياة بل على العكس من ذلك تماماً فقد أبصر رسـول الله (ص) من الـدين المتعـة، والمتعـة التي عنـاهـا الرسول (ص) هي التمتع بملاذ الحياة التي خلقها الله لعباده، وقال الامام أمير المؤمنين عليه السلام: ان الله جميل يحب الجمال، وقال الامام الصادق (ع) وهو يخاطب أصحابه ما نعني:

أن الله قد أنعم عليكم فلا تخفوا نعمه، فقالوا وكيف ذلك يا ابن رسول الله فقال (ع) ينبغي أن يكون لباس الواحد منكم

نظيفاً وريحه طيباً وجداره أبيضاً وداره مضيئة فان في ذلك توسعه في الرزق وقد شكون. ثلاث من النساء إلى الرسول (ص) أزواجهن، فقالت احداهن أن زوجي لا يأكل اللحم وقالت الثانية أن زوجي يبتعد عن الطيب، وقالت الثالثة أن زوجي يبتعد عن النساء، فظهر الألم على الرسول (ص) وخرج من بيته إلى المسجد وصعد المنبر وقال: لقد بلغني أن بعض أصحابي ترك اللحم والطيب والنساء وها أناذا أكل اللحم واستعمل الطيب وأتمتع في النساء.

أيما أحداً عرض عن منهجي هذا فهو ليس مني، وكان رسول الله (ص) يرجل شعره وينظر في حب الماء بدلاً عن المرآة قبل أن يخرج إلى أصحابه ويقول: أن الله يحب من العبد أن يبدو أمام أصحابه بشكل جميل، فهل تجدين في هذه الأمثلة ما يشير إلى تبني الاسلام لفكرة الرهبنة وترك ملاذ الحياة فكيف يمكن أن ننسب الحجاب في الاسلام إلى هذه الغاية؟ والاسلام كما ترين يحارب فكرة الرهبنة ويعارضها وسوف أعطيك كتاب العفاف بين السلب والايجاب لزين الدين لتتعرفي أكثر فأكثر على فوائد الحجاب ومضار السفور، وقد اعددت لك مفاجأة لا بأس أن أخبرك بها الآن وهي أنني

قد أعددت بدلة حجاب كاملة لكي أقدمها لك عند أول بادرة رغبة وأرجو أن لا يكون انتظاري طويلاً لتلك البادرة، وكانت رحاب قد استعادت وضعها النفسي الطبيعي فحاولت حسنات أن تتحدث معها بعض أحاديث خارجية ثم قامت لتنصرف إلى غرفتها ولاحظت رحاب أنها ألقت نظرة ثانية على المظروف الملقى على المنضدة قبل أن تخرج...

عادت حسنات إلى غرفتها وألقت بنفسها على الكرسي هناك وتمتمت تقول: أجدني أكاد أعرف هذا الخط الذي على الظرف أنه ليس غريباً علي تماماً!! آه أنه يشبه خط مصطفى، نعم خطه في الاهداء الذي رأيته على الكتاب الذي كان قد أهداه لزينب، نعم لقد تذكرت الآن وقد اعارتني إياه وظني أنه ما زال بين كتبي، قالت هذا ونهضت تفتش بين كتبها حتى وجدته كان كتاب (الشيطان يحكم) لمصطفى محمود ففتحته وألقت على الاهداء نظرة فاحصة ثم تهاوت على الكرسي قائلة: يا لله، أنه نفس الخط، أو أنه يشبهه إلى حد بعيد، ولكن كيف حدث هذا وما هي علاقة مصطفى بصديقة رحاب؟! كلا لا شك أنني غلطانه فلعل هناك الكثير من الخطوط تتشابه وتتقارب ولكن ما معنى هذا يا ترى؟ لعل لهذا علاقة مع بكاء رحاب «لعلها عرفت عن مصطفى شيئاً غير مريح» ولكنني لا أريد أن أشك باستقامة مصطفى فلماذا أفتح أمامي أبواب تصورات خاطئة؟ نعم لماذا؟ قالت هذا ثم

أخذت كتاباً تحاول أن تقرأ فيه ولكن تفكيرها كان غير قادر على استيعاب ما تقرأ فقد كان فكرها يقفز بين حين وحين إلى الرسالة والاهداء وتشابه الخطين ولهذا فقد حاولت أن تنام ففشلت في محاولتها هـذه أيضاً فلم يسعهـا إلا أن تستلم للتفكير...

ويعد مضي ساعات لم تبرح خلالها غرفتها دخلت عليها رحاب ففرحت لقـدومها عسـاها تبتعـد معها عن أفكـارها القاسية، أما رحاب فقد وقفت أمامها تقول: أنني أطلب منك شيئاً يا حسنات...

فردت حسنات باندفاع: قولي ما تريدين يا رحاب.

قالت: أريد أبراد الحجاب التي أعددتها لي فقد صممت أن أتحجب منذ اليوم...

فأشرق وجـه حسنات بـالفرحـة رغم وضعها النفسي السيء ونهضت فقبلت رحاب أولاً ثم ذهبت إلى خزانتها فاستخرجت منها زي الحجاب الكامل الذي كانت قد أعدته لرحاب وقدمته اليها بكل فـرح وسعادة، فـأخذتـه رحاب شاكرة وقالت: أرجو أن لا أتخلى عنه بعد اليوم أبداً، كما وأرجو أن لا تتخلي عني يا حسنات بعد اليوم أيضاً...

فاستغربت حسنات كلام أختها وقالت: أنا أتخلى عنك يا رحاب! وكيف يخطر لك دلك إن هذا لن يحدث أبداً مهما كان...

قالت رحاب: مهما كان ومهما عرفتِ عن ماضيَ يا حسنات؟.

قالت حسنات في ثبات وتصميم: نعم مهما كان ومهما عرفت عن ماضيك ما دمت أنتِ الآن نقية طاهرة...

قالت رحاب: حتى ولو كنت قد أسئت اليك من قبل؟.

قالت حسنات: حتى هذا فان مجرد فرحي بحجابك تعدل عندي كل اساءة ماضية ثم أنك أختي وحبيبتي فكيف تحسبينني أحقد عليك يا رحاب؟

قالت رحاب: أتمنى هذا منك وان كنت لا استحقه يا حسنات وعلى كل حال فألف شكر لك يا أختاه، ثم استدارت وخرجت من الغرفة وهي تجهش في البكاء وتركت حسنات في حيرة من أمرها وأمر أختها وأمر الرسالة والاهداء.

* * *

عادت رحاب إلى غرفتها وقد صممت أن تنتهي هذه المسرحية المخجلة وعليها أن تتحمل النتائج مهما كانت وأن تواجه الواقع على مختلف احتمالاته، وفعلاً فقد أخذت القلم لتكتب ولكنها عادت فألقت بالقلم على الأرض في عنف ونهضت قائلة: سوف لن أكتب بهذا القلم بعد اليوم، أنه قلم مدنس بكلمات الخيانة، ثم ذهبت فاستخرجت قلماً

جديداً وعادت لكي تكتب فيه صفحة جديدة من صفحات حياتها الجديدة فكتبت ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الفاضل الأستاذ مصطفى...

لست أدري كيف أبدأ رسالتي وهي المرة الأولى التي أكتب فيها (أنا) اليك! نعم أنا ويا لخجلتي مما اكتب، ولكن ميلادي الذي كان على يديك وعمري الجديد الذى وهبتني إياه تعاليمك، جعلاني أؤمن ان العار أولى من النار، وأن الخجل هنا أهون من الخجل أمام الله الواحد القهار، وهذا ما دفعني لأن اكتب لأضع الحقائق أمامك جلية واضحة بعد أن شوهتها ولونتُها مدة منٍ الزمان، ولعل اعترافي هذا بصدق دليلاً على ندمي على ما مضى وتوبتي لله تبارك وتعالى عما اقترفت وأذنبت، والآن إليك هذه الحقيقة يا سيد مصطفى... آه أنك سوف تذهل أولاً ثم تفرح ثانياً ثم تحتقرني وتنقم عليَّ ثالثاً، ولكن المهم أن أكون قد قمت بواجبي

تجاه ربي ،وتجاهكما وتجاه ضميري الذي يأبى أن يهادنني دون أن أعترف وبصراحة. . . واعترافي هذا هو أنني أنا التي أكتب اليك الآن والتي كتبت اليك منذ جواب أول رسالة أرسلتها يا سيد مصطفى. أنني رحاب أخت حسنات! ولم تكن حسنات في يوم من الأيام لتكتب ما كتبت لأنها لم تكن تشك كما شككت. . . نعم أنها مؤمنة كقديسة وطاهرة كملاك وجميلة كحورية فكيف لها أن تكتب ما كتبته أنا؟ نعم أنا التي كنت أعيش عالم التيه والضلال، أنا التي خضعت للشيطان فأغواني وللهوى الباطل فاستهواني، فتلوثت روحي وانطمست معالم الخير من ضميري، واندفعت وراء حسدي وغروري، فتقمصت شخصية حسنات التي هي حسنات حقاً، وكتبت اليك ما كتبت وأنا أتوقع منك القطيعة لها، واعلم أن في ذلك تعاسة أختي، ولكنني كنت مندفعة وراء الباطل فكتبتُ ما كتبتُ وأعطيتك عنواناً آخر لكي لا تصل الرسائل إلى البيت فتستلمها حسنات. ثم

بـدأت تكتب إليّ فتـكشـف عن عـيني أغشية الخداع والتضليل وكلما كنت أتقدم إلى الخير خطوة كان ضميري يلح عـلي مؤنباً ومؤنباً من جديد، وطالما حاولت أن أنثني عن طريقتي المنحرفة وأنسحب عن حيـاتكما الصـالحة، ولكنني كنت أشعـر بالحاجة إلى تعاليمك وهدايتك ولهذا... تابعت خطواتي في الطريق الوعرة الخطرة اتطلع إلى مصدر النور الذي كنت تهبني إياه، وكنتُ ألاحظ حسنات وهي تتألم من جفائك وتتعذب لانطوائك فكان يزيدني هذا عذابـاً على عـذاب، نعم حسنات وليتك تعلم كيف هي حسنات أنها وبينما كنت أعمل على هـدم سعادتهـا، كانت تفرح كلما وجدتني أقرأ كتاب أو لاحظت عـلي بوادر اصـلاح، كانت تتحبب إلي وتتقرب فرحة بعودتي إلى حضيرة الايمان، جاهلة أن هذه العودة كانت على حساب سعادتها وراحتها، لا تحسب أنني أمدحها لأنها أختي، كلا فقد كانت أختي ولم أكن أحبها لأنني ما كنت أثمن جوهرها ولكنني وقد عرفتها على واقعها بدت عندي فوق

كل مدح، لقد أرسلتُ لك أخيراً صورتها فهل رأيت كم هي جميلة؟ وكم هي رائعة؟ ولكنك لم تذكر عنها شيئاً في الجواب لأنك لم تكن تريد أن تمجد جمال انسانة ما زالت تشك بأهم المقدسات ولهذا فقد أغفلت ذكر الصورة، وصورتك يا سيد مصطفى أتعلم أنها ما زالت عندي لا أعرف كيف أوصلها إلى حسنات؟ آه ها أنت قد بدأت تتقزز مني يا سيد مصطفى ومن حقك ذلك ولكن هكذا كان... فقد سبق أن سألتني عن الطريق الذي أحصل به على الكتب، فأغفلت الجواب، فماذا كان عساي أن أقول؟ أنني كنت أستعيرها من حسنات التي وضعت مكتبتها تحت تصرفي... نعم هل كان يمكنني أن أقول لك أنني استعيرها من حسنات؟ يا لله لكم أسخط على نفسي وكم احتقرها واستصغرها ولكن لعل هذا الاعتراف سوف يبعث شيئاً من الرضا في نفسي ويهبني راحة الضمير، ثم وقبل كل شيء أن ما يهمني هو رضاء الله علي أفتراه يرضى؟

والآن يا سيد مصطفى أرجو أن تصلك هذه الرسالة وقد انتهيت من امتحاناتك وأنت تستعد للعودة، ولكنني أرجو أن تكتب إلى حسنات قبل أن تعود، دعها تستلم ولو رسالة واحدة منك على الأقل، ثم أن لك أن تنقم فيها علي كما تشاء.

هذا واستميحك العذر من جديد وأتمنى لـك من كـل قلبي مـزيـداً من الخـير والسعـادة، واغفـر لي واسلم لـدينـك ولحسنات إلى الأبد.

رحاب

أتمت رحاب كتابة الرسالة وكتبت العنوان على الغلاف ثم ارتدت ملابس الحجاب التي أهدتها إليها حسنات ووضعت الرسالة في حقيبتها اليدوية وذهبت إلى غرفة حسنات فطرقت الباب دون أن تدخل ففتحته لها حسنات فوجدتها بملابس الحجاب فهتفت تقول: الله ما أروعك بهذا اللباس يا رحاب تعالي وتطلعي إلى مظهرك المحترم في المرآة...

قالت رحاب: كلا فأن لـدي مهمة مقـدسة عـلي أن أنجزها في أسـرع وقت وقد بـدأت بارتداء الحجاب مـع انجازها...

قالت حسنات: وهل سوف تتأخرين في الخارج يا رحاب؟

قالت رحاب: كلا فان علي أن أعود سريعاً وسوف أعود اليك فانتظريني يا حسنات... قالت هذا وذهبت تاركة حسنات نهباً للحيرة والفكر.

* * *

أبردت رحاب رسالتها إلى مصطفى وعادت الى البيت، فخلعت حجابها وتوجهت إلى غرفة حسنات فهي تريد أن تعترف لها بكل شيء، يكفي ما كلفتها من آلام، وكانت كلما مشت خطوة عادت فوقفت حائرة كيف سوف تبدأ؟ ماذا سوف تقول؟ ما هي ردود الفعل عند حسنات؟ لا أنها سوف تنقم عليها بشدة، لا شك أنها وعلى الأقل سوف تعاقبها بقساوة، وخشيت أن تجبن عن الاعتراف فاندفعت نحو غرفة حسنات بخطوات ثابتة وهي تقول: ليس لي أن أخشى شيئاً ما دمت أؤدي عملاً يرضي الله، وكانت حسنات تنتظر أختها بشيء من القلق، ولهذا فقد تطلعت إليها بلهفة وجلست أمامها تنتظر، فكان أول عمل قامت به رحاب أن أخرجت من حقيبتها صورة مصطفى ومقدمتها إلى حسنات، فأخذتها حسنات واستغربت الأمر فأدارت الصورة لترى ما كتب خلفها فوجدت كلمات اهداء عذبة موجهة نحوها وموقعة باسم مصطفى! فعلت وجهها صفرة باهتة أعقبتها حمرة ثم

رفعت وجهها إلى رخاب قائلة: متى وصلت هذه الصورة يا رحاب؟

قالت رحاب، وصوتها يكاد يعود إلى الأعماق: لاحظي التاريخ يا حسنات...

فألقت حسنات نظرة على التاريخ ثم قالت: ماذا؟ أن تاريخها يعود إلى ما قبل سبعة أشهر فأين كانت كل هذه المدة يا رحاب؟

قالت رحاب: أنها كانت عندي يا حسنات ألم أقل لك بأنني مجرمة؟ ألم أقل لك بأنني لا أستحق منك الحب والحنان؟

قالت حسنات: كلا، كلا أنا لا أسمح لك بهذا الكلام يا أختاه ولكن حدثيني بحديث الصورة إن سمحت يا أختاه..

قالت رحاب: أنا ما قدمت اليك إلا لأحدثك حديث هذه الصورة يا حسنات ولك بعد حديثي أن تعامليني بما تريدين، ثم بدأت تحدثها بكل شيء وكانت حسنات تستمع إليها بكل هدوء الشيء الذي أعجب رحاب وشجعها على متابعة الاعتراف، وما أن انتهت من حديثها حتى أطرقت تنتظر الحكم... فقامت إليها حسنات وقبلتها بحنان قائلة: بنفسي أنتِ يا أختي لكم تحملتِ من آلام؟

فرفعت رحاب رأسها نحو حسنات وهي لا تكاد تصدق ما تسمع ثم قالت: أنا؟ أنا التي تحملت الآلام أم أنتِ التي حملتك الآلام يا حسنات؟!

فردت حسنات تقول: ولكن آلامي هانت لدي عندما عرفت أنها كانت الطريق الغير المباشر لهدايتك ولهذا فأنا الآن أشعر بالسعادة مضاعفة لأنني حصلت على أخت صالحة وزوج صالح...

قالت رحاب: وهل سوف تغفرين لي خيانتي يا حسنات؟

قالت: نعم وسوف أنساها لعمق فرحتي بك وبإيمانك وبعودة مصطفى إلي وهاك هذه القبلة كدليل على اخوتي التي لم تتغير ولم تتبدل، ثم طبعت على جبين أختها قبلة حب صادقة ثم جلست إلى جوارها وصورة مصطفى ما زالت بيدها وهي تتطلع إليها بين حين وحين فقالت رحاب: أنظري كم هو جميل بالاضافة إلى باقي ما يميزه؟

فابتسمت حسنات وقالت: أن الجمال لا يهمني كما تهمني الشخصية والايمان، أنا لم أفكر يوماً في جماله وعدمه ولكن طالما فكرت في سلوكه وسيرته.

* * *

مرت الأيام وقد عادت إلى حسنات إشراقتها وعادت من

جديد تنسج تصوراتها لحياتها القادمة، وكانت خلال ذلك تحاول أن تهب رحاب مزيداً من الحب والحنان والاهتمام لكي تبعد عنها كل شائبة، وبعد مضي أكثر من ثلاثة أسابيع حيث كانتا تجلسان معاً في غرفة رحاب دخلت عليهما الخادمة تحمل بيدها رسالتين، ولم تمد إحداهما يدها نحو الرسائل، وكأن كل منهما كانت تنتظر المبادرة من أختها ولهذا فقد وضعت الخادمة الرسائل أمامهما وانصرفت، وتطلعت عيونهما نحو الرسالتين وقالتا بصوت واحد: انهما من مصطفى، وكانت إحداهما موجهة إلى حسنات والأخرى إلى رحاب، وكأن رحاب خشيت أن تفتح رسالتها لجهلها بمحتواها، ولكن حسنات شجعتها قائلة: سوف لن أفتح رسالتي حتى تفتحي رسالتك يا رحاب أنني أخمن أن تكون رسالة مريحة لك يا عزيزتي. ففتحتا رسالتيهما معاً، فأما رحاب فقد وجدت رسالتها كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخت الفاضلة الست رحاب

سلامي وتحياتي وخالص دعائي وتمنياتي

ها أنا أكتب اليك بشكل جديد، وكما لم أكن أكتب من قبل بعد أن بدأت أشعر نحوك مزيداً من الاحترام والاكبار فأنا الآن أحس بأنني أكتب إلى انسانة عظيمة

قهـرت بـارادتهـا الشيـطان، وتـرفعت بمعنوياتها على الاغـراء والاهواء فحققت رقماً قياسياً بتنزيه النفس وتجريدها عن كل شائبة وبلورتها بالشكل الذي يرضاه الله، فبورك لك هذا الشؤ الذي بلغتيه وهنيئاً لشخصك هذا السبق الـذي أحرزتيـه، وأنني ومنذ استلام رسـالتك الأخيـرة أو (الأولى) أعـدك أختـاً لي يسعـدني مـا يسعدها ويؤذيني ما يؤذيها ويهمني أمرها إلى أبعد الحدود، ثم أنني أرجو أن لا تكدري فكرك بمراجعة الأحداث الماضية، وأن تكوني واثقة من أنني لا أضمر لك إلا كل احترام وإعزاز، وأملي أن تكون حسنات كذلك لأنها وكما ذكـرت عنها، حسنات، وهل تصدر السيئة عن الحسنة؟ وأخيـراً أعـود فـأتمنى لـك كـل خـير واستودعك الله طالباً لك مزيـد التوفيق والتسديد.

مصطفى

أما رسالة حسنات فقد كانت من الرقة والعذوبة بشكل

عوضها عن حرمانها الطويلة، وكانت حسنات خلال قراءتها للرسالة تتطلع نحو رحاب خشية أن يكون في الرسالة ما يكدرها ولكنها اطمئنت عندما وجدت علائم الراحة بادية على تعابيرها، وما أن انتهت كل منهما من القراءة حتى تعانقتا على فرح وسعادة بالغين ثم قالت حسنات: هل تعلمين أنه سوف يعود بعد أسبوعين؟

فقالت رحاب : مرحباً به متى جاء.

وبعد أسبوع من وصول الرسالة اتصلت بهم أم مصطفى تطلب منهم تحديد موعد لزيارتهم، فحددوا لها عصر ذلك اليوم وخمنوا أنها آتية للتحدث حول مقدمات الزفاف، ولكنها عندما حضرت كانت تخطب رحاب لأبنها محمد وتقترح لو حصلت الموافقة أن يتم زواج الأخوين في وقت واحد. . .

* * *

وفعلاً فقد تم زواج الأختين في يوم واحد وسعدت كل مع زوجها.

الفهرس